رواية

أحاديث الجن والسُطل

العنوان: أحاديث الجن والسطل
عدد الصفحات:252
المؤلف: محمد عمرو الجمال
القياس:14× 21
الطبعة الأولى:2018
الفئة: رواية
لوحة الغلاف: د. محمد سامي (مصغرات)
تصميم الغلاف: Nostalgia

هاتف: 01113345885 -0482199262 (2+)
بريد إلكتروني:info@nostalgiamtp.org
الموقع الإلكتروني: www.nostalgiamtp.org
المدير العام: أحمد البربري

ابن رشد
وكلاء وناشرون
إشراف عام: أحمد إبراهيم
المدير التنفيذي: بيسان عدوان
ibnroshdeg@gmail.com
+2 0100360778/ +2 01000377889

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 2018/15473

الترقيم الدولي 978-977-700-223-3 ISBN

جميع الأحداث والوقائع الواردة في الرو اية هي محض خيال المؤلف، وليس لها علاقة بالو اقع، وأي تشابه بينها وبين الو اقع هو من قبيل المصادفة.

جميع الآراء والأفكار التي يتضمنها الكتاب تعبر عن رؤية مؤلفها، ولا تمثل بالضرورة وجهة نظر الناشر.

حقوق النشر والطبع والتوزيع محفوظة لدار ابن رشد للنشر والتوزيع

Ibn Roshd Egypt©

لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكلٍ من الأشكال دون إذنٍ خطيّ من الناشر، تستثنى الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب، وما ينشره المؤلف عبر وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي أو موقعه الشخصي.

دار ابن رشد للنشر والتوزيع نوستالجيا للإعلام والترجمة والنشر

رواية

أحاديث الجن والسِّطل

محمد عمرو الجمال

2018

الإهداء

إلى نداهة الترعة القديمة، التي آلمتني بالحكايات.

أنا

حسناً... أنا مجنون...

دعنا نصل إلى هذه النتيجة مبكراً من قبل أن نستهلك سطوراً وخلايا عصبية كثيرة في اكتشاف هذه الحقيقة البسيطة. فبعد كلماتٍ قليلة معكم سوف تكتشفون مثلاً أنني لا أدرك ولا أميز الوقت الذي نعيش فيه كلنا الآن، بل ولا أستطيع أن أرى جسدي، لا يمكنني تخمين الوضعية التي أحدثكم منها الآن، هل أنا قائمٌ أم متكئ مثلاً، أنا لا أعرف إن كنتُ حياً أم ميتاً أصلاً. كل ما أنا عليه الآن هو إحساس بالوجود تشغلهُ ذاكرةٌ مفعمةٌ بالأحزان وتحدثني نفسي أنني أعيش في الأربعين يوماً الأخيرة قبيل الموت، من أجل ذلك فإني أزوغ بين العالمين. لكنني جلست مرةً على رخامةٍ بيضاء في حديقة خضراء واسعة، وجاء رجلٌ وزوجته التي كانت تحمل رضيعها على صدرها ووقفا عندي، ثم جلس كل واحدٍ منهما على ركبةٍ لي وفاضا بأدق أسرارهما في حجري من دون أن يلحظا وجودي. ثم جلست الزوجة عن يميني وأخرجت ثديها لترضع الصغير، ثديها الأبيض جداً الذي كان يشبه نغمة "دو" على البيانو، وبكت فَرَقَّ لها زوجُها ثم حوطها بذراعه وانصرفا من غير أن يلحظا وجودي أصلاً... أين وجودي بل أنا ميت، وأكيد مؤكدٌ أنني أعيش في الأربعين يوماً الأولى بعد موتي من أجل ذلك أتوه بين العالمين. ما رجح لي فكرة موتي عن سواها أنني تذكرتُ موضع الجرح الغائر في مؤخرة رأسي. نعم، فقد اغتالني شخصٌ ما، ضربني على رأسي وفرَّ. هو في الحقيقة التي ترضي الله لم يضربني أنا على رأسي وإنما قد اغتال الرجل الذي أقسمتُ للناس ألف مرةٍ أنني لستُ هو.... ضربهُ على رأسهِ ونزفتُ أنا... ألم أقل لكم إنني مجنون.

أرجو أن لا تنزعجوا من كلمة مجنون التي قدمت بها نفسي إليكم أو أن تساوركم الشكوك في قدرتي على سرد الحكاية بطريقةٍ آمنة. ولذلك أرى أن نتعارف أولاً... اسمي هو حسين منصور الدرغامي، أنا الملقب من بينكم

بسيد الحكايات فهل تطمئنون الآن؟ كل مهمتي في هذه الحكاية أن أثبت لكم أنني حسين منصور ولست نور النديم كما يدعي الناس في قريتنا، وأن أفسر لكم كيف سَعَتْ هذه الشائعة في قريتنا وصارت أقوى من الحقيقة حتى آمن بها أصحابي وأوشكتُ أن أصدقها أنا أيضاً... أُصدق أنني نور النديم ابن تلك العائلة التي غصبت رئاستنا من على القرية التي سُدناها زمناً طويلاً. أما عن مسألة جنوني فإنني كنت متأهباً لمصيرٍ مشابهٍ منذ زمنٍ بعيد، منذ الأسابيع الأولي لولادتي حين جاءت الخالة أمورة تحمل صُرَّتها على رأسها ودخلت إلى بيتنا في تلك القرية التي لا تعرفون حتى الآن شيئاً عنها، لم يكن بيتاً وإنما كان دُوَّاراً كبيراً وميراثاً عن جَدِّي صاحب القرية الأول. أما الخالة أمورة فكانت غجرية تقرأ الفنجان وواحدة من القليلات اللائي سمح لهُنَّ جَدِّي بالبقاء على أطراف القرية في الزمن القديم. كانت خادمةً وخاتنةً ومنجمةً آثرت خدمتنا وصداقة بيتنا حتى بعد أن تغيَّرَ الزمن وباتت الزعامة في دُوَّار أسعد النديم جبار هذي القرية، الذي أجبر هو وأبوه أعمامي على الرحيل تاركين من خلفهم منازلهم يسكنها الخراب... إلا أبي وإلا دوارنا كان ما يزال عامراً بنا ورفض أبي الهروب.

وطلَبَتْ أمي من الخالة أمورة قراءة الطالع لذلك المولود الصغير – الذي كنته– وكان ذلك هو سريرُ أمي النحاسيّ الذي ترقد عليه شاحبة من النفاس، وذلك هو أبي الذي كان يدخنُ ويشرب القهوة بالقرب من سريرها، ونظرت أمورة في الصدف المشتت بين الرمل على منديلها، وقلبت أوراق الكوتشينة غير مرة، ثم استحت أن تخبر أمي بشيء مما قرأته وكذبت عليها، قالت: إن بعض الصغار لا يَكتبُ الله أقدارهم في التو ولا يرسل نجمهم إلى السماء حتى يزحفوا على أربعٍ. وقاطعها أبي بصرخةٍ قوية أرجفت حجرتنا آنذاك وكهربت جوها. وأشار أبي بإصبع مذعور إلى فنجان قهوته، فقد كان مرسوماً على جداره بذرات البن غراب مبين.

ليس كأنه يشبه الغراب، لكنه غرابٌ واضحٌ لو ألقيتَ إليه دودةً لازدردها. منذ ذلك اليوم وفناجين القهوة كلها ترسم ذلك الغراب حتى أن رأسه وشيئاً من جناحه تبدو لمِاسكِ الفنجان من بعد الرشفة الأولى. وحين

قامت أمي من النفاس أمسكت أمورة بكلتا ذراعيها وأجبرتها على البوح بحقيقة طالعي وبنجمي، فقالت الغجرية بحزن: «ولدكم عقده مفروط بين الناس، كل حبة منه تسكن في أرضٍ بعيدة عن أختها»، وقال أبي: «فسِّرِي» فاحتارت فيما تقول: «ربما علينا أن نطوقه بحجابٍ يلزمه بأرضٍ واحدةٍ وإلا طار من بيننا وانفرط»، فلطمَتْ أمي خدها وقال أبي: «ابحثي يا أمورة عن هذا الحجاب بين كل السحرة والغجر». وناولها عشرة جنيهاتٍ في ورقةٍ واحدة، وكانت العشرة جنيهات وقتها تشتري "فيلا" من طابقين في سويسرا البعيدة لكن يعيبها أن حديقتها الأمامية ضيقة... هكذا أخبرني أبي.

وشرعَ الناس في القرية بعد أفول نجمنا وزوال زعامتنا يُكَذِّبُون حكايات أبي عن أبيه، فما كان أبي كذاباً وما شهدتُ عليه كذباً. ابن أصول وُلدَ مُدللاً في نهاية عنقودٌ طويلٍ من الإخوة والأخوات حين كان جَدِّي هو عمدة قريتنا وأغنى رجل فيها، ما جعل أبي في صباه يركب مهراً ويخطر به في القرية. ثم مات جَدِّي حزناً على العمودية وضاع أغلب ميراثِ أبي، فإن الذي خطف الزعامة قد سرق معها أرض العائلة ووقف عليها بالقوة يطلقُ الرصاص. وحافظ أبي على وجاهتنا من بيع القراريط القليلة التي تركتها لنا عائلة النديم زهداً فيها لكونها بعيدة من القرية ولقربها من سُكنة عفاريت الترعة، والعفاريتُ عاشت بيننا آمنةً وقد كانت لهم حقوقٌ في القرية مثل التي كانت للناس آنذاك... هكذا أخبرني أبي وما كان الناس يكذبونه إلا مِن وراء ظهره حين كنت أعيدُ عليهم حكاياته بنفسي فيهزون أكتافهم استهتاراً بكلامي وضحكاً من سفاهتي، لكن حين كان أبي يسردها بنفسه فليس في وسعكَ إلا أن تُصدِّقَه، وتسرح بقلبك في شعراته القليلة المهندمة والمصفوفة بكبرياء على صلعته الإمبراطورية، وعلامة السجود التي في جبهته، جلبابه النظيف دائماً وأبداً وتأنقه الزائد عند المرآة، مشيته بين الناس كأنما كان يَمُنُّ عليهم بوجوده، وميلُه على الفلاحات الحسناوات إذ يحملن متاعهن إلى السوق فيضاحكهن ويضحكن له ويبجلنه بلقب "يا خال". لم يكن يتهتك أبداً ولا كان يخلع برقع الحياء، لكنما يتلذذ بإكبار الناس له وحبهم للحديث إليه. أبي كان سيد الكلام طالما هو في مجلس أو

ممشى، الرجال في قريتنا أكبروا رجاحة رأيه وكرامة أصله، والنساء أحببن دمهُ الخفيف وغزله المتحفظ الذي كان يمرره في سؤاله للمرأة عن زوجها وعن أهلها وابنة عمها الحلوة كمثلها وصاحبة أختها والمتاع الذي حملته على رأسها، ويشتريه دائماً بالسعر الذي تطلبه الفلاحة الحلوة، أبي ما كان يُتعب أهل الجمال أبداً بالفصال ولو كانت آخر النقود التي في جيبه وجيب الأسرة كلها. كان كريماً وابن أصول وذكياً وسيد الكلام في الدنيا كلها، لا شكسبير ولا محفوظ، وحده أبي أمشي معه فيربتُ على رأسي ويمنحني ويمنح كل الناس من قبل أن نطلب منه شيئاً، ثم يحدثني عن جَدِّي فيقول: «ذات زمانٍ طيب كان جدك مسافراً بالقطار إلى دمياط، وهناك نزل فأدركه الليل ولما كان يروم شراء بضاعة لتجارته الكبيرة ولما كان وجيهاً كأحسن من الباشاوات فإن قطاع الطريق قد ترصدوا له وحملوه مقيداً إلى الجبل الذي في دمياط.

– ليس في دمياط جبل يا أبي.

– الزمان تغير، حتى الجبال فرَّت من أحكام زمننا هذا، ستجدها الآن في الصعيد أو في سيناء. المهم، قيدوه وأشعلوا موقد النار أمامه طوال الليل ليأخذوا من ناره المتقدة شظيات مضيئة كالياقوت الأحمر يضعونها على رؤوس أراجيلهم ويكركرون بالأرجيلة ويكركرون من الفرح والانبساط بعد أن أحصوا محفظة جدك الثرية وقطعوا سلسلتها الفضية التي كانت تصلها بجيب الصديري وسرقوا ساعته الذهبية التي كان ينظر فيها كل صباحٍ ويخبر أهل قريتنا بالوقت الصحيح. الشمس نفسها كانت تنظر في ساعة جدك من قبل أن تشرق على قريتنا وتلسع قفا الفلاح. ووجد اللصوص جدَّك غنيمة حلوة تكفيهم ترصد الناس والسرقة لشهورٍ كثيرة لو أن اللص يقنع، لكنه دائماً لا يقنع. وجَدُّكَ ذكيٌ كان يعرف الناس، فتنحنح مستأذناً عليهم بكحة من يريد الكلام، أما الموقد المشتعل فقد أوقف رقصة النار حتى يستمع إلى كلام الأسير وأما أعينهم المستريبة فكانت تعكس صورة النار ألف مرة وقال جدك: «بكم تبيعونني هذي البغال المربوطة في فم الكهف،

أنا أسألُ بجدية، أخذتم فلوسي وانتهى الأمر وقد يجعل الله رزق الرجل في جيبِ غيره يحمله إليه، عوضي على الله، أما بغالكم الشديدة فإنها تروق لي، بكم تبيعون الواحد منها ولا تغالوا في الثمن؟».

فانتبهوا لحديثه ونطق كبيرهم رقماً يختبر به جديه الأسير. فكان أن هشَّ لهم كمن وضع كفَّهُ على كنزٍ لا يفرط فيه وطلب منهم أن يبيعوه بغالهم كلها وكل ما تطاله أظافرهم بعد ذلك من عينة تلك البغال، سيفرح الناس بها في قريتنا لأنها أرخص سعراً من الحمار الأعجف عندنا، فلما سمعتْ النار ذلك عادت ترقص طرباً ووجدوها تجارة أمنةً لا مغامرة فيها ولا قتل، وجاؤوا للأسير بقهوةٍ يمانيةٍ ثم أعادوا إليه عمامته وساعته. أما كبيرهم فقد جالسه من دون رجاله وعرض عليه نشوقاً من علبته. ثم أعادوا محفظة جدك إليه لكن جدك أبي أن يسترد ماله كله وأخذ نصفه فقط وقال للكبير: «أما الفلوس التي تبقت معك فهي عربون لتجارتنا في الأيام القادمة».

وذات نهارٍ في قريتنا القديمة بعدما فتش الناس في كل مكانٍ عن جدك فلم يجدوه وظنوه قد هلك وفكروا في عمدة جديدٍ يحكمهم فدخل عليهم جدُّك يتبعه قطيعٌ من البغال عالية الظهر عريضة الكفل واسعة العينين يحرسها له لصوص الجبل التائبون...

تلك واحدةٌ من الأقاصيص التي حكاها أبي عن جَدِّي وصدقته، ثم حكيتها من بعدِه، لكن أهل القرية باتوا ينسبون حكاية البغال هذه وغيرها إلى فاتح آخر غير جَدِّي فينسبونها ساعة إلى نايل النديم وساعة إلى ولده أسعد!

أبي هو الوحيد من رجال عائلتنا الذي بقي في القرية من بعد فرار إخوته وأعمامه وتخليهم عن أملاكهم بلا ثمنٍ أو بأثمان بخسة. وكان عشمه في الله أن يأتي ذلك اليوم الذي يجمع فيه لأسعد النديم شيوخ العرب من سيناء ومن الصعيد ويجلسه بينهم فيتكلمان رجلاً إلى رجل ويطلب من أسعد ردَّ كل ما سلبه هو وأبوه من قبله ويطلب تعويضاً عن ملاحقتنا بالأذى حتى نترك القرية. ولكن العيال مَجْبَنَةٌ كما قال النبيُّ عليه السلام وقد بلغته

شائعة أن أسعد سوف يحرق قلبه على ولده الذي أنا كنته وعمري عشر سنوات حينذاك. فارتكب أبي ذنب أعمامي الذي لامهم عليه من قبل وباع قراريطه بثمنٍ بخس للغاية، وعرض دُوَّارنا القائم على ربع فدان للبيع أيضاً فلم يقترب من شرائه أحدٌ لأن أسعد النديم كان قد أرسل إلى أبي من يفاوضه في ثمن الدوار، فقال أبي: «والله يا أسعد لو كِلْتَهُ لي بالذهب ومنحتني فوق ثمنه زريبة تزعق فيها الأنعام ما تركته لك» ... فابتسم أسعد وقال: «في أمان الله سافر يا أخي وبيتك في حمايتي لن يقربه بشر». وتركنا القرية ليلاً وتنقل بنا أبي في البلدان من مقام إلى مقام حتى استقر لنا المقام في قاهرة المعز وأنا في نهاية المرحلة الثانوية.

وبصعوبةٍ بالغةٍ تَعَوَّد أبي على فكرة أنه لم يعد قروياً وأن الناس لا يعرفون عراقة محتدِهِ في هذه المدينة الكبيرة جداً. جلبابُهُ المكويُّ لم يكن أفضل الأزياء في شوارع القاهرة، ولا هو أحسن الناس ولا ابن سيدهم كما اعتاد، وإن في القاهرة سفراء ووزراء وباشاواتٍ أولاد باشاوات. وفكر أبي في حلٍ يُمكِّنه من استحضار قريته البعيدة إلى تلك المدينة فيجعلها ضيفة على الحكايات وينشدها مع الناس في المقهى القريب. فأحبه الجيران والعابرون لكوب شاي على المقهى وتزلفوا إليه بالمودة والهدايا ثم دعوه من بينهم بابن الأصول وكان يقول: «واعلموا أن أبي كان زعيم تلك القرية ووليها التقي... حين شقَّت الحكومة ترعةً طويلةً في قريتنا وشرع الناس يروون أراضيهم بالراحة أو من الشواديف وهم يغنون... فإذا بباب الدوَّار عندنا يطرقه رجلٌ غريبٌ في ساعةٍ من الليل متأخرة، وظنَّهُ أبي عابر سبيلٍ ففتح له قاعة الضيف ثم قدم إليه الطعام فلما رأى الرجل لا يلمس الطعام سأله عن الاسم الذي ينادونه به في عالم الجن وأخبره العفريت باسمه والقرية التي جاء منها وأخيراً بسبب الزيارة في تلك الساعة من الليل وقد كان السبب لو تعلمون عجيباً للغاية، قال الجنيُّ: «شوف يا حاج درغامي، صلِّ على النبي أولاً... جرت الأعراف يا سيدي عندنا في مملكة الجن أن نسكن في الماء حيثما وُجد، فكلما شُقَّتْ ترعة جديدة في الأرض عيَّن سلطان الجنّ على الترعة نفراً من رجالنا ليسكنوا فيها ويأكلوا من قراميطها، وقد جئتُ إليكم

بأهلي وعيالي لأجاوركم. وأعدكم عهد الله أن نسالمكم إذا سالمتمونا ولن يقرب ماء ترعتكم شيطانٌ يكسر العهد بيننا. نبِّه على رجالك يا حاج درغامي ألا يصفروا بأفواههم بالقرب من الترعة في الليل ونَبِّه عليهم لا يبول في الترعة العيال ولا يقربونها من الليل... وسوف نهبل الزانية والزاني منكم إن اقتربا بالفاحشة من شريط الكافور المغروس على حافة الماء واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون.

فقال له أبي وقد أعجبه كلام ابن الجنية: «ولنا عندكم شروطٌ كذلك: ألا تعاونوا ساحراً على الأذى، ولا تغرقوا عيلاً صغيراً في الترعة فتحرقوا قلوبنا عليه وقلب أمه، ولا تتدخلوا في حياتنا أبداً ولا حكاياتنا التي كتبها الله في لوحِهِ المحفوظ ولا نحن نتطفل عليكم... واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون». ونفَّذَ كلُّ طرفٍ من ناحيته الشروط المضروبة عليه، والمؤمنون عند شروطهم، وكان رجال الجنِّ يُصلُّون العشاء في المسجد الكبير خلف صفوفنا وكان أبي إمام الجميع، ويملأ الجن أزيارَ الماء التي وضعها أبي عند الترعة بمحاذاة شريط الكافور، لكل شجرةٍ زير حتى يكون ظلٌ ورِيّ ويمزجون الماء بروح الورد ليهنأ كل شاربٍ من القرية أو عابر سبيل».

وكنا متحصنين بخوفٍ غريزي من المدينة ومن أبنائها فلم أعرف من القاهرة سوى الطريق من حدائق القبة حيث سكنَّا إلى المدرسة الثانوية أو إلى الجامعة... وطوال هذه الفترة كنتُ أجلسُ عن يمينِ أبي في المقهى والناس يجاملونني بالينسون والقرفة محبةً في والدي الذي كان يقص حكاياتٍ ما عاد أحدٌ يذكرها حتى في مجالس القرية المحكي عنها. ثم شرعتُ أنا في سرد الحكايات مثلَه وكانت كل البيوت المبنية في خيالي من قريتي وعن ترعتنا وعفاريتها، كنتُ أكتبُ فأحبها الناس وسارَعَتْ كلُّ المجلات إلى نشرها فعملتُ بعد الجامعةِ صحافياً بفضل تلك الحكايات، وتلهَّف الناس على قصص قريتنا أسبوعاً بعد أسبوع إلى اليوم الذي لقَّبْتُمُوني فيهِ بسيدِ الحكايات لأنكم لم تشهدوا أبي وهو يحكي، لكن أخرين قد قرأوا قصصي واستمعوا كذلك إلى أبي في المقهى فقال أحدهم أن أسلوبنا مختلفٌ تماماً ثم أساء

الأدب فقالَ بأنني أحكي أفضلَ من أبي وأبلغُ مرادي من طرقٍ أقصر، فكان أبي يغارُ إذا سمعَ ذلكَ ويعقدُ حاجبيهِ ثم يبتسمُ لي أو يلكمُني.

أنا حسين منصور الدرغامي، لابد أنكم تعرفونني الأن، لكن الشكَّ يساوركم لأنكم قرأتم خبر وفاتي في الجريدة ربما أكثر من مرة وعندكم كل الحق إن كذبتموني، فبعض الظن إثمٌ، وبعضُه من حسن الفِطَن، كما أن مهمة إثبات أنني حسين منصور ولستُ نور النديم تقعُ على كاهلي وحدي، وقد طاب لنا المقام في القاهرة الكبيرة وأثمرت علينا الحكايات بركاتٍ ومحبة. واختفى ذلك الغراب من فناجيل القهوة لأنه لم يكن يعرفُ مكان بيتنا في المدينة وحتى بعدما عرفه ما كان يظهرُ إلا على استحياء، فكان من يجده في الفنجان منا يفرح ولا يغسل الراسب حتى يراهُ بقيتنا. وكان أبي ينصحني دائماً بالابتعاد عن السياسة ويحذرني من الانضمام إلى أي فصيلٍ أو حزب أو أن ألمح لها في الحكايات ويقول: «كل من في الأحزاب أولاد ستين كلب... هؤلاء وهؤلاء والدنيا ملعونة من الله وألعن شيء فيها هي السياسة وأهلها... كما أن الفنان منا عليه ألا يتورط في حكاية وألا يصبح طرفاً فيها». وصدَّقْتُ أبي بدلاً من تجرع التجارب، فقد كنتُ أثق بكلِّ بكلامه. لكن ما حدث بعد ذلك في القاهرة وتردد صداه في القرى قد جذبني من طوقي لمؤازرة الثورة التي أبهجت كل الدنيا وتهلل وجهُ أبي لها وقال: «أما هذه فمن عند الله!». وقابلَ أبي بالصدفة رجلاً من القرية تعرَّفَ كلاهُما على الآخر، وقصَّ عليه الرجلُ كل ما حدث في القرية منذ فارقناها، فأخبر الرجل أبي أولاً أن كل معارفه في القرية قد ماتوا... وقرأوا الفاتحة على أرواحهم عند مقام الحسين، ثم أخبره أن أسعد كان قد استولي على منزلنا هناكَ بعد أقل من أسبوعٍ من رحيلنا، وأسكنه رجالاً من أهله... لكنه عرف أيضاً من الرجل أن الثورةَ حين فتحت دفاتر الحسابات خاف أسعد وعياله من الناس ففروا، حتى عياله الضباط خلعوا زيهم الميري وأخفوا هوياتهم... هناك من يديرون أملاكهم في القرية بالطبع، أما هم فقد اختبأوا وانحنوا للموجة حتى تهدأ في مكانٍ لا يعرفُهُم أحدٌ فيه، وتقول الشائعاتُ أنهم جميعاً منطوون على بنادقهم تأهباً للحساب، وقال أبي: «ربما هذا هو الوقتُ المناسبُ

للعودة إلى القرية»، فحدَّثَنَا أنا وأمي عن ذلك وأخرج حُجة ملكية الدُّوار الكبير وقال أيضاً: «حتي إن وقفتُ أنا وأسعد أمام القاضي فسوف نقفُ هذه المرة رجلاً لرجل، لا رجلاً في وجه عصابة، وسيستمع القاضي لكلامي ويسكت كل من في القاعة لأقص عليهم عن دوارنا المسلوب عنوة وعن ظلم أهل النديم». وعن نفسي لم أصدِّق رغبة والدي في العودة إلى الريف وإن أبدى حماساً لذلك، فقد تعود على أن يكون قاهرياً منذ سنوات وأن يكون ابن الأصول الذي يبجله جيرانه وله جمهوره في المقهى، ثم إنه بحسب كلام الرجل لم يتبقَّ في القرية رجلٌ وحيد يشهدُ بصدق حكاياته. وعلى كل حال فقد تعطل سعيهُ إلى العودة بظهور أحداثٍ أخرى قد أدمَتْ قلوبنا. فمن ضمن القلائل الذين كرهوا حكايات أبي وملوا تكرارها كانت أمي. وأبغضت ثرثرة الرجل وعدم تجشمه للسعي على المعايش في دكانة "المانيفاتورة" الصغيرة التي افتتحها. فمِنْ مهاراته التي كان لا يُنَازَع فيها أيضاً هو حسنُ تمييزِهِ للأقمشة غثّها من ثمينها، حتى وإن لم يُكتب على لفَّةِ القماش اسم ناسجها ولا البلد التي أرسلتها كان أبي يميزها بدقة ويحسن الكلام عنها، لكنه خُلِقَ بلا صبرٍ ولا طاقةٍ على الفصال مع الناس، ولا على المكث في دكانه، فقضى أغلب وقته في المقهى القريب يتكلمُ بلا ملل. وأصبحتُ فعلياً أنا الذي أُنفق على البيت من راتبي ومن عائدات كتبي التي اشتَهَرَتْ كثيراً بينكم، وقال أبي: «أنت تتاجرُ ببضاعتي ورأس مالي ولي فيكَ نصيب، أنا لا أتنطع على أحد». وقد كان على علمٍ بكل نواحي دخلي وعائداتي من الكتب، بل إنني اعتدتُ أن أستشيره في أمور التعاقد بما يفيدني ويظهرني على نحو أفضل لدى القراء، لكننا لم نتفق في النواحي المالية لأنني قررتُ التبرع بكل عائدات كُتبي لصالح الثورة، فقال أبي: «أحبب حبيبك هوناً ما!». ونصحني مرَّتَين ثم استحي أن يكلمني الثالثة واكتفى باقتطاع ما يحقق له الرفاهية اليوميةَ واستعادة أُبَّهَة العمودية المسلوبة من أبيه فلم أجادِلْهُ في ذلك، وسجدتُ عند قدميه. أما أمي –بالإضافة إلى مقتها لحكايات أبي– كانت تخشي من احتمالٍ ولو بسيطٍ جداً أن يعود بها إلى القرية فإنها قد سئمت تلك الرقعة من الأرض المملوءة بالعفاريت وترى أنها قد خرَّبت حياتها منذ البداية.

ولم ترُقْ له قصصي الأخيرة حين أقحمت فيها كلاماً عن الثورة التي آمنتُ بها ورأيتُها منحةً من التاريخ ستعيد بناء كل شيء على برٍ ونقاوةٍ، فيقول أبي: «شاء الله يا بني أن تُتلف السياسة كل شيء تلمسه، حتى قصصك الحلوة!». وبات صمت أمي يطول وتسألُ فجأةً عن كلامٍ قاله أحدنا بالأمس أو منذ زمن بعيد. أمي أيضاً بنت أصولٍ ومن سلالة أتراكٍ وعرب يعرفون أسماء أجدادهم. ربما هذه أيضاً واحدةٌ من أوجه التشابه التي تجمعني بالمدعو نور النديم، أقصد كرامة الأصل والفصل، وربما هذا ما جعل الناس يخلطونَ بيني وبينه حين عدتُ إلى القرية، ولكن هيهات أن يبلغ نور أو سواه كرامة أصلي. الحقيقة يا سادة أنني أتحدَّرُ من أصولٍ بالغة النقاوة وأعرف ملوكاً وأمراء لم يتوفر لهم نقاءُ عُنصري. حتى أنني أشعرُ دائماً بالتواضع الشديد حين أكتبُ إليكم. ويقول لي أحدُكم إن نقاء عرقي جاءَ من قبيل الصدفة لا أكثر، ولسوف أجيبه: «أي نعم، لكنها نفس الصدفة التي لازمت الماس وأحجَمَتْ عن ملامسة زلطات الشوارع. كانت أمي تقفُ من بيننا كتمثالٍ يونانيٍ طويلٍ رائع الذقن، لكنها شحبت بعد حينٍ وكلَّمَتْ نفسها في المطبخ، وأعدت لها معها كوباً آخر من الشاي. ثم أصبحنا ذاتَ يومٍ فلم نجدها، ترَكَتْ لنا ورقةً مكتوبٌ عليها بخط متعرج: «لا تبحثا عنّي»، ولم نعثُر عليها رغم مبالغتنا في البحث. بعد ذلك ابتعد أبي عن المقهى وعن "كان يا ما كان"، وأهملَ هندامه جداً، وأرسل لحيتَهُ ولم يشترِ زجاجة عطرٍ ولا ثوباً جديداً لثلاثِ سنوات بعدها، وكنتُ أدفعُهُ دفعاً للاغتسال، وأعودُ إليه بالحلاق يزينه في منزلنا، وأضعُهُ بيدي على مقعدهِ المخصوص في صدارة المقهى، فيميلُ بخدِّه على عصاهُ وينعسُ حتى أعود فآخذه إلى سريره. وذات مساءٍ فتحتُ عليهِ حجرتَهُ فوجدتُّهُ مرتخياً في كرسيِّه كالسكران، وبين يديه فنجانُ قهوةٍ مراقٍ على الطاولة، وكان زجاج الشرفة متصدعاً بشكلٍ غريب، فسألتُهُ بلطفٍ عمن فعل، فأشار أبي إلى غرابٍ ملقىً على الأرض يُحتضر وينزف من محاولات كثيرة لاختراق الزجاج، وقال أبي: «لقد عاد الغرابُ يظهرُ في البُنِّ منذُ فترةٍ ولم أخبرك، وهو الذي نطَّ من الفنجان فأهرقه و فلق الزجاج، ثم قال أبي عن نفسه أنَّهُ جبان، كانَ عليه

أن يَثبت لأسعد النديم في القرية، بل وربما كانَ عليهِ أن يقتُلَهُ أو يقتل نفسه، لكنه جَبُنَ عن هذا وذاك. وفي الصباح فاضت روحُه، فسلامٌ على أبي في العالمين، نسألكم الفاتحة.

واختلف الناس في ميادين الثورة على تسميةِ أنفسهم وتنازعوا، فتولى أمرهم القوي المطاع، فقلتُ لنفسي: «... وكأننا يا بدر». وشرعَ صاحبُ الجريدة يفتِّشُ في الكلام الذي أكتُبُه ويشطبُ ويمحو، وقلتُ إن في السفر إحدى عشر فائدة، واحدةٌ منها ألا أكون هنا، فلما مات أبي ولم يكن معي مالٌ أسافر به ارتطمت عيني بحُجَّةِ مِلكيَّة الدُّوار، فقلت ولم لا؟ ربما أسعد نفسه يُحِبُّ أن يحصُلَ على تسويةٍ جيدة وأن يتملَّكَ حُجة البيت في لقاء مبلغٍ زهيد. كانت هذه قشَّتِي الأخيرة، أن يجودَ أسعد على ببعض المال الذي يُمَكِّنُنِي من السفر، وإلا فإنني سأعوم في البحر حتى أصل إلى بلدٍ جديدٍ أعملُ فيه خادماً ريثما أعرف لغة الناس هناك وأبدأ في سرد الحكايات.... وفكرت في زيارة سريعة للقرية حاملاً معي حجة الملكية.

لكنني حين دخلت القرية وكلَّمْتُ أهلها وجدتهم يطلقون على اسم رجلٍ آخر، هو نور النديم ابن أخ أسعد النديم نمرود قريتنا... ولست أنا هو، لستُ نور النديم... هكذا صرخت في الناس كالمجنون من قبل أن يغتالني أحدهم من الخلف فأغيب في عالمٍ بين الحلمِ واليقظة لا أعرف أين أنا، ولا أستطيعُ أن أرى نفسي. انتبهوا معي يا سادة وصلوا بنا على النبي، فإن أثبتُّ لكم خلال الحكاية أنني حسين منصور فأنا لست مجنوناً ولا أبي كان كذاباً، وإن لم أفعل فاتركوني تائهاً في العدم، ولا توقظوني أبداً أبداً.

هو

في سرايا محمود بك شعير اصطفَّت ثُلةٌ من الهوانم والوجهاء في الشرفة العلوية، وكانوا متجهين بأنظارِهِم ناحية الطريق. في ذلك اليوم الذي يصعب التفتيشُ عنهُ في كُتُب التاريخ، البلدة كلها كانت مملوكةً لهم ويرثونها كابراً عن كابر. لكن ذلك اليوم كان محملاً باحتفالات كثيرة دعتهم إلى استخراج بدلهم الرسمية من الخزانات وإلى تنشيتها، تلكَ البدل التي كانت تُصاحِبُهم فقط إلى قصور المحروسة لاستجلاب ألقاب جديدة تُمدِّدُ مجد العائلة، وأرسلوا الطرابيش الحمراء إلى شبين الكوم ليُعاد صبُّها على القالب، وحتى تُمَشَّطَ شوارِبُها الخلفيةُ بعناية. أما الهوانم فقد ارتدينَ أنفَسَ ما حُزنَ من الجواهر والفساتين التي اشتراها أزواجهن من أوروبا. لكننا نسأل: «لم كان ذلك اليوم مهماً إلى هذه الدرجة، وإلى أي شيء كانوا يحدقون من شرفة السرايا؟!»، أنا أقول لكم: «كانت القاهرةُ المحروسة تضجُّ بأحداث كبيرة وقد تكلَّمَت الجرائد عن رغبة مولانا فاروق المعظم – ملك مصر والسودان– في تشكيل وزارةٍ ائتلافية على الرغم من ارتياح كل من الإنجليز والمصريين لفكرة تولي مصطفي النحاس مهامَّ الوزارة الجديدة. لكن مولانا فاروق ركِبَ رأسه التركيَّ وقال: «لا، إلا النحاس»، واحمرَّ أنفُهُ الملكيُّ وقال: «لن أفعل». وعليهِ فقد تحرَّكَتْ المركباتُ الحربية من ثكنات الإنجليز في العباسية واقتحمت بوابة القصر، قصر عابدين، وفي أثناء ذلكَ جلس المندوب السامي لبريطانيا العظمى يُعقِّلُ مولانا ويُدلك إحساسه بالملكية المطلقة، وكلمةٌ من هنا على كلمةٍ من هناك زفر فاروقُ واستجاب مرغماً، وقال: «ولكن على النحاس أن يلزمَ حُدودَه وأن يعي جيداً من هو ملك البلاد». ولكن أين ذهب النحاس الباشا؟ يقول أبي: «كانتْ سيارة مصطفى باشا النحاس تتحركُ في سريةٍ تامة متجهةً إلى سرايا صديقه القديم وصديق أستاذِهِ سعد زغلول من قبل، وهو محمود بك شعير عضو مجلس الأمة،

وواحدٌ من المؤسسين الأوائل للوفد، أنفقَ في سبيل القضية الوطنية جهداً ومالاً مشكورين. واخترَقَتْ السيارةُ ذلك السهمَ الأسود النائم بين الحقول تعاني صعوباتٍ في تجاوز الحفر والنقر التي تدمغ وجه الطريق الإسفلتي مثل نقوش العملات المعدنية، والتي جعلت طربوشَ مصطفى باشا يهتز وصدرُهُ يترجرج في ضيقٍ وهو في المقعد الخلفيّ، ليسأل السواق: «هل أوشكنا يا اسطي؟!»، ذلك السؤال وذاك الطريق قد وافقا زعماء مصر الثلاثة في مراحل ساخنةٍ من التاريخ، فقد مرَّ من نفس الطريق الضيق المقعَّر من جوانبه والمهدَّم أواسطه كلٌّ من مصطفى باشا كامل أيام حادثة دنشواي الشهيرة واللصيقة لقرية محمود بك شعير، التي يقال لها "عشما". وقد استضافت السراي من قبل أعضاء الوفد أول تأسيسه في اجتماعٍ سريٍ قبل نفي الباشا سعد إلى جزيرة مالطا، لم يذكر التاريخ أي شيءٍ عن خط الإسفلت الضيق المفضي إلى قُرانا الصغيرة المتلاصقة سوى ما كان من حادث دنشواي، وفيما عدا ذلك يَغفلُ التاريخ عنَّا تماماً، ويشهدُ بذكاء الباشوات الذين اختاروا قُرانا المغمورة والبعيدة للاجتماع بها سراً، لأننا بالفعل خُلقنا ونشأنا على شِمال السماء وخارجَ الخارطة، وعِشنا دائماً متناهين في الضآلة... شأننا شأن ذلك الرجل، انظروا إليه جيداً، ما الذي جاء به إلى هذه المناسبة؟! لقد استغلَّ انشغالَ أهل القصر ودلفَ زاحفاً من ثقبٍ في سور الحديقة حتى انتهي إلى قاعة المطبخ، فخلع جلبابه وتنكَّرَ في زي السُفرجية. كانت الفرصةُ سانحةً لأن أهل السرايا ذلك اليوم استأجروا غرباء للنهوض بأعباء اليوم. وحين رآهُ رئيس الخدم استوقفه ثم أمرهُ بإحكام طربوشِهِ ومراعاةِ هِندامه، ثم ناوَلَهُ صينيةً مُذهَّبة عليها كؤوسٌ منقوشةٌ ومترعةٌ بالنبيذ الأحمر ليمشي بها بين البكوات والهوانم، وقد هال الرجل ما رأى من اتساع الدَرَج ومن ضخامة البهو والحجرات الفوقية، ولم يستدل على مكان الشرفة في ذلك العالم الواسع حتى انتهت إليه صيحاتهم الفرحانة بوصول الباشا أخيراً. فدلف صاحبنا إلى الشرفة فوقف بوجهه الغريب من بين أياديهم الملوحة، وبين المناديل المرفرفة في سعادةٍ لا تُوصف، لكأن المناديل حمام يرقص، واستدل أخيراً على سيارة الباشا

النحاس فراعته وجاهة الباشا ومهابته الشديدة، ولكن اتضح له بعد قليلٍ أن السائق هو الذي نزل أولاً ثم فتح باب السيارة للباشا، ووجد السفرجيُّ نفسَهُ يبتسمُ حينما لوَّحَ النحاس لأهل السرايا كأنما كان يخصه هو بالسلام.

ويقول العلماء: «إن احتمالية تصادم جسمين في الفراغ احتمالية شبه مستحيلة وتستدعي أرقاماً فكليةً في صياغة ذلك التوقع، ولكن حينما يصطدم الجسمان بالفعل تصبحُ كل الأرقام والأصفار بلا قيمة فيما يظهر الممكن قدرته على احتواء المستحيل». كذلك كانت حركة البكوات في بهو السرايا الواسع كأنه فراغٌ سماويٌ في عين ذلك الفلاح المتخفي في هيئة خادمٍ وثلةٌ من نجوم المجتمع آنذاك تُشعُّ بالمهابةِ، وإن لهم ضحكاتٍ عذبة ومرفهة تُنافس أنوارَ الثرياتِ المتدليةِ مِن السقف وتُشْبِهُ المرايا المذهبة في أنحاء البهو. فمن هو؟ إنه كويكبٌ منفلتٌ من مجرتهِ البعيدةِ مَشَتَ بِهِ الجاذبيةُ في فضاءٍ لا يخُصُّه، وفي حركةٍ مترددةٍ بين المطبخ والبهو الكبير مشى يحملُ الصواني كمن يحلمُ حتى كاد يَنسى السبب الأصليّ لوجودِهِ ها هناك... وإنهُ لسببٌ عظيم، ظلَّ السفرجيّ يبحث بعينيه الذاهلتين عن النحاس باشا نجم الحدث فلم يُميِّزْهُ بين الواقفين ولا مع القاعدين، وهل كان يجرؤ على السؤال عن مكان الباشا!، وأخذته غفلةٌ جعلتهُ يسرح في عالم البكوات والهوانم، ومشى ببصرِهِ حيناً في أذرعٍ بيضاء وطرابيش مصقولةٍ وجواهر لألاءة، ثم أفاقَ لنفسه... انتبه لما جاءَ من أجله... كان مصراً على لقاء الباشا وجهاً لوجه والانفراد به، وجعلَ يتحسَّسُ في جيبه خنجراً كان قلقاً في جفنه.

«يا سيدي الباشا... أنا من قرية اسمها "ميت نور"، قريبةٌ من هنا جداً، يمكنكَ أن تري مئذنتها من النافذة... الأرض يا سيدي الباشا قد تمرَّدَتْ علينا... كلما تلقَّتْ من الشواديف ماءً عذباً أرسَلَتْ إلينا بُوصاً أصفر من بطنها إلى السطح كأنها حبلي في الخراب، وفي البوصِ يا سيِّدي تَسكُنُ الأحناشُ الكبيرة... الناس يا باشا يهجرون قريتنا... فهل تستمع؟».

جاء الفوتوغرافي الخواجة من مدينة منوف القريبة في حنطورٍ تَحَرَّكَ عند أذان العصر، ووصل إلى قرية عشما والشمس تهرب من عين الحصان،

وقال الحصان لنفسه لو كانت السرايا ستضيئ أنوارها كل ليلةٍ فربما لا تكون هناكَ حاجةٌ للشمس، ثُم إنَّهُ مشى بين مجموعةٍ من الفلاحين يحملونَ البيارقَ والطبول والمزامير، وكانوا مُتَّجِهِينَ مثلهُ نحو أضواء السرايا، فهزَّ الشخاليلَ على رقبتِه، وأسرَعَ قَبلهم نحو البوابة الكبيرة. كان الفوتوغرافيُّ الخواجة يعلمُ السببَ في مجيئِه، ليُسجِّلَ في صورةٍ كبيرةٍ ابتسامة النحاس باشا ومن حولِهِ أهلُ السرايا يبتسمون. واقترب محمود بك شعير من أذن النحاس باشا بأدبٍ وأسرَّ إليهِ بكلماتٍ قليلةٍ قام على إثرها الباشا مبتسماً ثم فَتَرَ وجهُهُ عن ضحكةٍ لا ممانعةٍ، وتقدَّمَ الجمعَ إلى حجرةٍ جانبيةٍ لالتقاط الصورة، حينئذٍ تعرَّفَ عليهِ السفرجيُّ وتحرَّكَ نحوَه. وعندما فتحوا باب الحجرةِ وجدوا فيها هانماً شابةً مثل الزهور الناعمة وقد تشابكت أصابعها مع أصابع واحدٍ من البكوات، وقربت ثغرها من ثغره، فلما انكشف ستر الحبيبين تباعدا ثم ذابا بعيداً من أعين الجميع. ووقف الخواجة يضبط الكادر وكان بودِّهِ أن يُنبِهَ الباشا لكي يبتسم وبدا أن الباشا في شغلٍ عن كل ما يحدث فسكتْ.

«ولم يكتفِ البوصُ يا باشا بإتلاف الزرع وحده، بل ورآه الناسُ في الليل يمشي نحو بيوتنا الطينية الهشة، والبوص هو خيمة الثعابين يستظلون به من أنظارنا ومن مطر الشتاء، وتكاثرت أنصالُ البوص على البيوت فتشققت جدرانها وأضحت الحيات تسبح في الترعة عياناً، أو كُنَّ يصعدن إلى الشجر وإلى بناني الحمام، ونبتَ لبعض الثعابين أجنحةٌ يخطفون بها الطفل من أمه ويطيرون بعيداً، ما على الرسول إلا البلاغ، والبوصُ الذي شبَّ في قريتنا قريبٌ منكم وهو موشكٌ ببقية القري ربما بعد أيام يلمس سور هذا القصر... فهل تستمع؟»

«هذه المرة لن نقبل بتشكيل الوزارة أبداً، فاروق صار مغروراً ومستبداً، أرى أن نُحرجَهُ بجمع توكيلاتٍ من الناس كأيام الوفد الأولى... أتعلمون أنه استدعاني منذ أيام إلى يختِهِ في الإسكندرية وكان يلبس زي أميرالٍ بحريٍ ونفخ دخان السيجارة في وجهي... وقد بلغ بِهِ الجنونُ حد اتهامي أنا بالعمالة للإنجليز، وهددَّنِي صراحةً بفرض الإقامة الجبرية على كل

قيادات الوفد بل إنه لمح إلى النفي. وكانت السماء والبحر يرتطمان ساعتها حول اليخت».

«وهل جئتك أتسول يا باشا؟ نحن في حاجةٍ إلى محاريث كبيرة تنزع البوص من أحشاء الأرض، ونحتاج إلى جراراتٍ ومهندسي زراعةٍ وإلي وحدة طبية، فإن أقرب طبيبٍ إلينا يسكنُ في شبين الكوم وتفيض روح المحموم أو الملدوغ في الطريق ولم نبلغ منزل الطبيب بعد، صار الناس يطلبونَ عقاقير الغجر الذين يوافونهم في موالد الأولياء، وكان الغجرُ يترددونَ علينا في أوقاتٍ من العام، أما الآن هم يستوطنونَ قريتي، سكنوا في مساكن الهاربين وفرضوا جبايةً على البيوتِ لبَناً وخبزاً وبيض إوز، كلُّ ذلك في مقابل أن يرقصوا بالدفوف وبالنيران حول البيوت ثم يستخرجون من الشقوق ثعابين صغيرة تافهة تشبه تلك التي تنام في جيوب الحواة، وفي الليل باتوا يشوون لحماً من بهائمنا المسروقة ومن سائمة الطريق».

«أنا والله يا باشا في غاية الخجل من دولتكم... حين تحدثتَ إليَّ – معاليكم – برغبتكم في زيارتنا وفي الاجتماع بأعضاء الوفد عندي أنستني فرحتي بمقدِمِكُم أن أخبركُم بأن لنا في هذه القرية يوماً من كل عامٍ نحتفلُ فيه بمولد الوليّ شبل الأسود بن الفضل بن العباس، واعتدنا في هذا اليوم أن نَنْثُر الملاليم على الفلاحين، وأن يرقُصَ الغَجَرُ عند شرفاتنا، ثم نُولِمُ لهم ونضع الكلوبات على مسافات قريبةٍ فوق السور، ويُتخم الناس بالأكل والرقص حتى يبوس كفه الغلبان، فإن شئت يا باشا صرفناهم إلى عشهم ولإن تعطفت علينا وقفت معنا تَنْثُرُ الملاليم عليهم».

وخرجَ محمود بك شعير من الغرفة فرحان، وبشر الهوانم بأن الباشا سينثر كيساً كاملاً من الملاليم على الناس، واشتعلت المزاميزُ والزغاريد، وترقصت الفلاحاتُ فألقي الباشا نظرةً هادئةً عليهم من شرفته:

وجاء من خلفه السفرجي صاحِبُنا مُتَسَلِّلاً وتحسَّسَ الخنجرَ في جيبه وقال للنحاس:

لي معك حديثٌ يا باشا.

◆◆◆

عجيبةٌ هذه الحكاية، ولم أسمع واحداً يحكيها من قبلك!

ذلك يا صاحبي لتعلم أنني واحدٌ من أبناء قرية "ميت نور"، وعندي من أخبارها ما ليس عندكم.

كونك من أبناء القرية وعلى علم بحكاياتها لا يُجيزُ لكَ أن تفاجئ الناس بحضورك، ولا أن تُطالِبَهُم بالاستجابة لما تريد. لا تؤاخذني فإنَّ الوضعَ القائمَ دائماً أقوى من الحكايات، بل وأحياناً من القوانين نفسها، فلو كان أسعد النديم قد اغتصبَ أرضَكُم وزعامتكم كما تقول فهل تراه يفرح بحضورك المفاجئ ويرد إليك كل ما نهب؟ سيبحثُ أولاً عما يعيبك ليرهبك، وإن لم يجد ما يعيبك سيقتلك، ذلك أسعد النديم الذي تطلبه.

الرجل الذي حذرني من دخول القرية بغير تمهيدٍ اسمه محمد فرحات، وكان ذلك الحديثُ منذ عامٍ على وجه التقريب. هو رجلٌ ذكيٌ لن تبذل جهداً في محبته، حتى ولو كنت من المتشككينَ الذين لا يأمنونَ الناس بسهولة فسوف تحبه، أعدك بذلك... حتى حين... وكنتُ على يقينٍ بأن الناس في القرية لا يعرفونني وليس لي فيها أقارب، فأقمت في نُزُلٍ على رأس البلدة يسمونه "فندق الخولي"، وقد أقيم في الأساس لاستقبال قضاة الانتخابات وللمسئولين الذين يحلون ضيوفاً على قريتنا. كنتُ أحاولُ التوصل إلى محامٍ جيدٍ يقفُ إلى جانبي عندَ أسعد النديم، ويقنع بعمولةٍ عادلةٍ مما سأحصلُ عليه. والغريبُ أعمى كما تعلمون. في اليوم التالي رأيتُ أن أسالَ رواد المقهى القريب من الفندق فقابلني هناكَ فرحات بترحابٍ شديد، وأخبرني بأنه متابعٌ لكل مقالاتي ومدمنٌ على حكاياتي وكُتبي. وقد سرَّني حديثه إلى حد الرغبة في مجالسته وسألته عن وظيفته وعن اسمه فأفاض ثم عاد يسألني عما حدا بي إلى قريتهم/ قريتنا "ميت نور"، فوجدتني – وتلك شهادة لكاريزمته – أتكلمُ دون مراعاةٍ للوقت، لا وقت عشرتي معهُ ولا الوقتُ الذي قضيناه سوياً في المقهى حتى داهمنا المساء. وجدتُّه مُثقَّفاً وبشوشاً متفانياً

في التبجيل، وقد أخبرني ضمن كلامٍ كثيرٍ أنه يحاول كتابة الشِعر، ويحلُمُ بممارسة الصحافة، غير أنه يأس من أن تنشر لهُ صحيفتنا شيئاً مما كتب، فذهب مستفسراً عن السبب في ذلك، والتقاني هناكَ في الجريدة، هكذا تعرف عليَّ في المقهى، وكان أيضاً متفهماً لعدم قدرتي على تَذَكُّرِه... عرَّفته بالسبب الذي جئتُ من أجلِهِ إلى القرية، ووعدني بالمساعدة وهو يماشيني إلى الفندق، ثم تواعدنا في البكور فأبكر. وكان الحزنُ الذي نالني على أحوال البلاد يبشر لا محالة بالجنون إن لم أسعَ إلى مشورةٍ نفسانية، وقد استعنت بأخصائيٍ كبير وصف لي حزمةً من مضادات الاكتئاب، ونصحني بتغيير الجو وفعل أشياء جديدة. فوق حاجتي إلى الأدوية احتجتُ إلى صديقٍ يحتمل نوبات هياجي. وقد شعرتُ بقوة الأدوية التي وصفها لي الطبيب وأحسستُ برغبتها في التعتيم على وعيي، كما كانت تتعامل بازدراءٍ عظيمٍ مع جسدي فتتركه خاملاً إلى وقت الجرعة التالية. كان الدكتور يرغبُ في تجميد أسئلتي لفترةٍ طويلة، فسمحتُ لنفسي بالتوقفِ عن بعض الأدوية. وأكدَّ لِي ظهور محمد فرحات في تلك الظروف أن الأرواح مجبولةٌ على المؤانسة فليس بوسع الإنسان مجافاةُ العالم، وكانت أول خطوةٍ نحو صداقتنا هي إقناعُهُ لي بضرورة البقاء في القرية وبالتنازل مؤقتاً عن فكرة السفر، في ذلكَ اليوم جاءني مبكراً إلى حُجرتي في الفندق وشاركني القهوة، وبعد طول تردد أخرجَ من جيبه نسخة العدد الأخير من المجلة التي كنت أعمل فيها. وقد تقدمت باستقالتي تجهزاً للرحيل ثم نصحني بعضُ الزملاء مشكورين بسحبِ هذه الاستقالة تلافياً للندم في حال تغيرت الظروف السياسية، فتقدمتُ بطلب إجازةٍ مفتوحة. لكن الزملاء الذين نصحوني هم أنفسهم من كتبوا عني كلاماً يجعل مِنّي عَدُوَّاً للدولة ولأجهزتها، واقتطعوا من كلامي أجزاء واستشهدوا بها على عادة المدلسين، ثم جاءوا بصورة لي لست أدري أي شيطانٍ قد التقطها تُظهرني غاضباً ومتحاملاً على رجال البوليس في واقعةٍ لا أذكرها، لكنها كانت صورتي بلا شكٍ ولا تزوير. وتبادَلَتْ عليَّ مشاعر كثيرةٌ ما بين اليأس والخوف والذهول، لكن الخوف وحده طالبني ساعتها بتصرفٍ يعصِمُنِي من السجن، وقد طمأنني فرحات لكون مجلتنا لا ترسل

إلى بائع الجرائد أكثر من نسختين وقد اشترى كلاهما وطالبني بضرورة ترك الفندق إلى مهجع أمن قد جهزه لي منذ الأمس بعدما قرأ ما قرأ، ولم يُخْبِرني في المقهى لكيلا أرتبك. وكان المهجع الجديد عبارة شقةٍ واطئةٍ يملكها قريبٌ له كان مسافراً إلى الخليج، فكانت رطوبة الشقة وبُعدها عن الأنظار كفيلان بالتكتم على سرٍ خطيرٍ كَسِرّي، فضلاً عن انزواء هذه القرى بعيداً عن التاريخ والجغرافيا، فلم يتبدل الحالُ منذ حلول مصطفي باشا النحاس وحتى حلولي بها طلباً للسرية. وكانت الشقة سجناً بسريرين وأدوات مطبخ قليلة، وشاي وسكر، وتلفاز يوشُّ بلا صورة، أما فرحات فقد كان يعودوني مرتين في اليوم، صبحاً ومساءً، يسألني بطيبةٍ عن كل ما أحتاج إليه ثم يذهبُ ويعود حاملاً معه الطعام وأخباراً جديدة من الخارج، وكان الوضعُ لا يطمئِنُ كما أبدا هُوَ لِي، فقد أخبرني أن الاعتقال تلك الأيام كان يتمُّ بلا حسابٍ ولا تحقيق، بل لمجرد الشبهة، ولأنني كنت ضَيفاً على القرية فقد وجبَ كذلك عليَّ أن أعرفَ شيئاً من أخبارها، ربما دون اهتمامٍ في البداية لكن تواتر الأيام في الشقة علَّمَنِي أن أصيخ السمع وقال فرحات:

قريتنا من دون كل القرى لا تتعامل مع الانتخابات كحفلٍ موسميٍ بل تبقى متأهبةً لها على مدار العام والأعوام التي تليه، ويجتمع الناس عندنا على مرشحيهم من قبل الانتخابات بزمن. قريتُنَا كبيرةٌ ومترامية في أحواض القرى المجاورة، ومتشابكة مع أهلها بالنسب ولنا عليهم كلمةٌ مسموعة، وبوسع أهل قريتنا إن اجتمعوا على اسمٍ واحد أو حتى اسمين أن يصعدوا بهما إلى البرلمان، وليست انتخابات البرلمان وحدها ما أعني بل والمجالس المحلية والنقابات والجمعية الزراعية، باختصار فإن قريتنا منذ زمنٍ بعيدٍ وهي مدربةٌ على لعبة الانتخابات، ويحرك كل هذه الخيوط بقوة الحاج أسعد النديم الذي ترغب أنت في مقاضاته.

أنا لا رغبة عندي في مقاضاة أحد... سأتساهل معه بالقدر الذي يمكنني من الفرار.

ليكن في معلومك، أسعد النديم أسقَطَهُ الإخوان مرةً في البرلمان قبل الأخير، أما في البرلمان الأخير فقد زكَّت الحكومةُ رجلاً آخر عليه يدعى سيد عبد المتعال وطالبوا أسعد بالصبر، وهو لم يسامح القرية في هذا ولا ذاك، الانتخابات عندنا ليست برلمان فحسب لكنها تحدد من يلي زعامة القرية وأحسب أسعد قد يتخلى عن البرلمان لكنه لا يترك زعامة القرية لأحدٍ سواه... هو لم يعد في حاجة إلى البرلمان فحباله موصولة بنافذي الكلمة والحكام الحقيقيين، أبناؤه من كبار اللواءات ولا يزورون القرية إلا نادراً وقد نصحوه مرة باعتزال كل شيء بعد الثمانين التي بلغها، فاحتد عليهم وأوشك أن يضربهم بالرصاص. الأمر عنده حياةٌ أو موت، موتٌ لكل من يهدد زعامته. إن عَلِمَ أسعد بوجودك في القرية فسوف يُفَتِّشُ في ماضيك وأخطائك، وإن عجز عن ردعك سوف يقتلك... هل تعي الأمر على حقيقته الآن؟ ... أنت مقتول أو مسجون إن علم أسعد بقدومك.

كنت أرى أبي –رحمة الله عليه– مُبالغاً في تقدير أسعد، لكن الرعبَ الذي حدَّثَنِي بِهِ فرحات جعلني أنتبه، جعلني أزهدُ حتى في حقوقي، كان أسعد هو الأمير الذي يحكم منفاي وسجني ويكتب تاريخ القرية على هواه. ولقد لزمتُ محبسي وضاعفتُ جرعة المهدئات حتى كنتُ أسمعُ الصمت من حولي وابتسمُ بلا مناسبة. ولم تفلح محاولات الكتابة لأنني كنت أطارد أفكاراً لا حصرَ لها ولا تحتويها أي لغةٍ، فكان شاغلي حال اليقظة هو إخماد القلق. وتساوت الأيام في كآبتها ثم تشابهت. وبدأ حضور فرحات يفرحني ويحرك شهيتي للطعام مثل كلاب بافلوف، وقد أخبرني فرحات ضمن حديثٍ لا أذكره عن انضمامه لجماعة الإخوان في الشهور الأخيرة من الثورة قبيل طردهم من الحياة السياسية... ذلك أربكني، وحرك عقلي في أسئلةً كثيرة حول مضيفي وزائري اليوميّ الذي كان يلتفُّ بعباءة سوداء ودائماً يُخفي تحتها ما يحمله إليَّ، لكنه أيضاً يرتديها وهو جالس معي... الجانب الأكبر منه كان ملفوفاً على الدوام بطيلسان أسود فهل كان من الصواب تصديقه في كل شيء؟ وقلت له:

ليكُنْ في معلومِك، أنا لن أضع يدي في يدكم والسجنُ أحبُّ إليَّ.

وهل تحسبُني قيادياً أُجنِّدُك؟ اطمئن، فأنا مجرد هلفوت قد خدعوهُ بالكلام، ومشيتُ من ورائهم بحسن النية أعلق لهم اللافتات وشعارات الحزب دون أن أحضرَ اجتماعاً وحيداً لهم، لم يأتمنوني كما لم يشركوا أحداً فيما يدبرون... ونالني منهم خيبة الأمل واليأس وهو نصيبٌ نقتسمه كلنُّا على ما أظن... إنما أخبرتك لأنني شعرت بضرورة أن تعرفَ كل شيءٍ عنِّي.

والبوليس؟

ولا تقلق من هذا أيضاً فقد اتضح لي أن البوليس لا يأخذني على محمل الجد، من ماركسيّ إلى سلفيّ إلى إخوانيّ، أنا نفسي أتوه في أمري... لكنني أرى في كل ما أقدمتُ عليه حقداً على أسعد النديم دفعني إلى ارتكاب كل ما يضايقه... ستعرف كل شيء في حينه.

- أريدُ أن أخرج.
- دعني أرتب لك.
- مللتُ يا أخي!
- اصبر قليلاً... ربما ترى اليوم الذي تمشي فيه بالقرية بلا حذر وتطلب حقوقك بلا خوف.

حتي وإن كان سجانُكَ طيباً ستطمحُ دائماً إلى مغافلته لتخرج من محبسك، وما لم أذكره لفرحات في حينه أن الحبس في الشقة والوحدة قد سببا لي هلاوس بصرية حذرني منها الطبيبُ مسبقاً، منها ما كان مجسداً و يبدو لعينيي حقيقياً بدرجةٍ لا تُصدَّق، مثل ذلك الغلام الذي رأيته بصحبة فرحات وقد حسبته ابنه لتشابهٍ كبير في الخلقة بينهما وهممتُ بالترحيب بالغلام لكنه أسكتني بوضع إصبعه على فمه ونبهني لكونه غير مرئي لأحد سواي حتى فرحات لم يكن يمكنه رؤيته رغم ملازمة الصبي له على الدوام ثم مرر الغلام يدَهُ كالجن عبر الحائط وعبر جسد فرحات كما يمررها في الماء وخرجت سالمة... وكان العفريتُ الصغير يتفقُ تلقائياً مع كل آراء فرحات إيماءً برأسه، ويعيبُ بسخافة العيال على كل رأيٍ لي، خاصةً رغبتي في الخروج ولو قليلاً لتنسم الهواء، وكان يستفزُّني كثيراً بإخفاء السجائر

ليجبرني على أن أفضح جنوني. وحين رفض كلاهما فكرة خروجي تسللتُ في غيابهما ودرتُ من حول القرية فأكلتُ في مطعمٍ وصليتُ في المسجد الكبير، مسجد سيدي شبل، ولا أقول بأن فرحات كان يكذبني ولكني تمنيت لو تبين لي أنه كان مبالغاً في حذره وحرصه عليّ، فخرجتُ للشارع كالمتلمس سخونة الإناء وتغيرت عادتي فأصبحت كثير الخروج بدلاً من انتظار فرحات وابنه العفريت، أمسيتُ أُلمح إليهما كثيراً إلى رغبتي في البقاء وحيداً ثم حين يتركاني أنهض وأجوب الشوارع بلا هدف.

وتوضأتُ للصلاة في مسجد سيدي شبل الأسود حارس قرانا في عصر جمعةٍ طيبة، فلما انقضت الصلاةُ أحسست أن صاحب المقام رضي الله عنه يدعوني إلى مس ضريحه وقراءة الفاتحة له، فلما انتهيتُ من شكايتي إليه من وراء الزجاج نبهني صاحب المقام ابنُ عمِّ النبيّ إلى وجود رأسٍ ثانيةٍ فوق كتفي بدت منعكسة في زجاج الضريح فعلمتُ أن هناكَ من يراقبني ويسير دائماً من خلفي، وتذكرتُ كلام صاحبي الطيب وعفريته الصغير، واحْتَلْتُ حتى تملصتُ من الرقيب عند سوق القرية فعدتُ إلى مهجعي عازماً ألا أعود لمثلها، فلما فتحتُ الباب آنستُ صاحبي غضبان قابضاً على طرفٍ من عبايته بيدٍ ويشيح بالأخرى، وكان عفريته يلهو على سريري فشددتُه من شعره وأغلقت الباب دوني، ما كان في وسعي تلقي الملامة كتلميذٍ مذنب، وعدَّد عليَّ فرحات من وراء الباب كلَّ ما فعله من أجلي ومغامرته بنفسه حرصاً على سلامتي، وغابَ يومين... ثم عادَ يضعُ الطعام أمامي كسجانٍ غير مكترث ويعاقبني بالصمت فأزحتُ الطعام بكفي وحكيت له:

أنا يا صاحبي أميرُ هذه القرية المنسيّ، حتى إن اتهمتم حكايات أبي بالكذب فثَمَّ تاريخٌ مبنيٌ على الأرض لا يكذب أبداً، شوارع بأسرها ما زالت تحمل اسم جدي عليها، مخازن قديمة للغلال تقشر طلاؤها واحتفظت بلقب عائلتي على واجهاتها بالخط الأبيض العثماني، ويظلُّ اسم جدي في كشوف العُمودية أول عمدةٍ على هذه البيوت المتراصة في نكرانٌ عظيم، فإلى أيِّ مدىً قد تكذب حكاياتُ والدي حين أخبرني قائلاً: «جدك يا ولد كان سيد هذه القرية ووليها... هو الذي خلصها من وباء البوص الأصفر

والأحناش والغجر، تمسك بالأرض حين فرَّ الأخرون. وكانت الشوارع بسطة من الأرض ومرتعاً للشياطين فرسم حدودها وعلَّى دُورها وأنشأ تجارة ومقهىً، وأنزل إلى أهلها الراديو والجريدة، واستقدم الفارّين ليعمروا المساكن من حوله، وضمن لهم حرفاً وزراعة، فإياكَ أن يراكَ الناسُ إلا مرفوع الرأس حتى وإن عاداك الزمن وأسرف في تقلبه، تعطَّرْ دائماً وهندِم ثيابك ولا تُصاحب العوام، وألقِ السلامَ على الجميع. كلُّ شيءٍ كان لنا وهذه القرية ابنتنا. لولا أن جدك استقدم فيمن استقدم أقارباً لأمه، وكان يحب رائحة الأقارب، فأرخى لهم جناحَهُ، وكان من بينهم مغامرٌ يركب الحصان ويعرف قطاع الطريق ويصاحبُ العُربان، أشاع في قريتنا القتل وسرقة البهائم واستعلى على جدك، ودبر في ليلةٍ سهرها مع الشيطان جريمةً ابتزَّ بها جَدَّك، فكان إما أن يترك الزعامة والعمودية ونصف ما يملكُ من طينٍ وتجارة، وإما أن يُسجن، فانثنى جدك أسفاً، وضاعت العمودية وسرقت الأرض ونوحت عمَّاتُك الكبار: «يا غيط يا ابو فحلين، وديت عزازك فين؟» ... ومات جدُّك، وفرَّ أعمامك من بطش "نايل النديم"، فإن رؤيته لواحدٍ منَّا كانت تذكره وتذكر الناسَ بما فَعَل. وخلَفَ نايل النديم أكبرُ أولاده أسعد، فكان أكثر فتوةً وأشدَّ بطشاً، وترقَّى في الفجور حتى صار عضواً دائماً في البرلمان. وليس من قريتنا رجلٌ كان يجرؤ على تحديه، فإياكَ يا ولدي أن تحسب أنهم ينسوك أبداً، يكفيك أن تمشي في هذه القرية بالحكايات القديمة فتكون سبباً كافياً لقتلك».

والعجيب يا صاحبي أن أسعد النديم وأهله بعد أن سرقوا الأرض وفرَّقوا الأهل قرروا أن يمحو التاريخ مثلما فعل الملوك بأسلافهم. انتبهوا معي أرجوكم أيها السادة حتى لا تقولوا من بعد إن هذا المجنون لخبطنا، فإن كان المتكلم مجنوناً فمن الضروري جداً للمستمع أن يعقل ما يقال... حتى الآن حكايتي كانت واضحةً ولا لبس فيها... وكنت أنا هو أنا واسمي حسين منصور الدرغامي... ولم يظهر في الأحداث أي ذكرٍ لنور النديم الذي يدَّعِي الناسُ في قريتنا أنني هوَ، وقد شهدَّتم على العداوة التي كانت بين عائلتنا وبين عائلة النديم بحيث لا يمكن الخلط بيني وبين ابنهم "نور النديم". فكيف كان

ذلك ومتى بدأ اسم نور النديم يظهر في الحكاية؟، أنا سأخبركم ولكن صلوا على النبيّ.

لم تكن الهلاوسُ أكثرَ ما أخشاه على نفسي في تلك الفترة، وإنما مجلسي الدائم مع دماغي وتعمُّقي في أسئلةٍ لا طائل من ورائها. عن الإنسان والملائكة، هل من الممكن تلافي فكرة الظلم غير الضرورية والتي تعكر صفو الحياة؟ وهل بوسعنا بناء «يوتوبيا» يحصد فيها الإنسان ثمره كفاحه ضد الطبيعة من دون طمع ولا تنافس يلوث ساكني «اليوتوبيا»؟ أيُّ مكانٍ في العالم أصلحُ لذلكَ من غيرِهِ، من سيحكم المدينة ومن سيكتب الدستور، ومن؟ وكيف؟ وهل؟، كان لابد من الخروج من عزلتي الجبرية، وإلا سأُجنُّ. ومن حلقة الأفكار التي تحاصرني، لابد لي من رؤية أشخاصٍ غيري وغير فرحات وعفريته القزم. وانتظرتُ في نفاد صبرٍ قرارَ العفو عن عزلتي... كان صمتُ فرحات يكدرني ويستمع إلى الحكايات بلا تعقيبٍ ومن غير تجاوب. حتى جاءني اليوم الأبيض الذي فتح الباب على عزلتي وابتسم فرحات وقال:

- بوسعك الآن أن تمشي بين الناس.
- أسافر؟!
- لم أقل تسافر، قد احتلت لمقامك بيننا وتكلمتُ مع محامٍ صديقٍ وعدني بتحريك الأمور وطمأنني.
- لكن أنا...
- سيدي، أنا أتوسل بالمتاح لا أكثر... مقامك بيننا ضرورةٌ فرضها الظرف... لكنك ستكلم الناس على الأقل تسمعهم ويسمعونك... دفعني إلى ذلك إشفاقي لوحدتك... ربما يمكنك بيننا كتابة روايةٍ جديدةٍ عنَّا، عن قريتك التي وُلدتَ بها وطُردتَ منها، ولا أخفيكَ يا سيدي مبلغ تلهُّفي لذلك... قُم معي نخرج.
- أخرج منفرداً هذه المرة... وسأتكتم أمري.

– التكتم ضروري ما زال، وسأعرفك أنا بمن يمكنك الثقة بهم وبمن لديهم حكايات مشابهة لحكايتك عن أسعد النديم... سآتيك بالليل.
– كلا أرجوك... سأوافيك أنا كرجلٍ حرٍ لدى المقهى الذي رأيتك فيه أول مرة.

انتهيتُ إلى الترعة الخضراء التي تحدق بقريتنا مثل حدوة الحصان، فوَلَجْتُ دونما قصدٍ إلى طريقٍ ترابية طويلة، كانت أشجار الكافور تعزف كالدفوف، والسيسبان تاركاً جدائله للماء يداعبها كما يهوى وكما تشاء نسائمُ العصر، وكانت شمس الحكاية حانيةً ومتلفعةً بسحابةٍ بيضاء، بيضاء كاللبن الحليب الأبيض. وما آنست أحداً في الطريق سوايَ فلم أتعجب ولكن تحللتُ من الوقار واثباً إلى الشجر أُغني في هوادةٍ ومن دون حرج... حالئذٍ أدركني نهيقٌ من خلفي، ثم رأيت حماراً أبيض يثير الأرض بخرطوم طلمبة بحاري يجرجره من خلفه... كان الرجل الذي فوق الحمار ذا وجهٍ طويلٍ وذا أنفٍ وكان يضع على أنفه نظارة طبية من الطراز القديم المقعر، فرأيت أحداقهُ حين تفحصني بعينٍ ثابتة بلا حياة كأحداق السمك... وقبل أن يتخطاني بضع خطوات توقف، ثم فاء ناحيتي يريد أن يصافحني.

– سلام عليكم... يا الله... كيف حالك يا قريبي.
– عفواً... هل تعرفني؟
– وكيف لا... أنتَ وأبوك وجدك رجلٌ واحدٌ في الشكل والهيئة... وكل رجال عائلتنا كذلك أما تراني قد أشبهك؟

ولم يكنْ ذلك صحيحاً أبداً، لكنه قصَّ عليَّ طرفاً صحيحاً من سيرة العائلة وترحَّمَ على أبي وجدي. ثم أكملنا التعارفَ حال طَيِّنَا للطريق، فاضطررت إلى التصديق لكونه قريبي حين عدَّدَ على مسامعي أسماء عماتٍ وخالاتٍ وجدود من هنا وهناك حتى دوَّخ رأسي... ورأى من واجبه كقريبٍ يصون قريبه أن ينصح لي، فوضع كفه بخشونة على عظام كتفي وانطلق قائلاً: «إياك يا قريبي أن تمشي وحدك في هذه الطريق... أما تعرف أن عفريت

نور النديم يقطع الطريق على السالك وحده»، فطلبتُ الإيضاح فأسهبَ قائلاً: «نور النديم ذلك هو ابن أخ أسعد النديم كبير القرية، وقد وجدوا نور النديم مقتولاً ذات يومٍ في هذه الترعة الخضراء التي أمامك، كيف لا تعرف؟ البلدة كلها تعرف ويحذرون من المرور فُرادى من هنا، نور النديم بعد ما قُتل خرج عفريته للناس، وهو يتحين الفرصة ليتلبس جسد أحدهم». ثم أضاف ضاحكاً:

- والله العظيم حسبتك هو يا قريبي.
- وما غرض العفريت يا قريبي؟
- كلام بيني وبينك، تقول الشائعات بأن عمه أسعد النديم قتله ليستولي على ماله وأرضه، والعفريت المسكين يطلب الثأر يا قريبي.
- كيف يطلب الثأر؟
- يقولون إنه إذا تلبس في رجلٍ يجننه وينسيه أصله وفصله، وليس ذلك فحسب بل إنه يغير الحكايات في ذاكرة الناس ويغلق على الملبوس القرية ويحبسه فيها، حتى لا يكون للملبوس سوى واحدة من اثنتين، إما أن يقتص للعفريت من أسعد النديم فيقتله وإما أن يموت الملبوس، حينئذٍ يتركه العفريت إلى رجلٍ سواه.
- هل تصدق هذي الخرافات!
- ليست خرافاتٍ يا قريبي واسألني أنا، لقد شاهَدَتْ قريتُنا رجالاً تلبَّسهُم العفريت، كلهم حاولوا قتل أسعد من دون سابقة عداوةٍ ولا دم، وكانت آية الملبوس وعلامته أن ترى عينه حمراء، حمراء كحبة الياقوت الأحمر.
- يا ألطاف الله.
- كلام في سرك لا تخبر به أحداً... قريتنا كلها ملبوسة بهذا العفريت... فإن شيوخ القرية وعجائزها يمشون عند الضحى إلى الساحة الكبيرة التي فيها سوق البهائم... يقفون عند السور

ويراجعون حكايات القرية، فتجدُ أنَّ ما في رأس هذا مختلفٌ عما في ذاكرة هذه، ولا يتفقون على حكايةٍ واحدةٍ أبداً، العفريت يغير الحواديت من ورائنا إلى الحين الذي تناسبه في حكايةٍ وينال ثأره... وعلى العموم يا قريبي أنا نصحت لك وعقلك في رأسك... لا فكاكَ للقرية من هذا العفريت سوي أن نردم الترعة، والترعة هي كل حياتنا قد شقها جدك.

وتركني قريبي عند حافة الطريق الزراعيّ الذي يقطعُ قريتنا وترعتها من الناحية البحرية، وكنت مندهشاً من الخرافة التي قصَّها عليَّ، لكن دهشتي تحصَّلَت كاملةً بعد خطواتٍ حين تلفتُّ فلم أجده وغاب من ذاكرتي المكان الذي تركنا فيه حماره الأبيض... لكنني كنتُ سعيداً وقطعتُ الطريق إلى المقهى هرولةً، فكان صاحبي فرحات واقفاً عندها يبحث عني بعينٍ حائرة، وتلقفني في عباءته لما رآني فقلت له لاهثاً:

وجدتُ روايتي يا أستاذ فرحات... سأحكي عن هذه القرية، عن رجل اسمه نور النديم. وأريد أن أعرف كل شيء عنه.

فابتسم صاحبي ونشر عباءته أمامي فتبدت كجناحي ملاكٍ، ثم طواها فرأيت من بعدها القرية ومشينا، وكان ما كان من أمر جنوني واختفائي والقرية التي بنيتها والتي سماها الناس (عزبة المجنون) ... أنا لا أخبئ عنكم الأحداث ولكن من حسن حظكم فإن العاصمة قد أرسلت صحافياً اسمه جلال محمود ليحقق في شأن اختفائي. هذا الرجل أنا أعرفه وأثق به فاستمعوا لحديثه، وإن رأيتم الناس يدعونني «نور النديم» لا تهتموا واستمعوا... سأعودُ إليكم بين أحاديثهم بكلمة سرٍ تعرفونني منها... كلمة السر هي «أنا الذي هو أنا».

طارق الشاذلي

طبعاً مصيبة سوداء يا جلال بك، من كان ليصدق أن الفلاحين سيقفونَ في وجه كراكات الحكومة ويتحدون البنادق وعصي الأمن المركزي من بعد أن هدأت التظاهرات ونامت في القُطر كُله. جاء نور النديم وزرع لغماً بين الناس والحكومة. وليكن في معلوم الجميع: كلمة الحكومة نافذة على كل الرقاب، بلا هبل، يجب أن تهدم عزبة المجنون... لكن الحكومة محرَجَةٌ يا جلال بك، وخبرٌ كهذا سيطير ويثرثر ويعيد على مسامع الناس من جديد تلك الحكايات السخيفة عن بطش الدولة وعنف البوليس ونحن في غِنىً عن كل ذلك. وكان من الضروري أن يتدخل الإعلام الوطني النزيه ليكشف للناس حقيقة هذه الشائعات، وثِقْ تماماً أنني لن أخفي عنك شيئاً مما حدث وسأطلعك على كل الأوراق التي تفيد قصتك... ولكن هل أستطيع أن أثق بك؟

رأيتُ هذا يحدث منذ اليوم الأول لتعييني ضابطاً للمباحث على هذه القرى الصغيرة المتجاورة، وعرفتُ بحدسي أن قرية ميت نور بالذات تخبئ في شوارعها الصغيرة الضيقة سراً هائلاً قد لا تحتمله القاهرة الكبيرة بجلال قدرها، القاهرة يا أستاذ أم التاريخ أم القلق والرعب والعبوات الناسفة، وحيث رؤساء المنظمات السرية يفتتحون مقراتهم في وسط البلد، هل تجدني مبالغاً يا أستاذ جلال؟ معذور، تأتي الخدعة دائماً من نافذة السيارة حين نتجه إلى الأرياف، بينما تقل القاهرة تدريجياً ويخفت تأثيرها على العمارة والملابس، ثم تذهلك الغيطان بخضرتها واتساعها وترى الناس يمشون من خلف البهائم في هدوء، وتلك الفلاحة الحلوة تنكفئ على الطلمبة مراتٍ ومرات فتحسبها من بعيد مبتسمةً لك، ثم إن حاذت سيارتك ترعة طويلة خضراء يبادرك إحساس أن الدنيا تفتر كلما توغلتَ أكثر داخل الريف، يخدعك الريف لتحسب كل القرى بيتاً واحداً ومحصولاً واحداً

وشجرةً وحيدة، والفلاح هو هو نفس الفلاح السينمائي المسالم الذي يحفر برأسه بعيداً عن المشاكل وبالأخص مشاكله مع الحكومة، وليس على الفلاح إلا أن يزرع ويجمع ويمطَّ في الحروف ويُصور مع أبي قردان. ليس ذلك صحيحاً ولا قريباً حتى مما يعتمل في جوف الريف، الريف يستعر من داخله وإلا لما كُنَّا هنا الآن أنا وأنت، وما جاء من قبلنا نور النديم يثرثر بحواديته بين الفلاحين، الأمر أكبر مما تتوهم يا أستاذ فأخبرني هل بوسعي أن أثق بك؟

- وأين نور النديم الآن؟
- لا علم لنا ولا أحد يعرف إن كان حياً أم ميتاً، اختفى، تلاشى... ترك جلبابه مضرجاً بالدماء على حافة الترعة وترك من خلفه الأسئلة الكثيرة والشائعات... وقد بالغ بعض الناس في تصديق ما يشاع عنه فرفعوه إلى درجة الولاية... حشاشٌ وزيرُ نساءٍ، مفضوح، قلب الدنيا رأساً على عقب!
- لربما قُتل؟
- في ستين ألف داهية، أحبُّ ما عليَّ أن نجد جثته لنعلن وفاته، المهم عندي أن أدفن سيرته قبل دفنه هو.
- ولم تهدمون القرية التي بناها؟
- بيوتٌ مبنية على أرض زراعية، قام نور برشوة مهندسي التنظيم ليسهلوا له الأوراق، ولسوف تهدم ويحاسب كل مسؤول عن ذلك.
- التفاصيل كثيرة وأنا مرهق، اسمح لي بالنوم ساعتين على الأكثر.
- سندردش قليلاً ثم أصحبك إلى غرفتك في فندق قريب، وهي بالمصادفة نفس الغرفة التي أقام بها نور أول ما حلَّ بالقرية.
- فندق في هذه القرية؟!
- ألم أقل لك إن الريف يتغير، يطمح إلى المدنية، يمكنك حتى أن تظل في غرفتك وسأرسل إليك الشهود والأوراق ونرتب سوياً

القصة التي ستكتبها للناس... لكن يداخلني شعور أنك لن ترضى بذلك.

– سأحتاج بالطبع كل ما تمدني به وسأحتاج لأن أمشي في القرية بنفسي.

– حسناً، سأرسل معك خفيراً.

– وحدي يا طارق بك... هذا مطلبي الوحيد وأرجو أن تحترمه.

– حسناً... هل تمانع إن أجلستك خلال التحقيق مع واحد من المشتبه فيهم، كانت زوجته على علاقة بنور النديم، تعرفها القرية كلها. اختفت هذه المرأة بعد اختفاء نور بأسبوع واحد، وبسؤال أهل القرية كلهم أجابوا بأنها سافرت إلى أمريكا... بيقينٍ صلب لا يناقش.

– هل تشك في كونه قتله ثم قتلها وأخفى كليهما؟

– المرأة بالفعل في أمريكا وأنا استعلمت من السفارة... ولكن... دعنا نستمع إليه.

– اسمك؟

– نادر عباس محمد الوكيل، مأمور ضرائب، خمسة وخمسون عاماً.

– ما علاقتك بالمدعو نور النديم؟

– لا علاقة ولا يحزنون ولم نتحدث أبداً.

– عجيب، معلوماتي أن نور النديم قد زارك في منزلك قبل اختفائه بساعات وجرت بينكما مشادة عظيمة.

– نور النديم رجل مجنون بشهادة الناس، وشهد عمه بذلك أمام البلدة كلها، جاءني مساء ذلك اليوم يخرف فطردته لم يدر بيننا حديث أعيده عليك.

– علام تشاجرتما إذن؟

– لكونه دخل بيتي مسطولاً، تبينت ذلك من خمول عينيه وانبساطه بلا حدود في الكلام.

– لا تؤاخذني فالناس يقولون عنه وعن السيدة أسرار زوجتك كلاماً.
– وقالوا عن عائشة أم المؤمنين، ومريم أم عيسى والناس لا شاغل لهم إلا الكلام. لكن يا طارق بك أنت جعلت لحديثهم وجاهة حين استدعيتني للتحقيق.
– ألا ترى ذلك منطقياً؟
– منطقي وغير ضروري، رجل تشاجر مع نور النديم حال سطله أو جنونه، كان يمكنك أن تعد ألفاً من قبلي.
– لماذا سافرت السيدة أسرار فجأة؟
– هي لم تجاوبني على ذلك، حتى أنها لم تنتظر أن تودعني ولا ودعت أحداً.
– أستاذ نادر، هل كنت على وفاقٍ مع زوجتك، أقصد من رجل إلى رجل، هل كانت تحبك؟
– ومن رجل إلى رجل أعيد إليك نفس السؤال، ما الدليل على كون أي امرأة تحب زوجها؟ ولا تخبرني أرجوك بأنها تقول ذلك، فكلهن يقلن تحت الإلحاح، لكن إن كنت تسأل عن زواجنا فسأؤكد لك أننا كنا على ما يرام، لا شكاوى ولا تمسك من جانبي بالرأي وكانت هي زوجاً وأماً عطوفاً ومتفهمة، لم ينقص سعادتنا شيء نحتاجه من خارج البيت.
– هل سافَرَتْ من قبل وتَرَكَتْك.
– قضت إعارتها كمدرسة لغة عربية لأربع سنوات في الخليج، وكان ذلك باتفاقٍ بيننا من أجل ابنتنا الوحيدة والمستقبل.
– كيف سافرت زوجتك من دون جواز سفر، أنا تحققت بنفسي أن جوازها منته منذ خمس سنوات، والأكثر إلغازاً أنها لم تكن حتى مقيدةً في نقابة المعلمين؟! كيف يحدث ذلك؟
– والله ما أعرف.
– قبل اختفاء نور رآك الناس تمر ليلاً بالقرب من عزبة المجنون.

– كنتُ في بيت الأستاذ شوقي العبد ثم ماشاني لبيتي، إنها طريق عودتي المألوف والأقصر إلى البيت.
– وقّع على أقوالك إذا سمحت.

قبل مجيئي إلى هنا كنت على قسم شرق شبين الكوم وفي انتظار ترقية وشيكة تحملني إلى القاهرة، جلستُ أنا وزملائي في مكتبي حول سماعة التليفون في انتظار أنباء توكيدها، وكان الزملاء يوصونني سلفاً بأسمائهم في حال صار المتوقع يقيناً وتتم إجراءات نقلي، ثم جاءت رنَّةُ الهاتف واستمعتُ إلى التكليف الذي جاءني من السماعة البعيدة هناك، وحسبتُ الأمرَ ينطوي على خطأٍ ينبغي تصحيحه، لكن الصوت كان واثقاً موحياً ولا يقبل بالمناقشة، ولا داعي للمفاخرة أمامك يا جلال بك بحجم تاريخي وسجلّي في الداخلية، ولكن للعلم فقد درستُ في كلية الشرطة أولاً ثم خدمت في جبال سيناء وفي الصعيد وأنجزتُ بعثات تدريبية في أوروبا، كما أنني أعمل على دكتوراه في تحسين بيئة التحقيق... قفز الصوت فوق كل علامات التعجب التي نطقت بها وقال بهدوء ..نحتاجك هناك بالذات...

– كلمني عن هذا الصوت يا طارق بك.
– إذاً أستطيع الوثوق بك؟

ذلك الصوت كان يتعهدُني منذ السنوات الأولى لتخرجي في كلية الشرطة، وكانت تحدث دائماً مصادفة تجعله أول من يبلغني بالترقيات والتنقلات وكل مهمةٍ من شأنها أن تُضيف إلى تاريخي، حتى شعرتُ ناحية الصوت بألفةٍ وامتنان، وتمنيتُ لو صافحتُه ذات يوم، وشعرت أحياناً أنه كان يُحرّكُني من بعيدٍ لما فيه صالحي، دائماً ما كان ينقل إليَّ الإحساس كونه واثقاً مما يفعله، وأنه من ثلة رجال الداخلية المشاركين في الإدارة العليا البعيدين كل البعد عن التنقلات أو الإحالات الجبرية، وقد سرَّني دائماً أن أعرفَ أنَّ لي ملاكاً حارساً حول طاولة الإدارة، لكن ذلك اليوم الذي بلغني فيه بالنقل إلى هنا لم أفهم، وغالبت بصعوبة إحساسي بالإهانة حتى رضخْتُ نهاية. وفي الليلة الأولى التي تسلمتُ فيها هذا القسم طلبت على الفور

تجهيز حملة للمرور على تلك القرى المتناهية في الصغر، وقفز المخبرون كسالى والأمناء إلى مؤخرة السيارة يتغامزون من حدتي ومن شدة الغربال الجديد لا أكثر، لكنني في الحقيقة –وإن ذهلت ودهشت- فإنني تلهفتُ لمعرفة السبب الحقيقيّ بين يديّ نقلي إلى هنا، ولم أشأ الإنصات إلى كلام الشاويش فتح الله وهو أقدم العساكر في القسم، وهو من أبناء قرية ميت النور، قال: «يا طارق بك الأمور عندنا على ما يرام، والفلاح، بلا مؤاخذة، ليس حشاشاً ولا سكيراً إلا فيما ندر لأنه بخيلٌ بطبعه، حتى ولو بالفرض وجدنا سيجارتين لدى عيل تلفان فإن حصيلة ما نجده لا تكفي لتحرير قضية، لا شيء في القرية يستدعي القلق لأنه لا جديد يحدث، فأكدتُ عليه وقد أدركني الملل والتثاؤب وغشيتني خيبة الأمل: «لا جديد أبداً»، فقال: «سوي شلة نور بك النديم ابن أخ الحاج أسعد النديم، ثلةٌ من المرفهين والتجار وكبار المزارعين ألفوا السهر حديثاً منذ حلول نور بك بالقرية، ويسهرون في بستان الأستاذ المحامي أحمد الجنوبي، ليس لهم في السياسة نصيب، ولا من النساء، بلا مؤاخذة، نصيبُ أغلبهم هو الكلام والنكات البذيئة. فقط سيجارتان من الحشيش لا تجعلان الرضيع يكح ولا يذهل». وحركتُ إصبعي ليقودني فتح الله إليهم فأدار السيارة بتصبرٍ على عنادي. ووجدنا صفاً من السيارات واقفةً بمحاذاة البستان، وتسللتُ بين الليل والزرع ناحية الكوخ الذي دلت عليه الضحكات وإضاءة الكلوب من بعيد. وميزت خارج الكوخ الطيني شجارَ رجلين كانا يغسلان آنية الشاي لدي الطلمبة التي في صدر البستان، عرف الشاويش فتح الله فيهما نور النديم وصاحبه محمد فرحات، وكان الحديث من بينهما عجباً:

– أصارحك يا فرحات بأنني بعد حديثنا الأخير لم أعد مشغولاً بكتابة روايةٍ ورقية، أنا أتفهم جيداً وأقدرُ إلحاحك في استخراج ورقٍ يحكي عن قريتنا وعما نحلم به، ولكن عليكَ كصاحبٍ لي أن تعي شيئاً مما أصبو إليه، فإن الرواية التي أحلم بها لا يمكن للورق أن يتضمنها، فإنها وسيعةٌ كالبحر، هل يمكنك كتابة البحر يا فرحات؟ ... أرجوك لا تشح بوجهك عني ولا تعاملني

معاملة المسطول فأنا سيدُ الحكاياتِ ما زلت، وانظر إلى أولئك الجالسين في الكوخ وأخبرني ماذا يمكنني أن أكتب عنهم؟ ماذا سأقول في شوقي وفي زاكي وعن أسعد النديم؟ إنهم كلهم أمواتٌ ومكفنون بدخان الحشيش وخيبة الأمل، ليس منهم واحدٌ يصلح للنهوض برواية... يجب أن نعيرهم خيالانا حتى ينهضوا ويجب أن نذوب فيهم أبداً سرمدياً يمكننا من مجالسة أرواحهم ومداواة الخلل ويمكننا معرفة مخاوفهم وتفنيدها واحدة واحدة حتى يمكننا السخرية منها، وليل بعد ليل يسكن فيهم كلام الليل ليلة ليلة في شرنقة واهية من دخان الحشيش بعيدة عن الأعين.

– هذا جنونٌ يا صاحبي، كل الثقةٍ التي تتحدثُ بها مصدرها السُطل، كل العقل والحكمة والعمق الذي تعانيه الآن سيذوب أثرُه بعد ساعاتٍ وتبقى أمامك مشكلةٌ وحيدة، وهي خلافك مع أسعد النديم، تلك القضايا الكثيرة التي بينكَ وبينه، وكونُ أسعد النديم رجلاً لا خلاق له، يمكنه فعل كل شيءٍ وأي شيء لينالَ منك، ويسعدهُ لو خلا بِكَ فيقتُلَك، هل فكرت في كل ذلك إنك حتى لا تتابع القضايا مع أحمد الجنوبي وتلقي على كاهله كل شيء، بأي شيءٍ ستحارب أسعد حين تصبح المواجهة ضرورية ولا فكاك منها؟ ... هل ستحاربه بسطلك وجنونك؟ ... اهدأ يا صاحبي لا تَدَعْ غُرورك يسوقك للهلاك... أخبرني هل تتناول أدويتك؟!

– أدوية... ها ها ها، إن كنتُ لا أرى ضرورةً للعقل ولا للحفاظ عليه فلم احتفظُ بأدوية العقل؟ لقد أرسلتها كلها من النافذة، ماذا فعل العقل طيلة هذه السنوات؟ لقد قضى على حياتنا، والجنون وحده هو الذي سيحرك المياه الراكدة، كلا لا أتناول أدويتي ولكن إن كان عندك أدويةٌ تحفز الجنون والشطط بلا نهايةٍ فسوف أداومُ عليها، أسعد النديم ما عاد قادراً على قتلي وقد ذَوَّبتُ نفسي في أرواح الناس وحكيت لهم حواديتي عنه منذ أن كان قاطعَ طريقٍ لا أكثر، أسعد ليس بوسعه قتلي فقد أهرقت

نفسي في ضمائر الناس وأرواحهم وذلك سهمي الذي أرسلته إليه نافذاً في النحر.

- وانسحب فرحات مغاضباً تصطك أكواب الشاي بين يديه ودلف إلى الكوخ بينما أرسل نور بصره وخياله ناحية القمر المكتمل.
- هذا هو الحوار الذي دار بين نور النديم وصاحبه أعدته عليك بحذافيره يا أستاذ جلال، فأخبرني ما معنى ذلك، إلى أي شيء كان يرمي نور النديم بكلامه؟
- حقيقة لا أعرف يا طارق بك، لكنني أيضاً لا أفهم لماذا يقول عن نفسه سيد الحكايات، هذا وصف أديبٍ آخر أعرفه.
- يا سيد جلال أريدك أن تنظر في الجهة الصحيحة، هذه القرية كل مفاتيحها في يد رجلين هما أسعد النديم وأحمد الجنوبي، لا تُنصت لحكايةٍ تُبعدك من مجالهما، نور النديم مجنون، فضائحه كثيرة، ستسمع عن المانعة وعن أسرار، ويدورون بك في حلقٍ مفرغ ومهما كنتَ ذكياً فإن البشرية كلها أطفالٌ سذج مقارنة بكُهن الفلاحين.
- وماذا فعلتَ بعد سماعك حوار نور وصاحبه.
- لم أنم ليلتها حتى كتبت تقريراً وضَّحْتُ فيه خطورة الموقف لكن الإدارة سخرت من تقريري وطلب مني لواءٌ كبير التوقف عن قراءة القصص الجاسوسية، بينما في الثالثة صباحاً في مكتبي وكان المتصل يعرف بمعلوميةً ما أنني في مكتبي لم أبرح فرفعت سماعة الهاتف وتلقيت كلماتٍ قليلة من ذلك الصوت. قال: «أنت صح، استمر في مراقبة سيد الحكايات». ووكلت بالكوخ ثلاثة مخبرين صبحاً وعصراً وليلاً ولكنهم كلهم عادوا بنفس الكلام، لا شيء يحدث، أضغاث أحلامٍ وهوس مساطيل، فلم أقتنع وذهبت للسهر هناكَ بنفسي، تخفَّيتُ في زِيّ رجلٌ عرباوي معه جمل، مسافرٌ إلى السيد البدوي، واستأذنت أهلَ الكوخ في ماءٍ ومعسل للطريق فضايفوني.

الليلة الأولى

- يا عامري الكوخ يا أهل الكرم... عرباوي سايح في الأرض وقصدنا السبع سيدي أحمد البدوي.
- يا أهلاً تفضل بدستور.
- الشاي والمعسل وأنا أغني لكم على ربابتي.
- ومن غير أجر أيها السيد، ضيوف شيخ العرب ضيوفنا.

واقترب الحاج زاكي بكامل رأسه من شاشة المحمول التي كانت في يد مرزوق الخولي ومال يسأله أن يعيد عليه عرض التصاوير فأبى مرزوق وتعفف ثم قال. يا حاج زاكي عيب عليك (وأخذ مرزوق يشير بذقنه إلى العرباوي الغريب الذي كنته أنا، فغضب زاكي منه).

- إخص، الله يكسفك كما كسفتني... والله ومعك موبايل تاتش يا مرزوق، رحمة الله على الوالد مات من دون لباس.
- هههههه

وانتظرت أن ينتهوا جميعاً من الضحك حتى شددتُ الوتر في ربابتي وتنحنحتُ للغناء فسكتوا وأنصتوا:

«حَكَمْت يا بِين بِخَنْقِي بحبح الخية

لا أم تبكي ولا عمة ولا خية»

- الله الله يا شيخ العرب... اقترب وشاركنا الأنفاس (فاقتربت وسأل نور النديم)

أين أحمد الجنوبي؟ (قال زاكي وفرحات).

- في كتابة عقدٍ خارج القرية... سيأتي بعدها (ولم ينته زاكي من النظر إلى مرزوق في غيظ، وكان زاكي لا يشرب الحشيش فلا يعذر المساطيل في خلو بالهم من الدنيا، فقال متحدياً مرزوق أكثر)
- قريتنا كلها لم يكن فيها سوي عباءات ثلاث، (وسأله نور عند من كانوا؟)
- عباية عند جدك يا نور، والثانية لعمك أسعد، والثالثة كانت لأبي... هو ذا الجنوبي أتى فأشهدوه.
- سلام عليكم ولا تشهدوني... لفوا لي سيجارة، دماغي دارت بي الليلة.
- فقدمها له مرزوق وقال بترحاب: جاهزة يا متر.
- سلمت يا معلم مرزوق، منور الدنيا يا شيخ العرب، اصبروا عليَّ ابتلع ريقي ودهشتي مما رأيت، أنا كنتُ اليوم في قصر من قصور الحلم، الحلم البعيد المنال، هانم بنت بكوات جاءت تبيع سبعة قراريط الليلة، واشترى منها ابن خادمها.
- وتلقف زاكي جملة أحمد وسب بها جار مجلسه فقال:
- الدنيا قلت قيمتها... اسمع يا مرزوق، الخدام اشترى من الهانم... وظلت هانماً هي، وظل خادماً.

فابتلعها مرزوق لزاكي في ذكاء وحاد بها عن الكلام فسأل أحمد:

- قراريط زراعة أم مبانٍ يا أستاذ أحمد.
- مبانٍ يا معلم مرزوق على الطريق الزراعي خرطة واحدة، القيراط بمليون مقفول. وكانت برنسيسة يا خلق الله، بدراً منوراً... وذراعها وحدها أحلى من كل نسواننا. (وعقب فرحات وهو متكئٌ على جنبه)
- هي شمرت قدامك... اللهم صل على النبي.

– لا يا فرحات، رأيناها في ثياب منزليةٍ، كأننا لم نكن رجالاً تعنى بالحشمة أمامهم... وشعرها كان مكشوفا، وسائلاً وكما قال الحكيم «كذا يكن الحريم».

وهممت أنا بعد الشاي والأنفاس إلى ربابتي وضممتها لصدري، فغنيت قائلا:

«يا قصر، طاطي شبابيكك، خليني أشوف عيون خِلي،
لا قصر طاطا شبابيكو ولاخِلي بينزللي،
لابس قميص مشمشي ياحبيبي
وراخي على النهود تُلي»؟

– يا سلام يا سلام، ليلتك أنس يا شيخ العرب.

وقال زاكي معانداً وملحاً على النكد:

– ما لها عيشتك يا جنوبي؟! أنت مرضي والحمد لله وعيالك باشوات... دع قلة الأصل لأصحابها وإلا حاربوك عليها.

ففار دمُ مرزوق ورأيت الحقَّ في جانبه، فسحبتُ القوس على الربابة بحذرٍ شديد، وقال مرزوق:

– وبعدها لك يا زاكي... هاتها لبر أحسن. (وانثنى عن المجلس ففطن أحمد لما كان من صاحبيه) .
– خيراً يا معلم مرزوق؟
– منذ أول الليل يرمي زاكي بالكلام ويقول عباءة أبي ودوار أهلي... لم يكن في الناس صاحب عباءة إلا أبي. الله يرحم أباك يا حاج زاكي كان يموت على المليم، وأنت ابنه من بعده... الكفن من غير جيوب يا زاكي فكها على نفسك وعلى أهلك.

فقال أحمد:

- لا يا حاج زاكي، الكلام له أصوله... أنا جدي كان خطيب المسجد الكبير وكان لديه عباءتان.
- يا جنوبي وهل ينكر أبناء الأصول أو يخفى القمر؟

ودارت همهمةٌ عدلنا في إثرها من ترتيب الوسائد، وتمدد من كان مطوياً وانفرد وأرسل ساقيه، واقترب الجنوبي من نور وفرحات صاحبيه فأشركهما في سيجارته وأسروا من بينهم حديثاً لم نسمع منه إلا الضحكات في آخره. كان ثلاثتهم متآلفين في مجلسٍ صغيرٍ دون المجلس، ثم أشركونا بعد حينٍ في حديثهم فماج الكوخ في ضحكٍ ودخان، وكان كل ما فينا أو حولنا مسطولاً، حتى ظلال أجسامنا صعدت إلى سقف الكوخ ووقفت فوق رؤوسنا تسبح في نور الكلوب، وتبادلت الظلال مع أصحابها الكلام، مثل حكاية في صندوق الدنيا

ظل مرزوق: «عائلة النديم ظلمة وكبيرهم أسعد أكل الحقوق كلها وانتهى بحق نور ابن أخيه، (واستطال إصبع الظل حتى لمس جبهة نور النديم على الأرض) ... إن كنت يا حاج زاكي من أصحاب العباءات، وتمشي دائماً في الصلح ومجالس الحق... اطلب لهذا الغلبان حقه من عمه، خذ معك أحمد وقولا له أعطِ صاحب الأرض أرضه... ما لكم تخافونه؟ الدنيا يدورها الله كل يوم ويأخذها من أهلها ثم ينقل سعدها وعزها إلى أقوامٍ آخرين، ربما قريتُنا صارت كبيرة على أسعد النديم.

وبعد أن انتهى ظل مرزوق من كلامه التفتتُّ إلى ظِلُّ زاكي، وكان يبدو على خشب السقف كقلةٍ مائلةٍ والماء يخر من الطاقية، هكذا رأيته وسرحت قليلاً في حركات الظل، وفهمت من حديث زاكي أنَّ أسعد ما زال محمياً بمعارفه، ربما ترك عضوية البرلمان لكنه محتفظٌ بهيبته لم يزل، وقادرٌ على النفع والأذى لو أراد.

ظِلُّ الجنوبي: «البلد فيها قانون يا زاكي، سنفاتحُهُ في الأمر، وإن رفض تستدعيه المحكمة. الأيام فعلاً تبدلت وبصراحة لم تعد أنياب أسعد ولا تكشيرته يخيفان أحداً».

وهاج ظِلُّ زاكي وشد ظِلَّ أحمد من طوق جلبابه!

ظل زاكي: «بل في وسعه، وأنتم عيال على فطنة أسعد ونابه العجوز، واسمع يا أستاذ نور، لا تلم الناس لو انفضوا عنك، الناس يخافون عمك وعندهم حق، وليتك تعفي أحمد وتعذره».

ظِلُّ أحمد: «أنا لم أطلب ذلك يا زاكي فلا تتحدث نيابة عني». (وأخرج ظِلُّ أحمد سيجارة وأشعلها بينما بقي أحمد نفسه يبحث عن ولاعته التي فقدها ويتحسس جيوبه في غضب واحمرت الوجوه فشحَّ الكلام).

ظِلُّ مرزوق: «تعرف يا أستاذ نور... إن استطعتَ أن تأخذ الأرض من عمك سأجعلُك مليونيراً، سأبيعُ لك المتر الواحد بآلافات كثيرة لن تصدقها... الأرض التي تخصك دخل أغلبها في الكاردون».

وانغمس محمد فرحات فجأة في ضحكٍ ورقص يوجع البطن وهو يردد: «يا سيدي يا قانون يا عيني يا قانون».

ظِلُّ زاكي: «غلبان أنت والله يا فرحات، أسعد النديم يرسل المخبرين في إثره للبيت وفي المدرسة وآخر الليل لو وجدوه يحبسونه في القسم ليلتين».

ظِلُّ فرحات: «أنا أمسيت أذكي منهم، أبيتُ الآن بعيداً عن بيتي، في الموالد وتحت أضرحة الصالحين، مدد مدد!».

ظِلُّ زاكي: «يا فرحات: يأخذ الله مِنّي عيني لأعرف ملتك، أنت شوعي (شيوعي) أم سلفي أم إخواني، كل يومين لك شكل... لكن حكاية الإخوان هذه حذرناك منها... هل بِتَّ صوفياً الآن.

ظِلُّ فرحات (مطرقاً): «أنا بكل بساطةٍ حمار، صدَّقْتُ كل شيء وخدعني المفوهون، أنا حمارٌ يا ناس ولكن لست إخوانياً... كانوا يوكلون إليَّ

حمل اليفط واللافتات والصمغ والمشاجب، ولم يعدُّوني أبداً واحداً منهم. وفي ظني، أن الداخلية تجدُ في أمري فكاهةً لا ضررَ من ورائها، لكن أسعد وولده يحرضونهم عليَّ».

ظِلُّ مرزوق: «صبركم عليّ، سأنشئ من هذه القرية مدينةً كبيرة كلها أنوارٌ ولافتات أجنبية، خمسُ سنوات وربما أقل وسوف ترفلون في مدينتي... يا أخي بلا فقر».

نور النديم: «حين سمح الله للإنسان بابتكار خلق جديد خلق الإنسان الفقر، من يومها كان الفقر، وعاش الفقر بين الناس».

ظِلُّ زاكي: «يا بني، أسعد النديم سيسخر من كلامك هو ورجاله، ربما قالوا عنك مخنثاً لو ردَّدْتَ هذا الكلام أمامهم. يا بني إني أنصح لك، لا تكرر مثل هذا الكلام على عمك فيتهمك بالجنون هو ورجاله.»

أحمد الجنوبي: «اسمعوا يا جماعة... خذوا حذركم من ضابط المباحث الجديد، يقولون عنه سخيفٌ وفضوليٌّ ومدربٌ على التبصص... فلنأتِ بعد الليلةِ فُرادى، ونَمشي فرادى... وأنتَ يا فرحات حاول الاختباء هذه الأيام في مقام وليٍ من أولياء الصعيد.»

ظِلُّ فرحات: «كان هناكَ قردان... أحدهما منحوس والآخر محظوظ، ظل المحظوظ يجمع الموز من شجرة الفلاح ويحرسه المنحوس فيأتي الناس مسرعين فيمسكون بالمنحوس ويفر المحظوظ بالموز... فاتفقا على أن يتبادلا المواقف، وصعد المنحوس يجمع الموز وفاجأهما الناس وأمسكوا بالقرد المحظوظ قال الفلاح اتركوه هذا ضربناه سالفاً... هاتولي ابن الكلب الثاني من فوق الشجرة».

– هههههههه

شوقي العبد

اسمي شوقي العبد، أكتبه هكذا بلا أسماء متوسطة، فأنا لا أرى نفسي إلا من خلال هذين الشقين، شوقي والعبد، كل حياتي ومطامحي لم تخرج عن كوني شوقي أو كوني فرداً من عائلة العبد الكبيرة صاحبة الصيت والسمعة الضاربة إلى أقاصي الصعيد، لعلَّكَ تردَّدْتَ يا أستاذ قبل المجيء إليّ؟

- نعم، وأرجعني عن زياراتك كثيرون.
- أعرف رأي الناس فينا وأعرف كذلك حسد البعض، أنا لست درويشاً يا أستاذ جلال!
- إذاً كيف تُسمي رجلاً جمع الناس لبناء مقامٍ لنور النديم حول المطرح الذي عُثر فيه على ملابسه، مقاماً يا حاج شوقي؟!
- هل عرفت نور النديم؟
- سمعتُ بعض كلامه من الناس وخيل إليَّ أنني أعرفه.
- الله أكبر! مدد مدد من أي بلد أنت يا أستاذ جلال؟ لا تؤاخذني فإن التآلف السريع مع الناس طبعي وخصلتي، لذلك فإن نور النديم كان يفضل صحبتي، وقد عرَّفته بقرية أجداده وتعلم على يدي وجاهة الجلباب واللاثة... لكنه ابتعد عن الجميع لمَّا شرع في بناء قريته العجيبة تلك.
- تقصد عزبة المجنون؟!

كذلك سماها الناس، لكن سبب التسمية أن نور كان غريباً في سلوكه وكلامه لكنه ظل محبب الجنون لدى الناس جميعاً ولدينا نحن بالأخص، أصحابه أقصد، لم يكن مجنوناً ولكن كان يلاحق أحلاماً وطموحات كثيرة

من بنات عقله ولم يكن بوسع أحد مجاراته في ذلك. ويخبرك بعض الناس أنني صحبت الرجل للمصالح وحدها ولسهرات الحشيش الماجنة لكن ذلك من تبعات الشق الثاني من اسمي–العبد– لأنني ونور كانت مصالحنا منذ البداية واحدة وجمعتنا صداقة شهدتها القرية كلها منذ بداية نزوله إلى القرية وتعرفه بأهله وناسه. هذه الحكاية يا أستاذ ستظهر فيها أسماء كثيرة ودراويش لنور لا حصر لهم، لكنك لن تفهم الحقيقة حتى تمسك طرف الخيط الأول، وهو بلا لف ولا دوران الحاج أسعد النديم عم نور، حتى إن اختلفت طباعنا أنا ونور فقد كان يجمعنا هم وحيد، إزاحة أسعد النديم عن زعامة القرية ومن عضوية مجلس الشعب.

– وهذا يندرج تحت كونك شوقي!
– الله يزيدك فهماً، بدأت تلقف أول الخيط.

المعروف عن عائلة العبد أنهم قساة وغلاظ القلوب لا يعرفون الله، لكنهم وبلا شك يعرفون الحاج أسعد النديم تمام المعرفة ويؤدون ضريبتها، فنحن يده التي اعتاد أن ينكل بها وخنجره على رقاب الناس، ساندناه في الانتخابات دائماً وسالت دماء بيننا وبين الناس من أجل خاطره وسعياً لاهثاً لاسترضائه، عبَّدنا له الأرض وكسبنا عداوة الناس بالمجان. يا سيدي قسماً بالله العظيم وهذه يدي في يدك أننا لم نفد من وراء أسعد ولم ننل نحن سوى سوء السمعة. صدق أو لا تصدق، لم يوظف الحاج أسعد فرداً من دار العبد في وظيفة ذات حيثية، كلها وظائف بعقود مؤقتة في المجلس المحلي ومراكز الشباب أو الإدارة التعليمية واحتفظ لأهله وبطانته القريبة بامتياز التعيين في الشرطة والنيابة العامة وشركة الكهرباء والمحكمة، ولم يقدم خدمة واحدة من غير مقابل حتى أشيع أن ضريبة التوظف في الحكومة أن يكدح الشاب عشر سنوات في زريبة الدوار الكبير مجاناً وسخرة، وأن يحضر الرجل من غير استدعاء لزراعة المحصول أو جمعه في أراضي أسعد النديم الواسعة متلمساً في الحر الشديد نظرة رضا أو ابتسامة وعد من وجه أسعد. وكان غالباً يبخس الحقوق ويطيل على الناس التمني.

وما رأيت أحداً من عائلة العبد قد أفاد من ورائه شيئاً طيلة هذي السنوات التي وقف فيها على رؤوسنا وتحدث في البرلمان نيابة عنا، سوى بعض المجاملات الفارغة في المآتم والأفراح التي طوق بها رؤوس أهلي وأهل البلدة كلهم، لم نحصل على شيء يذكر، وكنت أرى أهلي يحبونه ويكبرونه ويقولون فيه الغزل، قال أولاد عمي إن أسعد له قُبولٌ لا ينكر وأنك لا تسعك سوى الابتسامة في وجهه مهما كان بينك وبينه، وإنه وإن لم يوف بعهده تجاهنا فلسوف يفعل ذات يوم، يوماً ما سيعلن عن محبته واصطفائه لنا من دون الناس لكنه الآن يستحي ويخشى الملامة إن هو جاهر بمحبتنا، و كنا إن ذكرناه في مجلس لنا تبدت في وجوه أعمامي و أبنائهم ميوعة لا تليق بنا، فأعيد عليهم الأسئلة البديهية: «ماذا فعل أسعد من أجلكم؟ أنتم تعادون الناس من أجله، فإن ذُكِرتم لديه تنصل من أفعالكم»، وحين أثور يقوم أحدهم فيربت على كتفي لأجلس، ويبوخ الحديث في التجارة والزرع وقضاء الدين عن المدين من دار العبد. كل بيتٍ من عائلة العبد له كبير وكل فرع عليه كبير وكلنا ننطوي تحت جناح كبير واحد، لذا لا يمكن أن يسمع الناس عن خلاف ينشب بين أخوين منا ونتكتم حتى على المشاجرة بين النسوة ونتدخل كلنا كرجل واحدٍ للإصلاح قبل أن يتفرقَ الأخُ عن أخيه في المال والمصالح، نحن عائلة كبيرة وأبناء أصول نعرف أقاربنا في الصعيد وخارج القطر ونتزاور، وإن سافر ثلاثة منا إلى الخليج أمروا عليهم أكبرهم، ألا ترى أننا عائلة تستحق التقدير، تستحق أن تُحَب لولا أسعد النديم، قم معي إذا سمحت.

– خيراً؟

– سنقف قليلاً في هواء الشرفة.

هذه الأرض التي تراها هناك تحت المئذنة البيضاء دخلت في كاردون المباني منذ شهور قليلة، ستة قراريط تملكها أختي... هي في الأصل وفي الأوراق ملك لزوجها وَرثها عن أمه، ولكن لو شئت أنا أن أبيعها لأي رجلٍ في القرية لم تُعقب عليَّ أختي ولا زوجها، وسيكتب الرجل معي العقد ويسلمني المال آمناً على حقه. أختي وسواها من بنات عمومتي اللائي تزوجن خارج

العائلة ينهضن في بيوتهن مثل الرجال، يعرفن الأصول والعيب والواجب ويعملن بالتجارة، لذا غالباً ما يسلم إليهن الرجل مفاتيح كل شيء لكن على الرغم من ذلك فإن زيجاتهن من خارج العائلة قليلة بل ونادرة حتى.

- ولم؟ هل يحكم العرف عندكم بذلك؟
- من غير مؤاخذة الأولاد جهزوا الغداء.
- لا، أعفني أرجوك، كلمتان أكتبهما وسأنصرف.
- ويقال في البلدة أنك زرتنا وخرجت من غير غداء؟! قم يا أستاذ جلال نستكمل حديثنا مع الأكل.

نحن لا نمنع بناتنا من الزواج خارج العائلة، كان ذلك في الزمن البعيد، لكن الناس يخشون مصاهرتنا ويخافون إن نَهَرَ الرجل امرأته أو ضربها كما يحدث في كل بيت أن يتكاتل عليه العبيد فيهينونه، بالرغم من كوننا – والله شاهد – لم نحجب أبداً ميراثاً عن أخواتنا كما هو دأب الفلاحين في قريتنا ودائماً ما نرد الغاضبات إلى بيوتهن، نحن حتى لا نشترط في أمور المهور والأثاث كبقية الناس، ونقول للخاطب لا تثقل على نفسك وننصحه بتجارة ما، كما نجامل بناتنا بالزيارات والمواسم ونعين أزواجهن على المعايش، قل كل هذا وأكثر وتظل العنوسة هي نصيب كثيرات منهن.

- لابد أن هناك سبباً.
- المشكلة يا سيدي أنهن دميمات.
- يا ساتر!
- فوق ما تتصور.

أنت بالتأكيد تعرف الأستاذ الجنوبي، هو إنسان محترم بلا شك لكنه ونور كانا يشتركان في مراهقة وولع بالنساء، لا أقول أبداً أن أحدهما يورط نفسه في الحرام لكنه شبق لديهما يجعل الواحد منهما محل شبهاتٍ لا تناسب مقامه ويضعه موضعاً لتدقيق النظر، وإن هدأ المجلس ودندنت أم كلثوم بشيء عن اللقاء بعد غياب وحلاوة الحب على كل أحواله كنت تراهما

يمسكان بدفة الحديث ويحكي كل واحدٍ عن مصدر ولعه وسبب هيامه وتورطه مراتٍ في الغرام بلا توبة. وكان في نيتي أن يصبح نور صهراً لي تكليلاً لصداقتنا، ومراعاة لمصلحة كلينا، فحين قدمت إليه عروسه ابتسم في لؤم وانسحب من بيتي كالملدوغ ورغم معرفتي بما جعله يهرب من زواجه من ابنة عمي فقد كنت أحب مناكشته، وسألته عن رأيه كثيراً حتى بلغ به الحرج مداه ودفع أحمد عنه الحرج فقال: «نساؤكم يا شوقي لو دعون الله أن يرزقهن القبح ما أجاب بأتم من ذلك»، فضحكنا وانفجر نور ونام على ظهره من الضحك وقلت: «يخرب بيتك يا أحمد»، هكذا علناً وطيرت العريس من البنت! فقال: «قبحهن ليس سراً على أحد».

- ألم يكن نور متزوجاً؟
- وكان في مشاكل كبيرة مع زوجته الأولى قبل أن يصلح بينهما أولاد الحلال، على كل حال نور ليس أهل عادة ومهما بلغت درجة جمال من تزوجها فإنه سيفر منها في النهاية.
- من الجيد أنك ذكرت هذا، ماذا تقول في المانعة يا حاج شوقي؟
- اسمع يا أستاذ جلال، الخوض في الأعراض صغار لا أحتمله.
- هل باغتهما الناس فعلاً؟
- كل البلدة باتت تعرف أن المباغتة كانت مفبركة ونور كان في القاهرة ليلتئذٍ، رغم ذلك ما زالوا يحتفظون بالشائعة.
- وأسرار؟
- سواء كانت أسرار أم المانعة كلاهما من بنات الناس ولا داعي لزيادة الكلام في ذلك.
- يا حاج شوقي، حديثك وأكلك لا يشبع الواحد منهما، إئذن لي بالانصراف.
- اتكئ على الصبر يا سيدنا الأفندي.
- سامحني، لكننا لا نتحدث عن نور سوى بالصدفة أو بينما تتذكر معارفه ومعارفك.

- أتحسب أن نور الذي عاش بيننا هو نفسه الذي جاء من المدينة، لقد غيرته القرية وأعادت خلقته. وقد اصطفي نور نفراً من القرية أحبهم وعاش بينهم، يجب أن تعرفنا حتى تعرف من عاش بيننا.
- ما زلت تتحدث عنه كولي لله، أنا أرفض هذه الفكرة فلا تفرضها عليَّ أرجوك.
- وأي ولي هو!
- أي ولي ذلك ينشر الحشيش والسُطل بين الناس ويجعل من البلدة غرزة كبيرة!
- كان يجمع الناس، ما كان الناس ليجتمعوا على شيء آخر ولا على رجل آخر.
- وهذا الكلام تقوله لكونك شوقي أم لكونك درويشاً!
- بل لكوني شوقي.

«أبي –رحمة الله عليه– فطن لبغضي الشديد لأسعد النديم في مرحلة مبكرة من عمري، فشجعني على الاهتمام بالدراسة أكثر من أي شيء. أعفاني من التزامات العائلة وأبعدني عن المعارك التي كنا نخوضها كعصبة من الصعايدة المؤجرين للشر لصالح أسعد النديم، تعلل أبي لأهله بصعوبة الدراسة في كلية الحقوق وأبلغهم عن أملي في الالتحاق بالنيابة، قال أبي إن على الإنسان أن يستظل من قساوة الدنيا بسلطانٍ ما، فإن لم يكن ظل الحاج أسعد، فربما ظل وظيفة كبيرة تكون فاتحة خير عليَّ وعلى أهلي. أما بالنسبة لي فقد كان حلم تعييني وكيلاً للنائب العام هو الرهان القائم بيني وبين عائلتي ويمكنك أن تخمن أنني لم أصبح كذلك وأنت تناديني بالحاج شوقي، لم يتخطني التعيين فحسب بل وعلمنا من بعد ذلك أن يد الحاج أسعد النديم هي التي سعت لإقصائي وفتش عن اسمي بين كشوف المقبولين فأطاح بي من الكشف رغم تفوقي في الدراسة. ورفضتُ أنا من بعد ذلك كل الوظائف التي سنحت لي وسمح بها الحاج أسعد، في الضرائب وفي شركة الكهرباء، ولم أوارب من ساعتها في إعلان كراهيتي لأسعد ورفضي

لعبودية العبيد له. وشرع أبي حين يأس من توظفي وأحس بالكبر في نقل كل مهام الكبير إليَّ، من إدارة أموال إلى مخازن غلال، إلى زرع وبهائم. فأمسيتُ تاجر بهائم وفلاحاً ابن جلباب لا ربيب قميص وبنطال، وتقبلتُ ذلك بإباء ولم أطلب من أسعد أي مساعدة، وكان أبي مثلي وأكثر غضبان من أسعد لكنه لم يشأ أن يعلن الخصومة، فلما أوشك منه الموت شاء أبي أن يردني إلى ظل أهلي وظل أسعد، فلم أجرؤ على أن أرد كلمة أبي وانقدت معه صاغراً إلى الدوار وجلست متأدباً عند قدميه وقال أبي لأسعد.

– شوقي ابني فاته التعيين يا حاج ونريده أستاذاً.

ولم أكره رجلاً أو شيئاً في حياتي مثل كرهي لأسعد ولنظرة الشماتة التي حدجني بها.

– وما علاقة نور بكل ذلك؟
– لم تفهم بعد؟! نور كان هو الوعد الرباني، المسمار الذي دقه الله في نعش عمه ثم توالت عليه المطارق والمسامير من كل جانب.

رأيت نور النديم أول مرة في دوار عمه الذي استدعاه على يد خفير ذي شوارب، وكان نور قد خرج لتوه كما بدا الجميع من مرض وهزال فلما رأيناه أشفقنا كلنا من نحوله وخروجه الملفت عن الوجاهة التي تنبغي لرجلٍ مثله، وتغامز الجالسون حتى فطن أسعد، وبدا أن نور سيسقط لو لم يجلسه أحدنا مكانه، فتفسحنا حتى جلس مطوياً على نفسه وخائفاً، حينئذٍ نهره عمه بقسوة على مسمع ومرأى من الجميع، قال:

– كيف تمشي بهذه الهيئة؟
– خيراً يا حاج أسعد... خفيرك هذا لزمني واستعجلني للقائك.
– طلبتك لكلمتين بيننا يا ابن أخي.
– كلامك كله مع المحامي... ولا ترسل من يتبعني، من فضلك.

– يا ابن أخي... يا حبيبي يا ابن أخي... حتى الأعداء يتفاوضون ولا داعي للمحاكم... أحمد الجنوبي سيحضر في أي لحظة الأن... اجلس واشرب الشاي.

ولم يكن ما ادعاه أسعد حقيقياً فلم يكن ينوي إحضار أحمد، فلما جلس نور ظل عمه يتفرسه ويختبر صبره ثم خاطبه أخيراً بفظاظة:

– مرة ثانية لا تخرج حتى تتم هندامك، البس ما يليق بك وبنا، احلق لحيتك، هل بايعت الإخوان يا ابن أخي؟!

واستجلبت الدعابة السمجة عاصفة من الضحك الجبريّ بين الجلوس، تبسمتُ ولم يعقب المسكين، ظل ينقل من بيننا عينه الحالمة كأنما استفاق من سرحانه على ضحكاتنا. ومضى حديثٌ غير قصير في أمور السياسة تداخل فيه كلامنا مع كلام التلفاز، الدولة كانت تكشر عن قوانين جديدة تضمن بها إعادة الناس من الميادين إلى منازلهم وأشغالهم، ونسيان عبط الميادين والشعارات المسجوعة ورأيت حقداً مشابهاً لحقدي يخرج من حدق نور النديم تلقاء عمه الذي كان يتكلم بثقة عن عودة الأحوال لما كانت عليه قبل الثورة، وعن بقائه متربعاً على زعامة القرية، عندئذ تفزز نور وقام متسارعاً ناحية الباب من دون إذن ولا سلام. وأشارت بطانة الحاج عليه بضرورة إبقاء نور تحت الملاحظة حتى لا تحدث المشاكل، أما أنا فقد قلتُ لنفسي: لتحدث المشاكل، وانتظرتُ أول ما يأتينا من أخبار نور. وجاءتنا أخبار عن سهره بصحبة أحمد الجنوبي في مكتبه وفي البستان حتى وقتٍ متأخر من الليل ورفاقه محمد فرحات ونيازي ومرزوق الخولي المقاول والسمسار والحاج زاكي الجمال، وأسر حامل الخبر لأسعد أنهم كانوا قد اعتادوا أن يلفوا الحشيش بكميات صغيرة تكفي للسهرة حول أغنية حلوة وللضحك بلا تدبر ولا تفكير. أياماً عصيبة كانت يا أستاذ جلال والضحك كان شحيحاً وباهظ الكلفة. وعاد أسعد يتأكد من الواشي فأعاد عليه الأسماء وشيئاً من الحديث الذي دار بينهم.

وأظلنا شهر رمضان المبارك متعجلاً علينا كأنه قد تخطى شهرين وفرض نفسه، وكان الشهر حاراً أكثر مما عودنا الله فبدا كأن السماء تستفزنا للغضب أو أن الله غاضبٌ علينا من الأصل وإن صمنا ولو صلينا. السماء كانت عرقانة مثلنا والنخل ساكناً ففتحتُ نافذة البحري أتلمس طراوة عزيزة فلم أجد. وقال شيطاني: «هذا يوم عصيب يدفع الناس للعراك بغير سبب وانتظرت الصياح يأتيني من أي مكان في القرية».

ولم يفاجئني أن يأتي الصياح من بيوت العبيد أولاً، بل على العكس، فإن دماءنا حارة، وأغلب الرجال من المدخنين يضنيهم الصوم، وقد اعتدنا سنوياً في النهار الأول من الشهر الكريم أن نجتمع على شجارٍ يصرخ فيه الجميع ونشيح بأيدينا ولا يفقه أحدنا السبب بين يدي هذا العراك، لكنها تزجية مناسبة لساعات الصيام تعودنا عليها ولا يفطر واحد من المتشاحنين حتى يسترضي أخاه، وربما دعا أيضاً كل من شهد الشجار للإفطار عنده، نحن طيبون وأهل كرم، وفي ذلك اليوم جهزتُ جلباباً مكوياً ومشيت بين بيوت العبيد أتتبعُ أول الصياح، لكني فوجئت أن صاحب المشكلة هو الأستاذ نيازي، الطيب الخلوق، كان يتلاكم مع واحد من أبناء عمومتي، ولما كان نيازي منا وعلينا بحكم أن كلتا أختيه متزوجتان في بيوت العبيد، فقد أبعدنا المتشاحنين أحدهما عن الآخر، ووبخناهما بمودة على أن ننظر في الأمر بعد المغرب في جلسة عائلية لن تضيع فيها الحقوق. واتجهت عائداً لبيتي لولا أن أعادني زئير قوي لمنتحرٍ وحيد وقف على رأس الترعة يؤازر نيازي ويهدد العبيد ويسبنا بكلام تطير فيه الرقاب. حتى ولو كان ذلك المنتحر مجنوناً أو كان ابن أخ أسعد النديم كبير القرية، فقد تجهزت البنادق من فورها وسمعتُ اصطكاك الأسنان والحديد من خلف النوافذ تباعاً، وقفز نور النديم على ظهر سيارة كالمؤذن بالحرب، وأنا كنت مشدوهاً من جرأته ومن جنونه، وكان كثير من رجال القرية ونسائها لا يعرفونه ما زاد الموقف غرابة ودنت من رؤوسنا الشمس أكثر وفارت الدماء، فكان يوماً منكراً. وبعد قليل من الوقت اجتمع لنور النديم أنصارٌ انشقت الأرض عنهم، ورددوا ذات كلامه ثم تعاظم الجنون واجتمع لكل

رجلٍ منهم أهله ينصرونه علينا، وزحموا جانب الترعة بالسيارات وبالحمير والموتوسيكلات وفتحت كل نوافذ القرية فيما بدا أن العبيد سيحاربون القرية كلها ولم نسمع عاقلاً يردد: «اللهم إني صائم».

– وهل نشب العراك؟ حاج شوقي فيما سرحت؟
– لا، سلامتك.

لم ينشب عراك ولا يحزنون، الجميع وقفوا متورطين في الموقف، جاءوا مساندين لنيازي ورأوا عندنا أننا نحب نيازي من أجل قرابته وأخلاقه وسيرة أبيه، لكن المشاكل تحدث، ونيازي رغم حلمه وعقله لم ينضج تماماً وافتعل ذلك الشجار لحقده على زوج أخته لأنه من العبيد، نيازي يكره العبيد ويكره صحبة أبيه من قبل لنا ومحبته للعبيد، حتى أنه زوج فينا كلتا ابنتيه، والناس رأوا حين فهموا ما حدث أن الشأن عائلي ولا داعي للَّجاجه فيه، لكن نور هو الذي أزَّم الموقف بخَطابته وإشارته ناحيتنا بأصابع العيبة، ولقد صدق الناس فينا السوء من قبل أن يروا ثم يحكموا بالعدل، وأنا أتفهم الناس وخوفهم منا وتوجسهم السوء، منك لله يا أسعد، ولم نهدأ من كيدك حتى رمانا ابن أخيك بالمعابة في حشد من الناس أجمعين، و ملت على أحمد الجنوبي فرأيته ورآني نؤثر السلامة و العقل، كلنا سيندم إن تجننت الأحوال. واتفقنا بعدها على المحاكمة بالعدل والقسطاس على كتاب الله في مجلس يحضره الأعيان والأحلام وأهل الرأي وأهل الحزم وشيوخ مبجلون من الصعيد ومن سيناء، فأعجب أحمد بما عددته عليه، وكان ذكياً فبلَّغ الناس وانسحب بلطفٍ وهو يُسر في أذن نور بالنتيجة.

ماذا يحدث؟ من نور النديم هذا وما مشكلته معنا؟ ولم أفهم غرضه من كل ذلك سوى في الليلة التالية في مندرة عمي حسنين العبد الكبيرة التي استوعبت من أهل الحكم رجالات تهتز لهيبتهم الأرض، ولا يمكنك مخاطبة أحدهم إلا بعد الاستئذان للكلام، أهل الحق والقانون الذي يرضي الله بعيداً عن فساد الأوراق والمحامين ورشوة المحضرين وأمناء الشرطة، حقٌ صرف له ولرجاله هيبتهم، وتباحثنا في أمر نيازي وقام أحمد الجنوبي محامياً

وشرح الوقائع، وأحمد يا أستاذ رجل شريف مُفَوه يكسب الاحترام بسهولة، ويأسرك بلطفه وأدبه، والأمر الذي لم يكن نيازي الخلوق يعرفه أنه كان مستحقاً لا صاحب حق، لكننا قررنا فيما بيننا، نحن العبيد، أن نحق أنفسنا له إكراماً لعظام والده الغالية ولحق أختيه على العائلة، وحكم له المجلس بمائة ألف جنيه تنازل عنها نيازي في خُيلاء فارغة إلى بيت المال، وتصافح الضارب والمضروب وهما من عيالنا في كل الأحوال، وما كان الناس سيصدقون أبداً أن رجلاً في أدب نيازي أخطأ ونحن الذين كان معنا الحق خاصة وقد جاء للمندرة أسعد النديم وقد اختار الجلوس في ناحيتنا، وبعد الحكم مال أسعد النديم على كبيرنا وسأله إن كان في حاجة للمال فقال له عمي إن الأمور هينة، وإننا نوفرك يا حاج لما هو أكبر، ولا أدري لماذا كانوا يوقرونه ويكبرونه؟ وهَمَّ ساعتها أسعد بالانصراف لكن الشياطين غمزت نور النديم في عقله فقام خطيباً في الناس مرة ثانية وقال: «يا أهل الحق، يا أهل العدل إن هذا عمي أسعد النديم قد نهب حقي ووقف على أرضه وأرضي، حرمني ميراثي الذي عن جدي ومنع ميراثي من أمي، واستكبر عليَّ بسلطانه، وعزني في الخطاب. احكموا بيني وبينه بالقسطاس المبين واستدعوا المسَّاحين يضربون الحدائد في الأرض وإلا قال الناس ضاع العدل من الناس وخاف أهل الحكمة من أهل السلطان». حين ردَّدَ نور النديم ما ردده عرفت على الفور السبب الحقيقي لتلك الصدفة التي جمعتنا كلنا ذلك اليوم، مَكَرَ نور بعمه وورطنا في الأمر ليكتمل له الحشد المرغوب للشهادة على عمه، ولم أحنق بل روعني مبلغ ذكاء هذا الولد ومحبة أصحابه له، فقد قام أسعد النديم محتداً والحدة عيب في حق الكبير، وقام يشرح المقال بهامته الطويلة ويشيح بيديه حتى أشفق الناس لرؤيته على تلك الحال واستلذوا خفية بتظلم أسعد للحكام واستمهالهم ليشرح الأمر. وقال أسعد: «يا أهل الحكمة إن ابن أخي مجنون فلا تؤاخذوه على كلامه، لقد أتلف من قبل كل ما تحصل عليه من مالٍ في النساء والميسر والخمر الأصفر والأحمر، وترك بيته وزوجته من غير إذنٍ ولا تفسير، ويغيب عنا بالسنين والشهور ثم يعود بنفس الكلام كي نسترضي جنونه بمبلغ كبير فيبعثره بعيداً ثم يعود، المجنون حتى ولو شبَّ فهو في وصاية وليه، وأنا وليه رغماً عن طيشه وسفهه، سأسلم كل حقوقه لابنه

حينما يشب ويستطيع الحساب». ووقف الحكام بعباءاتهم المهيبة وعصيهم القوية وطلبوا من الناس من يشهد بسلامة عقل نور النديم و نصاحته في أمور المال والبيع و الشراء ووعيه بالحلال والحرام، فقام أحمد الجنوبي وقام نيازي ووقف فرحات وتردد زاكي قليلاً ثم نهض مؤازراً لرأي أحمد، فرغم حقد زاكي على أسعد النديم إلا أن زاكي كان يصدق بجنون نور، ربما منذ اللحظة الأولى التي رآه فيها وظل على رأيه، وكنت أسأله أحياناً إن تشاركنا في طريق أو هدأ لنا مجلسٌ عن رأيه في نور، زاكي يعرف الناس ويميزهم بحذق، فكان يقول عنه: «عيل مجنون كلكم تريدون الفائدة من ورائه فمجدتموه لتهبلونه أكثر مما هو أهبل»، رغم ذلك قام زاكي ليلتها يشهد ويحلف على المصحف مرغماً ومتأذياً أن نور النديم عاقل. وفي النهار مشيتُ إلى أسعد واستأذنت للدخول عليه فرأيته مجتمعاً ببطانته يتشاورون في نور وصحبه. وطلب أسعد من الجالسين أن يتطوع أحدهم لمجالسة نور ونقل أخباره فتطوع الجميع للوشاية وقلت لهم: «إنه يعرفكم جميعاً بالاسم وسيحذر من الكلام أمامكم»، وطلبت الإذن من أسعد بمجالسة نور ابن أخيه فأومأ موافقاً وعاد يتنفس غيظاً وغلاً.

مر رمضان على خير، وفي وقفة العيد عرفتُ بنية أحمد ونور بالسهر في البستان فاشتريت حشيشة حلوة تكفي لإسعاد القرية كلها إن جلست معنا، ورأى الأصحاب كلهم عدا نيازي أنني لا غبار على صحبتي، وقضينا في البستان وغيره ليالي نشهد على جمالها كلما عنت للخاطر، يحكي ونتحاكى ونغني، فأحببتهم وطمئنت أسعد من ناحيتهم، لا تتعجب يا أستاذ جلال، نور كان ذكياً للغاية وكان يرسم نهاية محكمة لعمه في جلسات الحشيش، وكان يخدعك عن ذكائه بطفولته أحياناً وسرعة غضبه، وكان يعيش داخل عقله أكثر مما يجلس إلينا أو يحكي حكايات العفاريت، وأصابع الحشيش المفرية في التبغ كانت هي الموسيقى التي تصاحبه وتمهد لكلامه. وقد أفتانا الشيخ فرحات بأن الحشيش مفترٌ لا مسكر. واحلوت السهرات في وقتٍ عزَّ فيه الضحك. وأحببت نور وعرفته أكثر من غيره، وأقول بأنه أحبني كمحبته للجنوبي وفرحات ونيازي وأحياناً أكثر. كان صاحبي يا جدع، وكنت أراه ذكياً وطيباً وقلبه جامد لا يخشى أحداً إلا الله وسخياً ووليا يستحق بناء مقام،

لولاه ما ركع أسعد لحق ولا أحس بالحرج ولولاه ما تنفست هذه القرية ولماتت كمداً.

– شرفت بالحديث إليك يا حاج شوقي.

دكانة الحكايات...

(أنا الذي هو أنا)

كلا، لا أذكر بالتحديد اليوم الذي بدأ الناس يدعونني فيه نور النديم، ولا كيف ولا متى تحولت هذه الخرافة إلى واقعٍ يصعب التنصل منه، كل ما أذكره هو دخولي طواعية إلى دكانة الحكاياتٍ ذات ليلة. احتجتُ أن أقترب من بطل روايتي الجديدة وأنا أتحدث مع الذين عاصروا نور النديم وصاحبوه أو حتى رأوه، فأخذني الأستاذ محمد فرحات من يدي حتى مكتب الأستاذ أحمد الجنوبي المحامي. كانت الليلة ربيعية برائحة الشتاء، فإن التراب المندى بآخر نثرات المطر قد أثقل نعلي وبرقش عباءة الأستاذ فرحات من الخلف بنقاط متناثرة، وكانت رائحة الطريق تضوع بالخصوبة وسريان الحياة رغم أنف الجميع حين بلل الشتاء أول الربيع وفرَّ. حينما وصلنا إلى مكتب الأستاذ ووقفنا عند الباب ابتسم فرحات ونشر عباءته فخرجتُ منها، وقدمني إلى صديقه المقرب جداً أحمد الجنوبي، الذي كان في الوقت نفسه محامي المقتول نور النديم ومحل ثقته، وكانت خطتي أن نتعارف ونتصاحب ونغوص في مواضيع ونخرج منها حتى يكون بوسعي أن أسأل عن نور عرضاً كأنني لا أقصد إلى ذلك. لكني لا أذكر أيضاً أول كلمات تعارف جرت بيني وبين أحمد الجنوبي، وأتذكر أنني وجدته طيب المعشر ومن السهل التورط في صداقته مثل صاحبه فرحات. بل إن وجود الجنوبي بيني وبين فرحات قد ذوب الفواصل عن ثلاثتنا، وبدأنا في سرد ما نخجل منه

ضاحكين. وتعرفتُ على أدق أسرار حياتهما، وكلمة أدق أشير بها خاصة إلى ما تظنونه.

في صداقات الريف يمكنك أن تُسِرَّ لصاحبك بكل شيء عن سريرك، بل وعيبٌ عليك إن لم تفعل، ثم ظهرت أولى سجائر الحشيش بين يدي الجنوبي وهو يستأذن منا، فنطَّ لها فرحات ورقص "عشرة بلدي" خلال ما أشعلها، في تلك الليلة أظهر مواهباً كثيرة وبدا ظريفاً حين قلد الشيخ حسني في «الكيت كات»، وعبد الحليم حافظ في «قارئة الفنجان»، وأدى منولوجاً من مسرحية «مغامرة رأس المملوك جابر»، وفي نهاية المنولوج تحول إليَّ قائلاً:

– وأنت يا صاحبي سوف تكتب عني... هذا حقي عليك... افهم ما دمت صادقتنا أو تنوي ذلك فإننا لا نترك أصدقائنا أبداً ولا نخزيهم... ونشهد أمام الله والناس بالحق... لكننا نشهد لأصحابنا بالزور، والله يغفر فإنه يعلم محبتنا لمن نصادق... أما تراني أهلاً لبطولة رواية؟!... أنظر إليّ.

قال أحمد خارجاً لتوه من السُطل:

– بالنسبة لي وللقانون فإن نور النديم حي يرزق، ولا أجرؤ على اتهام أسعد النديم بشيء ضده... إن كانت زوج نور نفسها أشهرت للناس بأنه مازال حياً أفأقول أنا...؟!، وعندي أوراقه وقضاياه ما زلت أتابعها كمحامٍ وكصديق عرفته وارتحت له واطمئن لي... لكن ينقصني دائماً توقيعه على الأوراق المهمة... القضايا التي وكلني بها كلها تافهة وكان في وسعي أن أرد إليه كامل حقوقه من أسعد النديم... لكن نور اختفي... هل تعلم أنني فكرت في تزوير توقيعه؟ ليس من أجل نفسي لكن لكونه صاحبي وأنا لا أخزي صاحبي ولا أخذله أبداً...، لكن ذلك كان من شأنه أن يفسد كل شيء... لا بد لنور النديم أن يظهر بنفسه... ليته يعود.

قلت معترضاً:

- لكنك تعلم حقيقة كونه قُتل.
- أخشى أن أصدق الشائعات، ساعتها سيموت صاحبي بقرار مني، فهل أقتل صاحبي؟!.

وحكى لنا الجنوبي كلاماً كثيراً عن نور النديم وعن سواه ممن ائتمنوه على قضاياهم، كان الجنوبي إذا بدأ كلامه وهو في حال السُطل إن كنا نقضي السهرة عنده في المكتب – يخطر في جلال نحو دولاب القضايا ويشير إلى الملفات قائلاً:

- داخل هذا الدولاب حكايات القرية كلها وأنا حارس عليها.
- والجنوبي بشهادة الناس كلهم وشهادتي أنا سيد الحكايات هو حكاء ماهر لا يشق له غبار ويسبي المسامع أنصحكم أن تستمعوا لبعض حكاياته

الحكاية الأولى

قال الراوي يا سادة يا كرام: «العم خان الأمانة، واستحل إرث اليتيم. كان هناك أخوان، وكان عمٌ لهما قد بنى كوخاً لبهائمه في فاصل الحدين بينه وبين ابني أخيه، وتزحزح بالجدران قدر سهمين ومترين ومترين. واعتمد في ظلمه على حياء الولدين من العم، وعطل كلام الحساب بالبكاء على العظام والدم ومرت السنوات في جدال، وقيل وقال... وجاء من المدينة ابن أخيه الأكبر عليه زي الجيش، وخدوده تبكُّ دماً من الصبا والفتوة، وكان السبع مرسوماً على زنده، فمشى به إلى عمه وقال يا عمي: «حقنا بالعدل نطلب، ومالنا في خصامك حاجة... أحضر المساح يضرب الحديد بيننا وليكتب ذوو عدل، بيننا وبينك»، وقال العم:

- الأرض أرضي والمال مالي.
- ابن الأخ: «والظلم يوم القيامة ظلمات يا عم».

– العم: «فتش عن مالك بعيداً عني... أو بلغ العسكري بشكايتك».

وارتفعت الفؤوس يومئذٍ والعصي. وقال الطبيب الذي كتب التقرير حين رأى ما رأى وفتش في الجروح عمن جار أولاً وافترى، قال: «سحجات في صدر الولد، وفي ظهر أمه، وخدوش في رقبته وكدمةٌ في ظهر عمه». وقال العسكري المبلغ: «لا نحن شهدنا ولا الناس قد شهدوا، إلا ما كان من ابن الأخ الأصغر»، أكد الكلام وقال: «ضرب عمي أخي وأمي بالفأس وبالعصا وبالسكين، وقالت قلوب المستمعين: «يا عين يا عين يا عين»، وقال العقل بعد حين: «أما الأخ الأصغر فقد زور فيما شهد به وأقسم عليه، إذ كيف يرى أمه وأخاه يضربان فلا يمنعهما من العم ولا يتحرك، فلو نالته طعنة حينها أو صفعة لقلنا حضر الواقعة... لكنه قد شهد في هوادة وحكى عن صرخات أمه في بلادة. ولم يذكره العم في المحضر الذي ذكر فيه أخاه الأكبر. وأما قولة الطبيب «سحجات»، فإنها تنفي العصا والسكين، فإنهما يصنعان جروحاً أو كدمات. فأغلب الظن أن الولد أخذ قوالح الذرة الجافة كما تعود الفلاحون، وسحج صدره مراتٍ ومرات، ثم عرى الشقي ظهر أمه وبالقوالح جلخه. أما الخدوش في رقبة الولد الأكبر فهي ولا شك من أظافر العم حين اضطره ابن أخيه الفتيّ للجوء إلى الحائط، وكان في الجدار وتدٌ يعلق عليه الجلباب وقفة الخبز، فغمز الوتد ظهر العم... وكم في الحبس مظاليم والله سميع عليم».

الحكاية الثانية

قال الراوي يا سادة يا كرام، وما أحلى الكلام، بذكر النبي عليه الصلاة والسلام:

«البنت بيضاء كانت، وعيونها سوداء مكحولة بكحل الله، وخدودها حمراء كما الورد الأحمر البلدي. أما زوجها فكان عريضاً فارع الطول، ورزقه في الأرض موفور، وكان من بينهما رضيعة بيضاء كأمها، أو ككوب اللبن الصابح تبكي على صدر أمها التي داخت بها بين مكاتب المحامين وبين قاعات المحاكم تطلب الطلاق من زوجها.

وتدخل أولاد الأصول مرة بعد مرة، وتطفل أولاد الحرام ألف مرة، فما عرفوا وما رأوا عيباً يصيب الزوجين، إلا كما يقال دائماً للورد يا أحمر الخدين، وتكتمت المرأة سرها عن أبيها وأمها وبكت في حجر وحدتها. وجاء الزوج في عصابة من أهله عليهم الجلابيب والطواقي، وفي أيديهم عصي وطبنجات. فوقف لهم أهل الزوجة بالمثل، فكادت البيوت والترع أن تحترق ويكثر القتل والجرح، لولا أن استشاروا فارتضوا مجلساً للعدل. ورأى الكبار وأهل الرأي كل الحق مع الزوج الأب، وأوشكوا أن يردوا إليه امرأته رغماً عنها، لكن الله شاء أن ينصر الأم فأنطق الرضيعة في المهد، وقالت: «أبي دائم الشك في أمي يراقبها، كنتُ أراه يتبعها وهي تحملني إلى كتفها، إن مشت للسوق أو إلى بيت جدتي أمها، أو إن حملت الأواني على رأسها لتغسلها في الترعة. كانت إذا عادت من خارج البيت يضربها، ويحرك خصره في غيظٍ مقلداً مشيتها، وأمي يا ناس كما أسمع من الناس وأرى هي أجمل من قد لبس العباية الزبدة، الريح تغافلها وتحبك العباءة على مفاتنها، وما ذنب أمي إذا كان صدرها كحبتي المانجو، وخصرها منحوتٌ كالفرس، ولها كفلين كالقلاع، أفيكون أبي فارسها؟!. ويقول لها أبي: «ضميري يحدثني أن غيري يركبك»، ويسبها: «يا ابنة... ويا ابنة...»، لكن أمي صبرت وتكتمت ولم تشأ فضيحة الزوج كي لا تلحقنا المعرة، والناس يا ناس لا يأمنون المرأة الحلوة. وقال العسكري: «حلوا مشاكلكم في البيوت واخزوا الشيطان اللعين»، وقالت قلوب السامعين: «يا عين يا عين يا عين»، وقال العقل بعد حين: «كأننا لم نر ولم نسمع، أما والله عجائب وبدع، ومنذ متى ينطق الذي ما زال يرضع، ليس للعيال بيننا أبداً شهادة، والمرأة في ظل زوجها أعف لها»، ثم كتموا فم الرضيعة بالبزازة. وقال صوتٌ لم يسمعه من جلس في أخر القاعة، له أسنان صفرٌ ونفس كريه: «ياهوه...أنا رأيت الأم في صحبة المحامي هناك في البندر يسيقها عصير القصب، وكانت تضحك له ويضحك لها، بل ربما وربما وربما». لكن الكبار ضربوا صاحب النفس الكريه على حبة قلبه... وربطوا الأم الشابة في يد زوجها... وكم في الحبس مظاليم والله سميع عليم».

الحكاية الثالثة

«أصبح زاكي الجمال ظلاً لأحمد الجنوبي، أو كان أحمد كظله، خِلان لا يفترقان أبداً كلما كان اللقاء ممكناً، والا فإن زاكي كان يود لو ذهب أحمد صباحاً معه إلى الحقل أو ذهب هو معه إلى المحكمة. لكن الذي كان يحدث دائماً، أنه عند نطقة أذان المغرب يمسي الجنوبي موكلاً في كل مشاكل زاكي التي لا تنتهي أبداً. وقد أفاد كلاهما من صاحبه كما أحبه، أما أحمد فقد امتلأ مكتبه بالقضايا وعرفه الناس عبر زاكي، وأما زاكي فقد هاب الناس جانبه فهو صاحب المحامي العقر الذي لا يخسر أبداً، والحق أن قضايا زاكي الكثيرة هي التي جعلت أحمد يتمرس ويقرأ في القوانين حتى برع فيها، واشتري سيارة فيات حمراء موديل 28، وابتنى بيتاً من ثلاثة طوابق واشترى بستاناً. ولكن شتان بين الصاحبين في أعين الناس، فأحمد كان بحبوحاً وسمحاً لا يدقق في الحساب، ويترك أجر عمله للأرملة والمسكين، ويغلبه الحياء مع الفلاح البخيل، ويحب الضحك والسهر مع الناس. أما زاكي فما كان يبدو للناس إلا مشغولاً بالدنيا وحريصاً عليها... وقالوا إن زاكي ما كان ليفكر في قضاء مناسك العمرة في شهر رمضان لولا أن أحمد الجنوبي كان قد أزمع العمرة ونواها ولم يخبر بنيته زاكي، فلما علم زاكي من الناس، لام أحمد وقال له رجلي على رجلك أو قبلها واشترى جلباباً أبيض وحلق رأسه. وتدخل الناس فيما لله، وفتشوا في النوايا فقال قائلهم: «زاكي حريص وخواف يخشى إن غاب أحمد عن عينه لحظة، أن يوسوس الشيطان لأحمد فيبيع لنفسه ولغيره بالتوكيل العام ملك زاكي وأرضه فهو ما قصد العمرة لله». وقال أحمد لمن فاتحه في الأمر: «اتق الله، زاكي ما كان أبداً بخيلاً ولا شكاكاً، وهذا الكلام من حسد الحاسدين، زاكي يغدق على كل أهله وصحبه ويغدق على من أحبه، لكنه يمنع ماله عن المتنطعين. أما في أمور البيع والشراء فهو صعب ولا أنكر»، وكل ما في الأمر أن زاكي قد اعتاد الطمأنينة في وجود أحمد، وغياب أحمد شمسين عن زاكي يحزنه ويقلقه دونما سبب. وسافرا معاً واعتمرا في شهر رمضان المبارك الذي عمرته كما قال النبي عليه الصلاة والسلام تعدل أجر حجة مبرورة تامة بإذن الله، فلما اطمأن بهما

المقام في مدينة النبي (ﷺ) تلفن كل واحدٍ لأهله يسأل عن أخبارهم فاستُقبِلَ زاكي الصراخ من حنك زوجه أم عياله: «البهائم كلها سرقت يا زاكي يا أبا محمود». «سرقت؟ سرقت! وكيف سرقت؟!»، وقال العسكري حال سؤاله: «ما شهدنا شيئاً وما شهد الناس»، وقال: «وجدنا آثار أقدام متسخة بطين الزريبة وروثها على بلاطات وسط الدار يا زاكي». وقال الناس كلاماً كثيراً في هذا الشأن، منهم من انتحى بصاحبه وأسرَّ إليه: «أقطع ذراعي وأحلق شنبي، وألبس لبس امرأة إن لم يكن أسعد النديم هو الذي أغرى اللصوص بزاكي وعرفهم بيته، فزاكي وأسعد نِدَّان في الثراء ولا يبجل زاكي أسعد ولا يشركه في أمره رغم قرابة زوج زاكي من أسعد النديم، لكن زاكي نفسه دائماً من بطنه ورأيُه من رأسه، ولا يأمن سوى مشورة أحمد الجنوبي ورأيه». ومنهم من قال: «زاكي يا جدع ألف كاره له وحاسد وعدو»، أما زاكي فقد صبر لمصابه وصبر لما يقال... حتى قيل إنه سكت لما علم بأن السارق ربما كان من داخل البيت... باعوا البهائم في غيابه لزعمهم أن زاكي يقتر عليهم ولا يشتري للعيال سيارات فارهة شأن من هو أقل ثراءً منهم، وقال العقل: «اسكت يا زاكي إن بعض الظن إثم والله ستير حليم».

هكذا دخلتُ بمحص إرادتي وشغفي في دكانة الحكايات، وصاحبت أحمد فرأيته رؤوفاً بالناس مشغولاً بهم يحكم في المال، ويصلح بين الزوجين والجارين والأخوين، وكنت أرصد أولاً من دون أن أتكلم، وكنت كلما توثقت معرفتي بمشاكل الناس زاد ولعي بعالم القرية وقربي من العالم الذي ولجه نور النديم قبلي ثم فر على ما يشاع، أو أنه قتل. كانت الملفات داخل الخزانة بالفعل تنطوي على قرية كاملة، فتغير حجم الصفحة التي بدأت روايتي فيها فأصبحت بحجم قرية بناسها وبيوتها، فانحرف القلم عن كتابة روايتي إلى رغبة أضمرتها في كتابة أقدار الناس من جديد. لكن ذلك ما كان ينبغي لي حتى يعرفني الناس، وقد أبقاني كلٌ من فرحات والجنوبي ونيازي سراً على الناس حتى ذلك الحين، حتى تهيئت لي درايةٌ كافية بالبلدة قرر ثلاثتهم دفعي إلى الناس في سهرة حلوة في بستان أحمد... وكان البستان مسيجاً بأشجار مسك الليل والورد والفل، وتينٌ وتوتٌ وعنبٌ، فما ترى

العين المتطفلة من الخارج صحبة الجالسين إلى الحكايات، فلما حكيت لهم آثروا ما عندي على ما عندهم واستزادوا منه، فإن كان الحشيش أسطلهم فلي أن أقول بأنني أسكرتهم، وتوهمت نفسي بعد حين حاكماً على ناس القرية من دون منصب رسمي، وينافسني القدر وحده في كتابة حكاياتهم، ومن دون هذا القدر مخاوفهم ومخاوفي من أسعد النديم. و بعد انتهاء السهرة وجدتهم يدعونني سُطَلاً باسم نور النديم، فأكدتُ عليهم أنني لست هو، إنما أكتب فقط حكايته وأسألكم عنها، ولم تفلح اعتراضاتي في دفع تلك الهوية اللزجة عني، كانوا يضحكون لكلامي ويضيع الجد في الهذر حتى غضبتُ، لكن فرحات قد غمز لي بعينه وضغط الجنوبي بأسنانه على شفته السفلي كي لا أفوت على الناس سطلهم، ثم بدأوا هم أنفسهم يدعونني بنور ولم تكن أول مرة، فانتظرتُ أن يجمعني مجلسٌ بهم فأسأل عن سبب ندائهم علي بهذا الاسم، ومما زاد الطين بلَّة أنه قد أصابني رمدٌ ربيعي فاحمرت عيني شيئاً قليلاً، وتذكرت كلام العفريت الذي مشى معي عند الترعة وتوجست شراً.

زاكي الجمال

كُنَّا نسمع عن نور النديم، ولم نره أبداً، أخباراً عزيزة مثل لبن المسمار منذ أن سافر عند أخواله وهو غلامٌ دون العاشرة. منذ ذلك الوقت وأخباره مختلطة مع الشائعات، فمن قال إنه عاش في القاهرة لم يره، ومن قال إنه أتمَّ دراسته في الخارج لم يره أيضاً، وبحكم أن زوجي قريبة للحاج أسعد النديم فقد كانت تعرف عن نور ما يقوله عمه. وأسعد كان صموتاً وشحيح الكلام في هذا الشأن بالذات، حتى قالوا مرة أنه بالقرية ومعه زوجة وأسكنهما أسعد في فيلا تحيط بها عشرة أفدنة من شجر الليمون المتشابك، ولها مدخلٌ وحيد من خارج القرية، وكان قد أعدها لضيوفه من الوزراء والساسة الكبار حتى لا يزعجهم أحد، ولا يتطفل على مقامهم. وبحسب كلام زوجي فإن أسعد استقبل نور وزوجه ليلاً، وحبسهم عن الناس في تلك الفيلا في عزلة لا يشرخُها سوى تردد الخدم عليهما بصواني الطعام وشخشخة الكلاب في أشجار الليمون. وأشيع أن نور طالب عمه بكامل ميراثه عن جده وعن أمه وهي أراضٍ وعقارات كثيرة، وميراث نور عن أمه وحدها خمسون فداناً أفرجت عنها قوانين الإصلاح، لكن ظل أسعد واقفاً عليها بدعوى أنه يدير أملاك ابن أخيه المسافر الأفندي الذي لا يفقه في أمور الزراعة، وقلنا آمين هو حر مع ابن أخيه.

فجأة اختفى نور النديم وانقطع أثره، وسمعت أشجار الليمون صراخ زوجه ونحيبها عليه، ومشت في الناس شائعاتٌ أن أسعد قتل نور الذي طالب عمه بحقوقه، وتضخمت الشائعات حتى قالوا إن نوراً أراد أن ينافس عمه على مقعد البرلمان فذبحه. واضطر أسعد حينها إلى إظهار زوج ابن أخيه وكانت تحملُ رضيعاً أحمر اللون أزرق العينين حملته زوجي عنها، وربتت عليها وفعل بقية النسوة، فقالت المسكينة كلاماً عجباً: إن نور ما جاء بها إلى القرية إلا ليحبسها هي وصغيرها في عالم بعيد عنه وعن سلوكه

المعيب. وقالت إنه سكير ومجنون، وقالت: إنه بصباصٌ ومفتون، وقالت وقالت...، ثم أطرقت حين دخل عليهن أسعد، وتناولت صغيرها بإشفاقٍ ولهفة وضمته لصدرها، هكذا أخبرتني امرأتي وقالت أم الرضيع: «لولا أن الحاج أسعد يحرس أموالنا إذاً لضيعها نور». ورفعت بياض عينها إليه بحذر وتبجيل فقال أسعد: «ابقي معنا يا ابنتي، اسكني الدوار معي أنتِ وولدك حتى يرد الله نوراً لرشده» فبكت شاكرة وقالت: «سأعيش عند جدي لأمي في المنصورة، رجل كبير ويستحق الرعاية»، ثم ذابت وانقطعت سيرتهم.

وإن تسألني أنا يا أستاذ أخبرك أن الشائعات لم تكن كلها كاذبة لأن نور خلال فترة إقامته الصغيرة في القرية تسلل من عمه ووكل محامياً طيباً اسمه أحمد الجنوبي، وصارحه بخوفه من بطش عمه. كان ذلك منذ عشر سنوات أو أدنى قليلاً... وجه نور كان وجه الشائعات ولم يره أحد حتى حل بالقرية مرة أخرى كرجلٍ غريب وسكن في دارٍ مؤجرة، ثم عُرِفَ بملازمته لمحمد فرحات وأحمد الجنوبي ونيازي الفخراني، زينة شباب القرية، وحرصهم عليه كأخٍ شقيق. فجالسناه وصادقناه بضمانة هؤلاء الثلاثة، وما أظنهم إلا قد خدعوا فيه، نور النديم مجنون وأحلف على ذلك وأضع يدي على كتاب الله.

أما نيازي فهو جلباب أبيض نظيف وابن أحسن الناس أصلاً وسيرة، إن قال المؤذن: «الله أكبر»، وجل قلبه وترك ما في يديه خائفاً حيران، أغلق دكانته وامتثل لله في الصف الأول، وما هو بالذي يسعى لحسن السيرة ولا بالذي يسترق النظر ويتأخر عن الواجب، يهئ في الأفراح، ويرحل خفيفاً، ويجلس للقرآن في سرادق العزاء، رجلٌ كريمٌ هو، وشابٌ حلوٌ وحسن النكتة بين صحبه، لكننا بتنا نستحي من التهتك في النكات أمامه. أنا أكبُرُ نيازي بعشرين عاماً وأشعر دائماً أنه يكبرني، وعقله راجحٌ عن عقلي، ونيازي تاجرٌ شاطر يزن الناس بدقة، ويعرفهم من قبل أن يتكلموا. رغم ذلك، وذلك من أسباب حيرتي يا أستاذ، فقد أحب نوراً ولزمه وكرر كلامه كما يكرر الرجل كلام الحكماء وتمسك به كما يربط الدم بين الأخوين وكما تربط العشرة الطويلة بين أصحاب عُمْر.

سامحني يا أستاذ فأنا ما زلت عاجزاً عن فهم الطريقة التي خدع بها عقولهم، فحين جالسته لم أرَ فيه غير عيل أهبل ومغرور، يخيل إليه إنما ينطق بالحكمة بينما هو يهذي هذياناً لا حدود له، وكانوا يهزون له رؤوسهم كالمسحورين.

والذي لا أشكُ فيه لحظة هو أحمد الجنوبي، وأحمد في كلمتين ذكي طيب، وطيب ذكي، لا يمكنك أن تخدعه لكنه يترك كل شيء بالتسامح العاقل، أحمد هو الولد الأنجب في هذه القرية كلنا نثق فيه ونبجله لنزاهته ورجاحة عقله، حتى أعداؤه يعلمون أنه لن يحاربهم إلا بشرف وغالباً ما ينتصر بخفة روح ووجاهة وظرف يأسر القلوب. من يكره أحمد يكره العدل، وقد تمرَّن على المحاماة فوق كيمان الرتش وكان أستاذه لؤم الفلاحين وزوغانهم عن الحقيقة. أحمد يزن الناس بنظرة واحدة من خلف نظارته الرفيعة، رغم ذلك فقد لازم نوراً واصطفى عقله دون الجميع، وحكى وأعاد على الناس هذيان نور النديم الذي طال القانون والشريعة ولم يترك كلمةً تمر من أمامه إلا أفتى فيها بهطل، فترى أحمد يبتسم لحديث نور أياً ما كان ويُسكت له الجالسين، ويُؤَمن على كلامه، ويشد على يديه. أنا وبعض الجالسين كنا نستثقل ريح نور، ولا نعبأ بفذلكته، إنما نجامل أصحابنا بالابتسام له وإظهار الاهتمام، فللصداقة تكاليف مضنية في أحيانٍ ليست قليلة. وأحمد هو أخي الأصغر، وسِرّي وصاحبي، فكنت أرى جلسات الحشيش في بستانه ستضر بسمعته، وصحبته لنور لن تجلب عليه سوى المشاكل. ما لأحمد ومقاضاته لأسعد النديم. تلك بوابةُ شرٍ كان عليه أن يتحصف قبل أن يطرقها.

أقول لنفسي ربما خجل أحمد أن يقال في القرية عنه أنه ترك الحق خوفاً من بطش أسعد. فلدى أحمد من سيرة والده الأستاذ عباس ما يمنعه من الاعتراف بالخوف، كان أبوه رجلاً عفياً وشريفاً ووجيهاً، يفوق أحمد ذاته، بلا مؤاخذة كان وجه الأستاذ عباس مدوراً كالقمر وذراعه غليظاً، وصدره عريضٌ مثل جذع التوتة الصبية، وليلة أن أغرق أسعد لدار الجنوبي زرعتهم وأتلف محصول فدادينهم الثلاثة، ذلك كان في الزمن

البعيد، مشى عباس الجنوبي إلى غيط أسعد وفتح فيه الطلمبة البحاري فأغرق ثلاثة أفدنة ونصف، ولم يجد أسعد بين رجال عائلته أو من بطانته من يتصدى للأستاذ عباس الجنوبي، وحاول بعض السفهاء من عائلة العبد التعرض لذلك الرجل الشهم، فنقرزهم بالعصا وركل مؤخراتهم بعيداً عن بيته وأهله، كان مدرساً شديداً تحت عصاه ينطق الأبكم ويجيد الجمع والطرح والحساب، لكنه كان يعفى الفقراء من فلوس الدرس و يجامل أقاربه وصحبه في عيالهم الأشقياء. كان كالسبع، وما أماته إلا ثقته الزائدة في عافيته، لمَّا وضع الأساسات المسلحة احتاج إلى أنفار يساعدونه في ملأ الفراغات بالرتش، ولم يستدع أحداً، قام بكل العمل وحده في نصف نهار ولم يتعب لكنه بالليل آلمته رقبته وفى الصباح كتب له الطبيب حقنة تسكن الألم فلمست أعصابه بالخطأ وأردته شاباً، دون الأربعين مات، دون المرض ودون السمعة السيئة. ثم إن أحمد ليس له عافية أبيه، ولا الزمن هو الزمن، يا أستاذ كيف أقنعه نور بالإقدام على الترشح للبرلمان؟ إن كنتُ أنا نفسي لم تخطر الفكرة على خيالي، ولدَيَّ من الأهل والمال ما يعينني على الأمر. دعك يا أستاذ مما آلت إليه الأمور فحتى بعدما صارت كلها إلى صالح أحمد، الآن يبقى اقتحام مثل هذا الأمر منذ البداية سلوكاً طائشاً مثل حك أنف الشيطان. الأمرُ عند أسعد حياةٌ وموت، والرجل غويطٌ قوي الشوكة، وإن بعضاً ممن جالسوا أحمد ونور نقلوا الكلام بحذافيره إلى مجلس أسعد النديم. وقد حيرني تمهُّلُ أسعد عن التنكيل بهما وصبره على سخرية نور منه ومن أهله في الحواديت التي كان يقصها على الجالسين. لكنى لم أشكّ لحظة كون أسعد يفتل الحبل بيديه المعروقتين قديمتي البطش، ويملي لهما حتى إذا حانت لحظة انتقامه يستحي من يطلب منه المغفرة. فلولا أن نوراً قد عاد بالفعل إلى القرية ورأيناه يمشي على قدميه لصدقت الشائعة بأن أسعد ذبحه ودفنه تحت شجر الليمون، وأصدق في أسعد ما لا يدور بخيال الجن.

أما عن نور فمنذ حل فقد نشر في القرية وباءين، وباء الحشيش، ووباء الحكايات العبيطة التي يُكلِّمُ فيها الناسُ الجنَّ والطير. بالليل كانوا يسهرون مع الحشيش في بستان أحمد الجنوبي فانجذب إلى مجالهم كل

حشاشٍ فارغ البال، ودخل عليهم بُعَيْد أيامٍ شوقي العبد وصحبه من عتاه الحشاشين ثم جلسوا وافترشوا وقطعوا الحشيش بأسنانهم فكُنَّا نشمُّ الدخان، ونسمع القهقهات عن بعد، ويدلف للبستان كل من يحركه الفضول أو يؤرقه الملل فيجلس ويحكي ويضحك ويبكي. هذيانٌ طال القرية عن بكرة أبيها واسأل عن نور يا سيدي منذ المساء يخبرك الناس لأنه لم يكن يفزُّ من نومه من قبل أن ترفع الشمس سياطها عن قفا الفلاح. فإذا قام من نومه تعطر ومشى بين الناس في ثياب أبهة، وحذاء ناعم ذي بريق، فإن رأى بعضهم يفترشون مصطبة، مال عليهم واستمع لما يقولون ثم ترشف الشاي في أكوابهم على مهلٍ وأناة. فإن أعجبته حكايةٌ انتبه واستزاد منها، فإذا به ينثر على رأس القائل بالحكاية جنيهات كثيرة كفعل الملوك إذا كافأوا، فإن لم يكن في جيبه مالٌ خلع خاتمه أو ساعة يده وأهداها لمن يحرك جنونه بالحكايات. وانتظره الناس من المساء على مصاطبهم يتنافسون أمامه بالحكايات متلمسين رضا ذلك الوجيه ابن الباشاوات فإذا مررت بهم وجدتهم في شغلٍ عما يزرعون.

لا تحسب يا أستاذ حنقي على نور النديم جاءني من كراهتي له أو مقتاً لذاته، فالولد كان والشهادة لله طيباً إلى حد كبير، وكان ساذجاً لا يدرك شيئاً مما يحدث في الدنيا، لكنه كان مغروراً ومتفلسفاً ويظن أن كل الناس قادرة على المحبة. مشكلة نور أنه لم يكن فلاحاً مثلنا، لم يعرف سر القرية، كان يرى القرية غيطاناً وبرسيماً وقمحاً وبهائم وادعة تمشي مع الشمس في الشروق وتعود معها في الغروب، والفلاحون يأكلون الفطير والعسل الأبيض والأسود كل يوم. كان يدور في القرية مثل الخواجات عند الأهرام ويعجب بمعاكسة الفلاحات له. كان طفلاً يمكنك أن تسحبه من يده للتنزه. وأظن أن شوقي العبد بفطنته قرأ نور واستظرفه، لا أقول أحبه لكنني أقول لنفسي الآن بعد اختفاء نور أنه ربما لم يكن ثقيل الظل كما رأيته دائماً، بل ربما كان لطيفاً وحلو الحديث وصادقه شوقي على ذلك، لكن القرية كلها قد سألت عمَّا جمع الشامي بالمغربي، فالقرية كلها تعرف مَقْتَ شوقي لعائلة النديم أباً وجداً، حتى أسعد النديم لم يخف عليه ذلك وكان يقرب شوقي

منه اتقاء لمكره، فلا يمكن لقلب شوقي أن ينفتح لواحد من عائلة النديم، لكن نور إذا ما أدرك ميراثه من عمه بالود أو بالقانون فسيمسى نور هو سيد القرية بلا منازع، تلك فدادين كثيرة تحتاج من يزرع ومن يسقي ومن يجمع ومن ومن، وعقارات تحتاج من يبني ومن يهدم ومن يبيع ومن يكتب ومن يشتري ومن يقيس ومن يدفع ومن يتوسل تأخير الدفع، نور سيمسي هو القرية كلها وستصير أغلب مصالحها بين يديه، فأراد شوقي أن يؤاخيه، وتعشم في طفولة نور أن تستحي أمام الأُخوَّة والسهرات الحلوة، أراد شوقي أن يدير كل ذلك، لا أقول يسرقه، معاذ الله، ولكن فائدة متبادلة ومصالح، هكذا نرى نحن الدنيا، نادراً ما عرفنا علاقاتٍ مرسلة لوجه الله بلا نفع ولا مصالح سوى ما رأينا بين نيازي وفرحات والجنوبي، فقد آخاهم الله وزين بهم الأرض وجاءهم نور فبات رابعهم كأنه عاد من سَفَرٍ وليس غريباً في حاجةٍ لاختبار حقيقة مودته، لا أحد كان يشك في طيبة قلبه وفى طفولته. أما شوقي فلا أراه ممن يجنب المصلحة بل إنه مثل كثير مِنَّا يغلبها، وسحب نور من يده فشده إلى الناحية البحرية حيث البيوت المتراكبة والحواري الضيقة والدار الواحدة ما زالت تتسع لعشرة رجالٍ وخمسين امرأةً على الأقل، وفسَّحَهُ شوقي ودار به على الناس يعرفهم به، وكان نور لا يتوقف عن سبِّ عمه طوال الوقت وفي كل مجلس وبمناسبة وبغيرها، وكان ذلك يُسعد شوقي. وقرر شوقي أن يقرب نور منه بأي ثمن، أرادَ أن يزوجه واحدة من بنات عمه، وما منع نور أن يتزوج سوى قبح نساء العبد، وسوى أنه وقع في غرام امرأة ساقطة من نساء قريتنا. ومشى به شوقي حيث يحب نور فأخذه حيث يجلس الناس للحواديت، لا تحسب أن الحواديت عندنا بدعة جديدة جاء بها نور، طول عمر قريتنا تعرف الحواديت في دكاكين الخياطين، وفى أكواخنا على أطراف القرية ليلة السقيا.

والتقى نور بمرسي الخياط حكاء الناحية البحرية فنظر كلٌ منهما بغيظ للآخر مثل كلبين على وشك العض والهبش والنباح يتجهزان لتراشقٍ غليظ، وفاتحهُ المرسي دون مواربة، وقد سرق نور بحكاياته نفراً من السامعين للمرسي، فقال له المرسي أن حكايات نور ماسخة ومعقدة مثل

حواديت التليفزيون، ليستْ فَتِيَّة في خيالها وتحتاج إلى كاميرا ومخرج وأكشن، أما حكاياتنا هنا نصنعها يا أفندي بأدوات بسيطة، جفنة النار الموقدة ومن فوقها الشاي، لكنها ترسل الخيال حتى يبوس القمر ويعود. وضايق هذا الكلام نوراً كثيراً فتحدى المرسي أن يحكى كل منهما حكاية بين الناس وهم يحكمون، وكان مرسى هو المضيف فبدأ وقال: «أما أنا أيها السادة فقد خلقني الله نهماً وبطني مخروقه بطلقتين من الطبنجة! نهمٌ حد أنني ألتهم العجل نيئاً بأظلافه، وأُلطف بعد ذلك حمو اللحم بصينيتي كنافة، ثم أبحث بعدها عما يسد الرمق، فقال الناس عني: في صباه سكنت بطنه الديدان، و قال الناس بل ركبه شيطان، وقال الناس هو نهمٌ كبقية أهله، وفي ذلك يا سادة شيء من الحقيقة، فإنني وكلُّ أهلي في غاية النهم، إلا أمي كانت تأكل بالمقدار وتقطف اللقمة على فترة من اللقمة التي سبقتها، وكانت تفلق صينية الأرز المعمر بالسكين بيني وبين أخي كي لا يجور أحدنا على الآخر ورغم ذلك كنا دائماً نجور على بعضنا، فلو أكلنا مع النبي عليه الصلاة والسلام لقال في نهمنا «حرامٌ... حرام»، وكان سيترك لنا نصيبه من الضأن رحمة بنا فنبينا رحمة للعالمين، صلى الله عليه وسلم. كنا نتسلل إلى الحلل والأطباق نتشمم المكان الذي خبأتهم فيه أمي، وكنتُ دائماً الأسبق من أخي إلى معرفة ذاك المكان، ولكم تركتُه يتلمظ جوعاً ويمص أصابعه حسرة. وكنا نُصلي العشاء في الجامع متلاصقين كي لا يسبق أحدنا أخاه فيتلوى متخفياً كالأفعى إلى حلة المحشي الساخنة على وابور الجاز الذي كان يوش ويغني في وسط الدار، بعد الأربع ركعات نقوم إلى ركعات الشفع والوتر، فكنت أخدعه بأن أقف ثابتاً في ركن من الجامع و يداي معقودتان على بطني كمن يصلى، فيطمئن أخي ويرفع يديه إلى أذنيه، حينئذٍ أفرُّ من الجامع وأتلقف المحشي من الحلة الساخنة، و حين تراني أمي تبادرني بالصراخ، ولكم صرخت المسكينة كلما رأت زلعة الجبن فارغة تطبل بين يديها، أو علمت أنني أكلت دهن الخروف المخزن للطبيخ عوضاً عن الزبدة، ولو تأخر أخي عن العشاء أكلت نصيبه وإن تأخرت أنا هضم هو حقي. النصف فدان الذي زرعنا فيه أنا وأخي سوياً قد تسلمناه من الإصلاح الزراعي وما كان له

أن يسد جشعنا، فسافر أخي وعمل مقاولاً في صحراء مدينة السادات وأصبح من تحت يديه عمالٌ ورجال طوال ووسع الله عليه، فلم ينسني أخي وأرسل في طلبي. حملتُ بقجة فيها عشرون رغيفاً ثم ركبت الأتوبيس فدلني أصحاب المروءة على بيت أخي وفتح لي الباب مالك العمارة، مشيت بالفضول وحده أفتح الثلاجة وأكشف ستر الحلل فعثرت على غداء العمال المعد من الليلة الفائتة، لحمٌ كان يكفي عشرين رجلاً في حلة واسعة، فلمسته أولاً أتذوق... وازدردت قطعتين... وساقني التذوق إلى التشهي فابتلعت قطعتين، ودلَّني التشهي على دناوة النفس، فقطعتين وقطعتين وقطعتين. ورجعوا من أشغالهم متعبين فوجدوا الباب مفتوحاً وكنت نائماً على سرير واحدٍ منهم أشخر وأهرش فيما بين وركيّ، فلما تلمسوا غداءهم قال أخي: «لا تبحثوا... تلك كانت غلطتي وحقكم عليّ»، طردني أخي ركلاً من قبل أن يرحب بمقدمي، وفى طريق عودتي أشفقتُ لنفسي و بكيتُ من قسوة الدنيا وجحود ابن الأم، فركنت بيدي على كشك بقالة منزوٍ وبعيد عن العمار كان صاحبه يهش الذباب في ملل، حكيت له حكايتي وخلال ذلك أكلت من دكانه رطلي حلاوة طحينية، ورطلي جبن إسطنبولي، وبرطمان عسل شربته، وخبزاً أبيض لا أعرف عدده، والرجل يحكي و أنا أحكي، حتى تجشأت بعشر قوارير من "البيبسي" والرجل فرحان... حتى حانت لحظة الحساب. فلما سألني رفعتُ منكبي دهشة وقلت له: «كنت أسليك يا رجل وأسري عنك وتسري عني حتى إذا عددت عليَّ الأصناف التي في دكانك ظننتك تدعوني لطعام الأخوة»، هبش الرجل الطيب في رقبتي وقال: «لا أتركك حتى يدفع أحدهم عنك»، واستدلوا على أخي فقضى الدين صاغراً ثم صرخ في وجهي قائلا: «يا ابن أمي دلني على شيء أسُدُّ به فتحة بطنك تلك».

وضحك الناس كلهم لحكاية المرسي وقام الأخير يخطر متباهياً على عين نور. فتأمل نور ورقة "جرنال" قديم معلقة على الحائط وقال:

«بسم الله الذي نوَّر الشمس بنوره، وسجدت له الأشجار، كان في علم الله قريةٌ قد مسها بلاء عظيم، إذ جفا أهلها النوم كلهم وتأرقوا وباتوا ساهدين، حتى الرضيع لم ينعس على ثدي أمه فلفظه، وصرخ حتى انبحَّ

صوته، ثم أطرق على نفسه كرجل يعاني في هذه الدنيا الأمرين. وتخبطوا في الصباح كالسكارى وسقط الفأس من يد الفلاح على رأسه. وتكرر عليهم تمنُّع النوم ودلاله على الأجفان سبعة ليالٍ وسبعة أيام، حتى جُنَّ الناس وتقاتلوا بلا سبب، وتركت المرضعة ثديها على أنف الرضيع فخنقته. وما كان ذلك إلا لأن الله سبحانه قد عين ملاكاً جديداً في السماء وكلفه بكتابة حواديت الحلم، وبالتسرية عن الناس إذا صعدت أرواحهم إليه متعبة وظمأى. لكن الملاك كان ساذجاً عما يحلم به الناس ولا يعرف ما يرضيهم ولا ما يسرهم فصلى بالأرواح الصاعدة إليه جماعة، وكلما رجعوا إليه أرهقهم بالذكر، والناس ليسوا ملائكة وما كانوا... فملوا، وتراجعت أرواحهم عن النوم فسهروا، واستأذن الملاك الله عز وجل عن وصفه، بأن يهبط إلى القرية ليعرف ما يرضيهم من الأحلام فيكتب لهم أحلاماً على شاكلتها.... وتنكر الملاك عن الناس فضم جناحيه إلى ظهره وخبأ نوره في جلباب أبيض وقال للناس: «أنا لست ملاكاً ولا أعرف كيف يكون الملاك». ثم مشى إلى بيتٍ منفردٍ عن القرية، بابُه مغلق عليه فطرق ثلاثاً واستأذن، وكان من داخل البيت ثمة رضيع يصرخ، وجاوبته من الشباك أرملةٌ بيضاء لها شامة في خدها الأيمن ونحرها أبيض، فلما رأت كسوفه تعجبت ومالت بجذعها واتكأت على طوق النافذة بذراعيها. وقال لها: «يا بيضاء هل عندك علمٌ عما يحلم به الناس؟»، فقالت له: «يا ملاك إن اليتيم يحلم بأبوين، والأرملة تحتضن رجلها في الحلم، يحلم الجوعان بسوق الخبز، وإن غرض الأعمى قفة من العيون، وكل ما يفوت الناس في النهار يلسع قلوبهم فيتلمسونه حلماً». ثم أغلقت النافذة على بياضها المسهد فكاد يسيل من الخصاص. ومشى الملاك حتى إذا رأى رجلاً عجوزاً يغزل الصوف على جعران يدور قال له: «السلام عليك يا جدي»، فقال: «وعليك يا ملاك»، «بأي شيء يحلم الناس أيها الرجل الحكيم؟»، قال: «مالي وللناس، كل ما أرجوه الآن سنتان تنبتان في فمي أشد بهما على الخبز اللدن، وبعض عافية أزور بها أهلي، وأبطش بمن سخر من شيخوختي»، واستزاد العجوز من الرجاء فقال: «وليت لي مصنعاً ينسج القميص والجلباب والعباءة، وتحلو هذه الدنيا

بامرأة بيضاء لها شامة في خدها الأيمن ونحرها أبيض». وعرف الملاك أن ابن آدم غلبان، وكل ما يرجوه يطلبه في المنام فرق له قلبه وبكى عليه، ثم نشر الجناحين وعرج بهما إلى السماء لكنه ارتكب خطأً عظيماً قبل أن يلمس السحاب برأسه، إذ نفخ في أعواد الحطب التي تقي رؤوس البيوت من الشمس، فتنفست خضراء من بعد موتٍ، وعاد العجوز شاباً يلوك اللحم وعنده مصنع وله زوجٌ بيضاء ذات شامة على خدها الأيمن ونحرها أبيض وتربي اليتيم بينهما، وظن الملاك أن الأرواح ستصعد إليه شاكرة لكنه انتظر وانتظر في مقعده من السماء فلم تأته الأرواح صباحاً ولا مساءً، كان الناس يعيشون أحلامهم ويسرفون فيها حتى لقد زهدوا الحياة، وكان الناس في الحلم يمسكون عصياً ويصرخون في السماء طالبين ملاكاً قد خدعهم. وعرف الملاك أن ثلاثة رجال من القرية قالوا تحت جميزة، فرفع جفونهم متسللاً، ورآهم من تحتها يحلمون بأنهم يحلمون».

وسكت نور لأن حكايته قد أبكت الناس كلهم وتلمسوا فيها العبر والعبرات، وسأله بعضهم: «ثم ماذا كان من الملاك؟»، لكن المرسي قطع الكلام حين رفع فخذه عن الحصيرة المنسلة في قاع دكانه وضرط بصوت عظيم. وكان الرهان يقتضي من جانب المرسي إذا خسر أن ينكفئ على الماكينة ليلتين وأن يرسم جلباباً أنيقاً لنور ليكف نور عن لبس الأفندية ويمسي واحداً منا، وكان شوقي قد أهداه ثلاثة أمتار من الكشمير فدفعها المرسي عنه في غضب وقال: «لم أخسر، واحد منا أبكى وأخر قد أضحك». فتشفع عنده شوقي بغلاوته وحق العشرة، والرجل محبوب في الناحية البحرية من البلدة حيث أهله، فكان إن سأل يقضى وإن تشفع شفع، فأمسك المرسي بالقماشة وقال: «بعد شهر يتسلمها ولا يظن أنني سأسلمه جلباباً آخر ما حييت من غير شفاعة رجل كشوقي». وتأنق نور في الجلباب وأرسل الكوفية فوق منكبيه، وتأبطه شوقي يضحكان كأخوين، وكنتُ أشفقُ على نور من سذاجته ومن شلة الأذكياء الذين كانوا يحيطون به. ولم أرغب أبداً في صحبته وكنت أراها صغاراً وقلة قيمة، لولا أنه كان يلزم أحمد الجنوبي منذ صلاة العشاء، وكان أحمد يقرأ قضايا المكتب ويتفكران معاً

في حلولٍ وكلام يقوله أحمد للقاضي، وتعلم أحمد الحواديت من نور وضمنها قضاياه فأعجب القاضي، وكان يسيرُ معنا إلى المجالس العرفية حيث تعوَّدْتُ أن اصطحب أحمد، فبعد أن يعرض كل طرفٍ حجته منتظراً للحكم كان نور يندفع إلى وسط المجلس بغير إذنٍ ولا مراعاة لمن يكبره سناً وحكمة. وكان يشيح بيديه ويصرخ، وأنا مكظوم ومطرق ناحيته بلا حيلة وأسرح في شأنه، ويضحك الناس في وجهه تأدباً واسترضاءً لخاطرنا وينصتون إلى الغريب الذي جاء يعلمهم العيب والصواب ويفتيهم في الحلال والحرام ويحب الخطابة مثل شيخ الجمعة اللجوج وبحق الله أقول رأيت أناساً يستملحون حديثه وينصتون إليه، كان ظريفاً ومفوهاً إلى حد بعيد.

أنا يا أستاذ جلال أكره البطالة ولا أحب أهلها، ودائماً ما أشغلُ نفسي بزرعٍ أو ببيع أو مسير في مصالح الناس كي لا أفرغ فأفسد، أما نور فكان يتنفس البطالة ويدمن عليها، ولولاه ما عرف أحمد الحشيش ولا الحديث عن النساء، وأحب أحمد السهر والمشي معه حتى أهمل مكتبه وضاق بالزبائن الذين كانوا يتعشمون فيه، وصاروا يطاردون أحمد في الطريق بين البستان والبيت و يلحون على هاتفه بالسؤال، و جزاء ذلك سرقت مستورة المتدربة في مكتب أحمد أغلب قضاياه، وكتبت العقود عنه وهي بهيمة لا تفسر الخط المكتوب ولا تحسن الكلام، أما أحمد فلم يبال، لكأنه مسحور، وانغمس في الحشيش والحكايات حتى ذقنه وانتفخ في نفسه حتى طمح للبرلمان وعادى أسعد.

- وفى ظنك يا حاج زاكي، من يكون قد قتل نور النديم؟
- قتل؟ ومن قال إن نور قد قُتل؟
- جلبابُه المخضب بالدماء؟
- يا أخي، أنا سمعت من قريبٍ لي في المباحث أن الدماء لم تكن كثيرة وربما لا تكون دماؤه أصلاً، اعقلها معي... من يقدم على قتل نور النديم، ربما ضايق أناساً لكن الحنق على نور لا يصل أبداً إلى حد القتل؟

- من هؤلاء الذين ضايقهم، فضلاً عن أسعد؟
- شوقي ومرزوق الخولي، حتى فرحات نفسه الذي سحب نور من يديه لمجالسنا وعرفنا به، وكثيرين، كان لسانه لا يعرف سرجاً ولا لجاماً، وكان في جنونه لا يميز ما يقول، لكن صاحبك على عيبه ونحن صاحبناه.
- ربما ضايق أحدهم إلى حد القتل، كأن يسرق خطيبة أحدهم، ويفاجئهما الناس على سرير واحد.
- آه، ياه، أنت تقصد هذا الأمر. المانعة يا أستاذ لم تكن خطيبتي.
- يقول الناس أنك أشهرت خطبتها في البلدة ثم فسختها بعد أن باغتهما الناس.
- أقصد أنها لم تكن خطيبتي على الحقيقة، كما أخبرتك فإن زوجي قريبةٌ لأسعد النديم، لكنني وهي ما اعتدنا أن يتدخل ثالثٌ ما بيننا، ونروق لبعضنا البعض من غير حكم من أهلها وحكم من أهلي، لكن ذات مرة لطمتها، وللحق أهنْتُها، فلم تحتمل واشتكت لقريبها أسعد، بل جمعت مالها من البيت و أقامت في الدوار، وانتظروا أن آتي لصلحها، فعاندت أنا وركبت رأسي، وكان أحمد الجنوبي يمزح معي ليسري عني فقال: نخطب المانعة، فأمسكتُ في الكلمة حال غضبي و وضعت يدي في يد وكيلها و قرأنا الفاتحة، لكن عقلي الذي عادني بعد قليل قال إن هذا الأمر لن يدوم و أفضل ما فيه أن الخبر سيحرك معدة زوجي ويحرقها فتعود وقد عادت. أنا لا أنفي عن تلك الساقطة تهمة الفاحشة لكن أحمد أكد لي أن نور سافر إلى قاهرتكم في الليلة السابقة للفضيحة، ربما أمسكوا المانعة في أحضان رجل آخر واختلط عليهم.
- لكنك لطمتها بين الناس لما علمت.
- معلوم، فقد كانت تحمل اسمي ولا تعرف نواياي.
- فمن أين جاء الدم على جلبابه؟

– قلت لك، أن نور تطاول على رجالٍ كثرٍ وأهانهم في حكاياته.
– وهل فعل معك يا حاج؟!

«سبحان الذي شق الفولة نصفين وجعل زاكي شديد الشبه بأبيه إلى حدٍ مربك، فما كان الناس يميزون أحدهما من الأخر. رأسٌ صغيرٌ مُدور تلابسه الطاقية منذ ساعة الولادة وعودٌ بالغ النحافة.

وكان زاكي وأبوه يلبسان من الأقمشة اللون ذاته، فيخيلُ إليك أنهما يمشيان في جلباب واحد. ولزم زاكي رأى أبيه، وكان يلازمه في الأسواق، وفي الغيطان، وزيادة في الحرص على ألا يفترقا ربط زاكي ذيل جلبابه في جلباب أبيه. طوال النهار وطيلة المسا في زرعٍ وبيع وطرح وجمع، ومالٍ يتكدس وبهائم في الزريبة تتزاحم وتثغو، وصارا بسعيهما النشط أغنى أغنياء القرية، لكن أحدهما لم يستمع إلى موالٍ، ولا غنى غنوة يا ليل، وتكدح الزوجات في الدار الواسعة، وفي الغيطان من دون نظرة مودة أو كلمة غزل. وذات ليلة حلوة سرى القمر فيها بدراً، وتهيأ في قميصه الأبيض، لكنه لم يدرك بحسنه، حسنَ النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام، وما كان له. ونَدَر في تلك الليلة أن ينام مشبوب أو يغفل عاشق واجتمع كل الأصحاب للسمر، لكن زاكي وأباه، عليه رحمة الله، قد أحرجا القمر، قد كانا مشغولين عن الجمال ليلتها بتنفيض أجولة الدقيق على سطح الدار وارتفع الغبار كثيفاً حتى هال البدر فكحَّ وتزحزح عن قريتنا وأنزل بزاكي وأبيه عقاباً سماوياً، فانتشر في جلدهما بهاقٌ مبرقش يقول لمن يراه: «القرش الأبيض أنفع لليوم الأسود». واستشرى في النفوس داء الملاوعة والفصال الكثير عن كل بيع وشراء، فكانا يبخسان ما يبتاعان ويبالغان في ثمن ما يبيعان، فلو مشت معهما بهيمة إلى السوق لا يقرأ الفاتحة عليها أحد، لعلم الناس أنهما يثمنان مالهما لا أكثر، فإن مرَّ بهما غريبٌ لا يدري ما هما وما بهما، وعرض عليهما سعراً مقبولاً في البهيمة قالت رأس زاكي: «يفتح الله»، ورأس أبيه قالت: «ما اقتربت حتى». واجتمع لزاكي وأبيه أراضٍ وعقارات من الشح والبخل والمماطلة في قضاء الدين ومن غمط حقوق البنات والعمات والخالات، وحمل زاكي محفظة كبيرة كمحفظة أبيه، حتى إذا هما عائدان من السوق ذات مرة يسلكان طريقاً ترابياً تحفه الغيطان وقناني الماء إذا بالأرض قد انشقت

حرفياً وابتلعت الأب كما ابتلعت قبله قارون، ولما كان زاكي مربوطاً في جلباب أبيه فقد خرجت الدوبارة التي تربطهما من بين أسنان الأرض، وصاحبنا مال يشد الدوبارة و الأرض تكز عليها في غلٍ حتى تشبث وانقطع الحبل في يديه وقد بلغ الأربعين إلا عاماً في طوع أبيه المبلوع،...

وحك رأسه زاكي وفكر فيما يقوله للناس، أيقول «أبي انشقت الأرض وبلعته؟»، ثم ما هو العمل في أمور الميراث؟! وعاد يبحث في التراب لربما لفظته الأرض في مكانٍ قريب، لكن الأرض تجشأت بارتياحٍ وبصوتٍ مسموع لزاكي. وفي غفلة من حرصه اشترى علبة سجائر كاملة وطبل بأصبعيه على عجيزتها فتدلت له سيجارة، ووقف ينفخ في ذهول. فوجد فتية من القرية متحلقين بأفندي صغير السن هو دون العشرين يضع نظارةً طبية على أنفه الكبير، وشعره أكرت لكنه لطيف المزاح والفتية من حوله يضحكون، وعاد الفتى يشرح لهم ما يدرسه في كلية الحقوق، وكان ذكياً واثقاً بنفسه، حينئذٍ تلمس زاكي ذيل جلبابه المبتور ومشى إليه، وانسحب زاكي بأحمد الجنوبي بعيداً عن صحبه وقد جلسا يدخنان على قضيب السكة الحديدية الذي يشق قريتنا نصفين، قبله البيوت وبعده الغيطان وتمر من تحته ترعتنا التي نسميها «السمسمية» لسببٍ غير معروف، وقال أحمد: «يا حول الله أدركنا، أباك ابتلعته الأرض، بسيطة إن شاء الله... أعرف رجلين كذلك، أحدهما باش في البحر، وآخر خطفه قطار السابعة المسافر إلى مصر».

أحمد الجنوبي

أنا أحمد الجنوبي محامي نور النديم وصاحبه، وقد اختفي صاحبي منذ أكثر من أسبوع تاركاً جلبابه مخضباً بالدم، وما أراكم تتحدثون عن ذلك! لا أحد... لا أحد، وأقول لكم صاحبي ربما كان مقتولاً أو متوجعاً من جرحه في مكانٍ غير معلوم، ولا تتكلمون سوى عن كونه مجنوناً أم لا... هل ترون الجنون تهمة تستأهل القتل والإخفاء؟ ... لا البوليس يفتش عن صاحبي بجدية ولا حتى ذلك الصحافي الذي حل بقريتنا يسأل عن أيام نور النديم بيننا، الفعل الجديّ الوحيد من طرف الحكومة أنها أرسلت الكراكات لتهدم عزبة المجنون التي بناها صاحبي على أطراف قريتنا في أرضه ومن حر ماله، ومن حكم في ماله ما ظلم. وبوصفي وكيلاً عن نور النديم سأقف دون ذلك ومعي رجال القرية الذين عرفوا نور وأحبوه، وبوصفي صاحبه سأعرف اليد التي امتدت إليه فأقطعها... بالقانون... لكنني قلقٌ على صاحبي الآن ومفتقدٌ له فالتمسوا عذراً لحدتي في الكلام، أرجوكم، فقد تحدثت اليوم مع طارق بك الشاذلي وكان الرجل متفهماً لأقصى درجة، وأطلعني على نهاية التحقيقات، فوجدت الناس بكل أسفٍ يكذبون على صاحبي، فكان حتماً عليّ أن أعرفكم به، لربما صادفكم رجلٌ يحملُ شيئاً من صفاته ويحمل جرحاً فتخبرون عن مكانه.

هو لا يتحدث عن نفسه كثيراً، تمنعُه أوجاعه من ذلك ولهبٌ مضطرم عند ماضيه يجعل عينيه زائغتين على الدوام، يصمت كثيراً ويطارد في عقله أفكاراً لا حصر لها، لكن صاحبي إذا تكلم فهو سيد الكلام وسيد الحكايات بلا منازع. كان يخبرنا عن أيامنا الأولى، أول ما خلق الله قريتنا وأرسل إليها الشمس والقمر ومشت فيها الأنعام آمنة، ولعبت القراميط السود والعفاريت في مياه ترعتنا الخضراء. كان يحكي ليلة الخميس ويترك لنا بقية الأسبوع نقص عليه أحوالنا ونخبره عن أيامنا التي تشابهت لكأننا

نعيش فصلاً طويلاً ومُلحاً من الأبد. حتى في ليلة الخميس ما كان نور يحكي عن نفسه، وأظنه قد ضل عنها، وأظنه قد تبرع للحكايات بكل ذاكرته فما عاد يعرف نفسه، وربما أخبركم – لو صادفتموه – بأنه شخصٌ أخر. كان سيرغب في أن نتعارف ونتبادل القصص حتى يختلط علينا من نحن ومن أنتم، لذا اسمحوا لي أولاً أن أسألكم: «كيف أحوالكم؟ عسى الله أن تكونوا بخير»، لأنه إن لم تكونوا بخيرٍ ولا نحنُ كنَّا فلابد من الجلوس سوياً لتمحيص هذا الكمد... إن كنتم تسألون عن نور النديم فأنتم ضيوفي... لا تصدقوا كلام الصحف وسنجلس عندي في البستان بالقرب من عزبة المجنون التي بناها صاحبي، يمكنكم حتى أن ترونها من هناك... وكرامةً لصاحبي سأحكي لكم كما اعتاد هو أن يحكي، وَلَّعتُ على الشاي وغسلتُ الأكواب... بالمناسبة نحن لا نمانع الحشيش في مجلسنا، لكن الخمر والبيرة حرامٌ عند شيخنا محمد فرحات، كذلك فإن مزاج السُكر لا يناغم مزاج السُطل.

يا سلام! تغيرت الأيام يا أخي... لم تكن الأيام أبداً تغلق باب العشم من دوننا، أما الآن فهي بخيلة ومنغصة وغير مأمونه العواقب... كنا زمان يا أخي نحلم، لم نكن في منتهى السعادة لكن كنا عشمانين في أن تُبَذر علينا الدنيا شيئاً من حظها وروقان البال، لكن بخيلة بنت كلب! أنا مثلاً في أول شبابي فاتني قطار التزلف والوساطة فلم أحصل على وظيفة حكومية... رغم أني تزلفت والله مرة أو مرتين لبعض أقاربي، ولكن تزلفت وأنا في منتهي العنجهية، تزلفتُ من منطق «اخدمني اليوم وأخدمك غداً»، أما الآخرون في قريتنا فقد كانوا يتزلفون من منطق «أنا خدامك عطفت أم بخلت» ... ويجمعهم أسعد النديم هم وآباؤهم في غيطانه وزرائبه يخدمونه سخرةً، آملين أن ينظر إليهم يوماً بعين العطف. أما أنا فكان لا يناسبني ذلك، أشعر أن الحياة ما لم ترغمنا على ذلك فمن العيب أن نؤديه متطوعين، الأرزاق بيد الله بعد كل شيء وقبل كل شيء. وقررتُ أن أعمل في المحاماة، وكانت كلمة «محامٍ» لم تجاور أو تحاور أي تصور لي عن المستقبل، أنا أكره المحاماة وعَنَتَهَا... وليس لها مرتب مضمون، ولكن كان ينبغي أن أعمل

لأعيش، وعلقنا يافطة باسمي صغيرة على مسامير كلمة ربما، في الطابق الأول من منزلنا فرشت مكتباً وطبعت كروتاً بآخر مليمٍ في جيبي مكتوب عليها بخطٍ مزخرف: «أ/ أحمد الجنوبي المحامي»... رغم أن جاري حين زارني في المكتب مشى فيه متأملاً الأثاث وتحسس خشب المكتب، وحدق في الصور والآيات القرآنية المعلقة على الحائط وفرز كل شيء تقريباً إلا جيوبي وضميري ثم قال مشجعاً:

- فتحت مكتب محام يا أحمد؟
- أي والله يا عم، وجدت نفسي في المحاماة.
- وكيف تعيش؟ المحامون مرصوصون على المقاهي والمحاكم من غير شغل؟
- الأرزاق على الله يا عمي... الله سيرزقنا

فقال بحسد شيطان:

- ومن أين سيرزقك؟ ... قال يرزقك!

هذا الرجل من أقذر الشخصيات التي عرفتها في حياتي، ويحلو لي الآن أن أمرَّ عليه بسيارتي وألقي ناحيته سلاماً فاتراً فيفز من مقعاه يحييني بأحمد بك بملء الفم والعين، ويحلو لي إن جاء يستشيرني في أمر قانوني أن أربكه في مجلسه، وأصرخ فيه إن حاول التذاكي أو عرض رأيه، فأشعره أنه بهيمٌ ما يعرفُ فضل الله على عباده. نيازي وفرحات هما اللذان علقا اليفط التي كانت تحمل اسمي في البلدة، وفتشوا عن قضايا في بيوت أقاربهم وأصحابهم حتى أوشك أحدهم أن يفتعل مشكلة في الشارع أو يبطح نفسه ليحمل إلى مكتبي قضية. وصادف أن كان لأبويهما قضايا فأخذ كل منهما الملف من يد أبيه عنوة وتوسل وأعطاها لي مع عربونٍ محترم وربما مبالغ في الاحترام، كانت قضية أبي فرحات رصيد إجازات بعد المعاش، والقضية الثانية قضية ضرائب كبيرة على محل نيازي وأبيه، ولصعوبة القضية فأنا متخيل حجم الضغط الذي مارسه نيازي على أبيه ليعطيني القضية في

بواكير ممارستي للمحاماة، رغم ذلك قرأتُ وكسبتُ القضيتين وسألت حتى عرفتُ، لكن الفضل الذي لا ينكر بعد فضل الله هو فضل أخي زاكي عليّ، إذ دار بي على الفلاحين في جلسات البيع والشراء والاختصاص والمواريث، فعرفتُ أن الله خلق القوانين من أجل الفلاحين أولاً ثم يأتي بقية الناس بعدهم، فمن الفلاحين رجال زواغون عن الحق مماطلون في الأداء ومسوفون، بالهم طويل في السداد ويتلوون كالقطط المنحورة عند المطالبة بحقوقهم، زاكي فضله لا ينكر أبداً وكان الناس يعرفون أنني محامي زاكي الجمال فيسألون عني ويطرقون مكتبي مذكرين أنفسهم أنه ليس في القرية كلها من هو أذكى ولا أغنى من زاكي فإن كان يستشير أحمد فقد علم نباهته، وكان زاكي يشجعني ويشد على يدي بقوله «بكرة تكون باشا»... لذلك فإن كان زاكي لا يعجب بعض الساهرين هنا معنا فاعلموا بأنه صاحبي مثل فرحات ومثل نيازي... إن كان زاكي لا يشرب الحشيش ولا يغني طرباً مثلنا ويحب أن يستشرني في العقود والقضايا حال سُطلكم فامسحوها في رقبتي وعاملوا صاحبي بالاحترام اللازم لي، فأنا وأصحابي شيء واحد. نور النديم وزاكي لم يتفق لهما مزاجٌ واحدٌ أبداً، وكان كلاهما يسران لي بشتيمة الآخر منهما فأضحك، لكنني في عزٍ ومنعةٍ بأصدقائي كلهم. ربما كذبتُ عليكم أول الكلام في كوني لم أتزلف كما ينبغي... فقد حدث مرة أنني تزلفت كأصول التزلف وكلمت الحاج أسعد النديم في وظيفة لي حتى ولو في القطاع الخاص، كانت الأحوال راكدة في المكتب ثلاثة شهور متصلة ففعلتُ ما فعلتُ وابتسم أسعد كعادته وعشمني... ثم لم يجبني إلى طلبي ولم يُعْنَ بمواساتي ولو حتى بالكذب، ومن يدخل ضميري منكم الآن سيراني ممسكاً بحذاء غليظ النعل أضرب رأسي به على هذه الغلطة... وقال لي زاكي: «أنت خايب يا أحمد، تريد من أسعد أن يعينك وأبوك من قبل أغرق لأسعد أرضه؟ ...يا أخي نونو».

وشد على يدي من جديد، وعرض على أموالاً كثيرة... زاكي وإن كنتم لا تصدقون إن وجدني في ضائقة لا يحلها سوى أن يبيع أرضه وبهائمه لباعها من أجلي... لكن نور النديم وزاكي متطرفان في الخلاف، نور يحب الفرفشة

والفلسفة وزاكي يحب الحساب، والدنيا ليست كلها حساباً في حساب يا زاكي، دعنا يا أخي نستمتع على الأقل بحصاد كدحنا خلال هذه السنين، يا زاكي باتت تشغلني أمورٌ لا يعالجها الحساب... وربما تعالجها أغنية حلوة، سهرة رائقة... روق دماغك يا زاكي. وكان كلما جلس نور وزاكي عندي حدثت مشكلة أو أوشكت، فإن نور كان إذا انسطل وتفلسف يتجاوز في خياله مدارك أفلاطون وكنتُ أحذره أن يفعل ذلك في حضور زاكي فكان يقول: «تخيلوا كوننا الآن في حلم، تخيلوا أننا مجرد أفكار في رأس رجل نائم... ما الدليل أصلاً على أننا نعيش الواقع إن كنا نصدق في الحالين أننا في حقيقة؟» ... ويهم زاكي أن يشخر له، فأضع يدي على فم زاكي فيتركنا غاضباً، وأجلس أنا ونور في أسئلة من هذا القبيل. وقد كانت كل لقاءاتنا على هذا النحو والله، نتفلسف أنا وهو، ليس معنى ذلك أننا لم نكن نضحك، كنا نموت من الضحك ولكن نجذب النكات من أعماق بعيدة ومغايرة لما يتكلم فيه الناس، وننظر القضايا في مكتبي سوياً، لم تكن جلسات هلسٍ بل جدية في غاية العذوبة. ناقشنا ذات مرة رأي الناس به وبي فقال لي: «إن الناس يحبونك لكونك محامياً شريفاً، وهذا يرجع للطريقة التي تحل بها قضاياك. فأنت مبدئياً ترفض كل القضايا التي لا تريح ضميرك، وترد أصحابها في أدب، وبرغم حنقهم عليك ساعتها لكنهم يكنون لك الاحترام... والقضايا التي تقبلها تقرؤها بضميرك أيضاً لا بدرايتك بالقانون، ثم إذا استقر لديك أن العدالة تكمن في جانبٍ ما بحثتَ عن النص القانوني الذي يناسبها، القضاة يحترمونك وموظفو المحكمة وأصحاب الحقوق، كما أنك ماهرٌ أو ماكرٌ عند الضرورة، تعيش قضاياك بكل تركيزك لكونها حكايات عرضت لضميرك وقررت الانتصار لها، وإنك في وقت طلب الأتعاب عفيف وربما أهبل فلماذا لا يحبك الناس؟!... أما أنا فقد أحببتُ صحبتك حين حدثتُك عن زاكي، إذ كان يتلفن إليك كل ليلة في ميعاد خروجك للسهر ويفتح باب مشكلة كبيرة قد تستغرق الليل كله، ويجمع عليك الناس في مكتبك يسألونك وتجاوبهم مجاناً في أغلب الأحوال... وكنتَ تنضم للسهرة في غاية الحقد على زاكي وعلى الفلاحين الذين جمعهم في مكتبك... فلما شتمتُ أنا زاكي في غيابه إرضاء لك

وقفتَ لي ساعتها وقلتَ: «إنه صاحبي»، فقلت لنفسي: «صاحبٌ مؤتمن على العيش والملح». فلما انتهى نور النديم من كلامه عنِّي سكَتَ كمن يسألني عن رأي الناس فيه هو، فلما ألحَّ في سؤاله قلت له: «يا صديقي الناس لا يفهمونك... يحبون حكاياتك ليلة الخميس ويرددونها لكنهم لا يعرفون من أنت ولم حللت بقريتنا، يسألون عن المنافع أو المشاكل التي سوف تأتي من ورائك، يسألون هل حقاً ستحارب عمك أسعد النديم على حقوقك أم أنك ولد هشٌ وهربان من ماضٍ مؤلم ومتاعب، وتناكف عمك ليلقي إليك ببعض النقود ثم ترحل، الناس يخشون أن تورطهم في مشاكل لا قبل لهم بها ثم تنسحب... فهل ستفعل يا صاحبي؟ »

مشكلتي في هذا الريف أنني لا أزرع ولا أحرث فليس لي قيراط في هذه القرية إلا ما كان من أمر البستان الذي نسهر فيه ويقوم على رعايته فلاح من أقاربي مقابل نصف الحصاد وربما نال الرجل أغلب المحصول لا يهمني، المهم أن أجد ورداً وظلاً مهيئاً في البستان وأنية الشاي معدة وعود نعناع أخضر، أربعة قراريط لا أكثر يشاركني فيهن فرحات، وكان مقرراً لنيازي شراكتنا فيهن لكنه أعتذر بحاجته لشراء بضائع للمحل الذي ورثه عن والده، بوسع نيازي أن يعد نفسه شريكاً، أنا وفرحات ونيازي من نفس الطينة الشاذة عن كل ما حولها فنحن لسنا فلاحين ولا من أبناء الفلاحين، نحن أفندية وتجار... لذلك تعارفنا وتصادقنا بسهولة منذ اليوم الأول في الدراسة الابتدائية، ورصَّنا المدرسون في دكةٍ واحدة لاختلاف ملابسنا وهندامنا عما يحلق بنا من أبناء الفلاحين، وكنا نهتم بالدرس لأنه بضاعتنا التي لا نعرف سواها، واستجابة لدفع أهالينا لنا وشقاهم علينا... ومنذ تلك الأيام ونحن نخوض الحياة متآزرين ونحلم سوياً، حتى رغبات العبث والشطط كانت تعودنا معاً وتصب في قناة واحدة. وكان أكثرنا شططاً على الدوام هو محمد فرحات، لا أعرف لماذا، ربما لأن أباه كان يمتلك مكتبة ضخمة، وكان محمد يحب أن يغوص في عالم الكتب والروايات كأبيه ويحب أن يقلد أبطال الروايات. أذكر أن أول عاهرة تعرفنا على جسدها في ذاكرة مريرة أتى بها فرحات إلى منزله في غياب أهله، وكلنا لم نفلح معها من شدة الخوف وعدم التصديق بأننا أوشكنا بالفعل على لمس امرأة. وجاء زميلٌ لنا

بالصدفة وعرف بالأمر فأخذها إلى حجرة أبوي فرحات وأسمعنا الصراخ الحار حتى كاد نيازي أن يغشى عليه، وقدم لهما فرحات بعد أن طرق باب الحجرة عصير جوافة فشربا، وطلبت المرأة أجرتها فأخذتها من يد فرحات دون كلمة ثم انصرفت مع الزميل العزيز. حين أصبح فرحات شاباً عشرينياً وجيهاً وأشقر صار ماركسياً كثير التردد بين القاهرة الكبيرة وبين قريتنا «ميت نور» التي على شمال السما وتسكنها العفاريت القديمة ولا تسألوني عن معني كلمة «ماركسي» فأنا والله ما أفهمها برغم المحاضرات الكثيرة التي ألقاها فرحات على مسامعي أنا وأخيكم نيازي، ورغم الندوات التي جرنا إليها جراً فكنا نستمع للشعر الوطني والشعارات الثخينة ونتظاهر بالاهتمام. واكتفيت من تلك الفترة بمحبة جمال عبد الناصر، كان ذلك أوضح شيء في كلامهم والذي نشترك فيه مع كل الناس... تلك الأيام كان فرحات يشبه دبلوماسياً وجيهاً في البالطو الأسود والكوفية الحمراء والبدلة الكاملة وكلامه الحاد المنمق... كان يؤمن بلا ضمانات ونصدقه، وكان أيضاً فاجر اللهو والمزاح يتهيب من ولوج التجارب الجديدة من دوننا فيجمعنا حوله، واضطر يوماً للكشف عن فيروس (C) في دمه وكانت طريقة الكشف آنذاك غشيمة ومخزية تقضي—ولا مؤاخذة— أن يضع الطبيب قضيباً حديدياً في است الرجل فإن صرخ أسكته الطبيب الجلف وأهانه. ذلك الطبيب الذي اختاره فرحات لنا بعد أن أقنعنا بضرورة الكشف عن هذا الفيروس اللعين في دمانا... وخرجتُ أنا من عند الطبيب طائر اللب أتلمس فرحات في أي مكان لأنتقم منه، وأخبرني نيازي بأن فرحات الغالي كان ينتظرنا في المقهى القريب من العيادة ثم سألني نيازي عن طبيعة الكشف فطمئنته ودفعته بيدي إلى حجرة الطبيب، وجاءنا نيازي بعد ساعة عند المقهى خزيان ونظر إلى كلينا فتفلت الضحك من حيث تحذرنا، وأقسمنا على سرية الأمر وعلى الانتقام من فرحات في أقرب فرصة. ثم تحول فرحات من ماركسي وجيه إلى سلفي طويل اللحية قصير الجلباب! كان قد ملَّ من الهتافات وتكشفت له حقائق لم يسعها ضميره الطيب من أحزاب المعارضة التي تعلق صور عبد الناصر وجيفارا. وأطلنا كلنا لحانا وألبسنا أزواجنا النقاب وتجهمنا في وجه الدنيا، رددنا قناعته وابتلعناها مرغمين كلنا ثقة بقلب فرحات الذي لن يحيد بنا عن الطريق السوية. لكنني بعد أيام ذهبتُ حليقاً إلى دكان نيازي

فلم يعقب وهذَّب من بعدي لحيته نيازي وابتسم فرحات حين رآنا، ولكنه انقطع بعدها عنا، إلا من صلاة الفجر... فقد كان يلمس جرس الباب بتأنٍ ثم يختفي قبل أن نفتح النوافذ، وسمعنا بأنه بات إماماً متفقهاً يعتلي المنابر، وكانوا يعدونه لتعبئة شريط ينهى عن المنكر والمباح، لكنه فاجأ الجميع بتهذيب لحيته وتحديدها وارتدي البلوفر من تحت البدلة وكان ينقصه طربوشٌ أحمر لتحسبه من بعيدٍ حسن البنا خرج من كتب التاريخ يجمع الإخوان حوله. وتذكرت أنا ونيازي قضيب الحديد فوجدنا مسألة الإخوان أشد وجعاً ونكاية، فإن كانت ثمة حقيقة ونصيحة واجبة في مصر تلقنها لولدك فهي: «لا تكن إخوانياً أبداً ولا متعاطفاً فهم لا يستحقون التعاطف». وأشفقنا على فرحات لَّما زجَّ بنفسه إليه... وبلا شك تمنينا له السلامة... فرحات هو المعلم الأول في قريتنا، لشبابها على الأقل، وقد اتبعه كثيرون في كل أطواره وأحواله فتركهم هناك ثم عاد وحده بلا قصد منه إلى الخذلان، وقد أفدنا منه في كل أحواله، ناقشنا معه الفقه والمواريث والشريعة مناقشة جادة ومتأنية وناقشنا التاريخ والسينما والروايات والموسيقي، وقد عصمنا من خوض تجارب عديدة في هذي الحياة ووفر علينا عناء القراءة، كان فرحات يجرب الحياة ويقصها علينا حتى في مراهقتنا كان هو صاحب المجلات والفيديو وكان لوسامته وأناقته ينصحنا الأهل باتباعه والمذاكرة معه، وبجيد التخفي خلف بسمته المهذبة والناس في قريتنا يحبون أخي فرحات مهما تقلب ويعدونه أستاذاً مثقفاً وشيخاً عالماً ورجلاً طيباً يركن إليه... ناولوني كؤوس الشاي فأعللكم يا سادتي أرجوكم واقترب يا أستاذ من المجلس مالك بعيد ..

«لسه فاكر قلبي يديلك أمااان... ولا فاكر كلمة هتعيد اللى كان»

«الله الله... نورتم وآنستم يا كرام... المهم، وجلست أنا ونيازي في أيامنا تلك نراقب الأخبار ونرى في التلفاز... أخبار فض الميادين والقوانين التي فرضتها الدولة على الجميع، وارتحتُ أنا لذلك، كان لابد من تدخل العقلاء الأقوياء أم كنا سنقضي بقية أعمارنا رقصاً وغناء في الميادين وشعارات حلوة لكنها لا تعمر القرى ولا تطعم البيوت. وبحثت بعيني وبأذني عن صديقي فرحات فلم أجد له أثراً ولا صليلاً، حتى مشى في القرية أنه عاد

وأنه يصادق رجلاً غريباً عن البلدة لا يعرفه أحدٌ منا، ذلك الرجل وصفه من رآه بأنه سرحان على الدوام لحيته مرسلة ويبتسم لنفسه في الطريق ويحزن وربما ضحك. لكنه إن تكلم أحسن الحديث. وانتظرنا أن يعود فرحات إلى مقعده بيننا فلم يعد، وحكى الناس أن فرحات يعود الرجل صبحاً ومساءً ويطيل المكث لديه، ذلك ما أجج مشاعر الفضول والغيرة عندي ومال نيازي يُسِرُّ إليَّ بأن الرجل المقصود ربما كان قيادياً كبيراً في جماعة الإخوان يخبئه فرحات. وتنوقلت الشائعات في القرية حتى التقيتُ فرحات بنفسي ذات ليلة في شارعٍ ساكت من القرية تونسه الكلاب، فلما رأيت صاحبي أنكرته، لم يعد ذلك الرجل الوسيم المتأنق طويل القامة، بل بات كهلاً محني الظهر ملفوفاً في عباءة سوداء يحرك شفتيه كمن يهذي، ولم يسعني لمواساته أكثر من احتضانه فبكى، وتمشينا حول القرية ثم أخبرني همساً أنه يخبئ نور النديم من عمه، وكنتُ أعرفُ نور النديم من سنواتٍ ليست بعيدة فطلبت من فرحات أن يأخذني فوعد بتهيئة لقاء يجمعنا من الغد.

ولم تكن لي كما سمعتم أدنى علاقة بالسياسة، وإنما مسألة ترشحي للبرلمان جاءت صدفة ومن غير ترتيب مثل لقائنا هذه الليلة أو هاهنا في البستان، وهل كان في وهمي أو في تصوري أن أقف نداً لأسعد النديم –مارد القصص القديمة في قريتنا– نتبارى كلانا على كسب ولاء الناس؟! أبداً، ومن يخبركم أنه كان في وسعي أو في استطاعة رجل من القرية منافسة الحاج أسعد إلى أي شيء فقد كذبكم... على كل حالٍ موعد الانتخابات لم يحن بعد ولم يحدد، وإن كانت طبول المنافسة تهدر في أرجاء القرية وتشاور على أسماء بعينها اسمي واحد منها... الأمور كلها حدثت بالصدفة لكنها كانت صدفة ملحة ودافعة بعض الشيء، بدأ كل شيء في الانتخابات التي أعقبت الثورة الأولى، وكنت جالساً مع زوجتي أم عمر في شرفة من البيت نشرب شاي العصر فسمعنا طبولاً ووقع أقدام تدق بثقة على أديم القرية، فلما نظرنا عرفنا بيارق ورجال سيد عبد المتعال، كان معروفاً في قريتنا بأنه ساحر وابن ساحرة عظيمة الكيد، كم خربت بيوتاً بسحرها وبدلت هيئات كثيرٍ من الرجال إلى خراف وبهائم وقراميط. فلما ماتت أمه سافر هو سنين طويلة حتى نسيه الناس، ثم عاد فجأة ومعه أموالٌ ولديه حظوة من

الحكومة وأتباعٌ من الدراويش يسملون أعينهم طاعة له ويلقون بأولادهم في النهر لو أشار عليهم، وبدا واضحاً لي ولزوجي أن الموكب كان يقصد بيتنا. ثم أشار سيد عبد المتعال يومها إلى أتباعه بأصبعين تلتف عليهما مسبحةٌ زرقاء فأقعوا مترقبين لنتيجة لقائي معه، ولم تسعهم الباحة التي بين منزلي بين ومبني الجمعية الزراعية. وقرَّب الرجل يمناه مِنّي فمددتُ إليه يدي ووعدت بنصرته، رجلٌ تطاول لمنافسة أسعد في الزعامة وبدا قادراً عليها... لا تحسبوا بيني وبين أسعد عداوة هي التي جعلتني أنافسه الآن أو جعلتني أساند من كان ينافسه، أنا لا أكره أسعد، وأراه من نواحٍ كثيرة رجلاً استطاع أن يبني عائلة وملكاً قوياً بعقله قبل سطوته، دعكم منّ كلام محمد فرحات ومن كلام نور النديم عنه، فالرجل مجاملٌ وخفيف الظل ولا يقلل من شأن الرجال، ورغم ما كان بين أبي وبينه لكنه كان إن حدثني عن أبي يقول: «رحم الله أباك كان رجلاً وخلف رجلاً من بعده»، وكان يرسل قضايا كثيرة إلى مكتبي بعد أن لمع اسمي في القرية وفي القرى المجاورة، أكثر ما يعيبه أهل القرية عليه وأنا معهم هو حظوته لأهله دون غيرهم واختصاصهم بالوظائف والمناصب. فأصبح أسعد بفضل حدبه على أهله يجد عن يمينه صفاً من كبار الضباط، وعن يساره وكلاء النيابة والقضاة، وصفاً من محاسبي البنوك ومديري العموم وكبار التجار والزراع، وصفوفاً محدقة به من أمناء الشرطة وعساكر الجيش ومن وراء ذلك يقف رجال عائلة العبد بالنبابيت...أي مُلك! وأي رجلٍ غيره استطاع أن يُعَبِّد لنفسه ولأهله الطريق إلى هذا الملك؟! كما أنه رجلٌ وجيه تشرف القرية كلها بملامسة كفه والحديث إليه... أنا بكل أمانة أحترم الحاج أسعد وأقدر ذكاءه وأظنه طيلة الوقت يحترمني، بل ويعتبرني صمام الأمان في علاقته المتوترة بابن أخيه نور النديم صاحبي.

كانَ نور في كثير من الأحيان يغلب خيال الحكايات على الواقع الممكن والمقبول وكان ذلك يطعن في عقله لدى كثير من جُلاسنا، ونور هو الذي نصحني بحكاية الترشح للبرلمان أول مرة... كنا عائدَين من مجلس إصلاحٍ بين رجل وامرأته، وقد وفقنا الله للإصلاح وارتضى الناس كلامي وحكمي منّ كلا الطرفين، فعدت مسروراً في صحبة نور متجهَين إلى البستان فقال لي:

- الحكاية ممكنة يا أحمد.
- أي حكاية؟
- الناس يحبونك ويحبون أباك من قبلك.
- ثم؟
- تنافس أسعد للبرلمان.

كان دليله الوحيد على وهمه أن الحكاية ممكنة من وجهة نظره، ولم يكتف بحديثه معي، بل عاد يناقش الأمر داخل الكوخ بين زاكي وشوقي العبد وسواهم من كبراء البلد دون تهيب ولا تمهيد، فنهره زاكي وأوشك أن يطرده من البستان ولو استطاع من القرية كلها، وكنت متفهماً خوف زاكي وقد رأي أن نور النديم يورطني في مشاكله ويضعني في طريق الرصاصة التي يدخرها أسعد لمثل هذه الأمور. وضحك شوقي العبد من الأمر وأضحك الجالسين مِنّي وليس من حديث نور، ونالني تجريحٌ شمل عائلتي، وتعرض لقله عددهم في القرية وهوانهم على الناس. فأسكتُّ أنا شوقي بكلماتٍ قاسية شهد الجميع بحدتها، وطالبوني بالاعتذار فلم أفعل، وكانت ليلة نكدة لم نلتق ولم نسهر على أثرها ليلتين، ثم جاءني بعدها مرزوق الخولي إلى مكتبي فحررت له حزمه عقود بيع وشراء في أراضي الكاردون الجديد، ثم مال على يستأمنني على سر، كان في نية مرزوق أن يجمع أهله في رابطة من دون الناس وأن يبني لهم دواراً يتشاورون فيه ويجتمعون على النحو الذي تفعله عائلة النديم وعائلة العبد، وعائلة الخولي كثيرة العدد ربما أكبر من عائلتي النديم والعبد مجتمعين، لكنهم كانوا فقراء قريتنا طوال الزمن القديم حتى تغير الزمان وسافروا كلهم إلى الخليج بحرف النجارة وبناء المسلحات والحدادة ثم عادوا وتاجروا في كل شيء وغامروا حتى تملكوا العمارات والعقارات ورقعة كبيرة من أراضي القرية، وكان مرزوق أشدهم طموحاً... أراد أن يوظف محامياً للرابطة ويعين من يقوم على حساباتها، فسألني عن التكييف القانوني للرابطة ثم سألني بعدها إن كنت جاداً في نيتي للترشح للبرلمان؟ فغمغمت... وشد مرزوق على عظام كتفي لأنتبه إليه وقال: «الدنيا تتغير يا أحمد، ونور رجل ذكي... صدقني الحكاية ممكنة ونحن نساندك».

بعد أسابيع قليلة بات نور يعرف عن كل قضايا مكتبي، وكان يمشي إلى مجالس الصلح والفصل سواء معي أم في صحبة شوقي العبد، وقامت بينهما صداقة شهدت عليها قريتنا كلها، وألبسه شوقي الجلباب الفلاحي وتأبطه في كل ممشى، وكان يحلو لنور أن يخطر بالجلباب أمام دوار عمه وتدَخَّل بشغفٍ في حكاياتنا وعرَّض كثيراً بعمه أسعد النديم. وجدنا حكاياته بدعة جديدة تلقفتها قريتنا بالشائعات وعقدوا عليه الآمال ووصفوه كثيراً بالجنون، وكان أول من نعته بالجنون بعد عمه هو شوقي العبد –بكل أسف– وليس زاكي كما كان نور يظن، حدث ذلك ذات سهرةٍ في البستان دعا فيها شوقي نفراً من وجهاء القرية واشترى حشيشاً يكفي ليلتين، واشترى بسبوسة وفاكهة وبضع زجاجات بيرة لضيوفه، وقد عامل نور ليلتها بطريقة مهينة ليشهد الكبراء كيف يعامل ابن أخي أسعد النديم وكيف يسند إليه مهام غسل الفاكهة وآنية الشاي ورص الفحم وكيف يدعوه بـ «واد يا نور» بين الجميع ويسخر من آل النديم كلهم، وللشهادة فقد أظهر نور حلماً لم أتوقعه حتى فاض به الصبر وركل الآنية بين يدي شوقي وبعثر الفاكهة وأسكت الجميع: «وهل تأتمر سباعها لضباعها يا شوقي!»، ولو انشقت الأرض وابتلعت شوقي ليلتها لكان خيراً لماء وجهه الذي أراقه نور، بينما عدَّد أمامنا مثالب شوقي وأهله، وسخر من شكله ووجهه وقال نور نهاية: «حذائي وحده يزن رجالاً من هذا المجلس يا شوقي». وكان متطرفاً في نرجسيته ولكن حتى زاكي أعجب به من ليلتها، فلم يَبدُ لزاكي ولا للناس ولداً هشاً، وبدا قادراً على محاربة الجميع. وتصدعت العلاقة بينهما ولم يرأب الكلام و لا محاولات الصلح شيئاً مما كان بينهما، كلاهما بدا كمن يري صاحبه للمرة الأولي وأنكره، ثم حانت الليلة التي اصطدمت أنا نفسي فيها بعنجهية شوقي وفخره بنفسه وأهله دون الناس... مشكلة شوقي أنه يحب الرياسة في المجالس، ويقلد أسعد النديم في مزاحه حين يسب من يأمنه... لكن شوقي ليس عنده الكمبيوتر الذي في دماغ أسعد الذي يحسب به للأمور... وجاء شوقي إلى باب مكتبي معتذراً، وكانت بيني وبين نور سيجارة حشيش نتداولها فضحك ودلف وكان ممسكاً في يده بملف قضية، قضية الدكتور كما سماها الناس بعد ذلك.

أنا الذي هو أنا

الذي هو أنا الذي هو أنا، حسين منصور الدرغامي، سيد الحكايات، ولست نور النديم. وهذا عين ما توقعته من أخي وصاحبي أحمد الجنوبي. أن يأخذكم في حكايات كثيرة ويخبئني في السطور، ربما إن لم أتدخل الآن في الحديث لكلمكم أحمد عن النساء والعشق والهوى فهو يحسن الكلام في ذلك، وأكثركم ينصتون لكلام الهوى. لكني أسألكم أين خبأ الجنوبي صاحبيه فرحات ونيازي وقد بدأت الحكايات معهما؟ ما حدث أنهم أخبروني أنني أشبه نور النديم شكلاً وموضوعاً، حتى طريقتي في الكلام والضحك والغضب وكانوا يدعونني نوراً ثم يستدركون، وهذا الشيخ نيازي تقيّ القرية كم هز رأسه، ووافق على كلامهم: «يا سلام! كم تذكرنا بنور صاحبنا سبحان الله، لكأنك هو!»، ثم رأوا بعد مشورةٍ بينهم أن ينزلوا بي إلى القرية، فمرت بنا سيارة أسعد النديم وتوقفت، ثم نزل منها أسعد يتبعه أهلٌ وخدم ونفر من فلاحي الغيطان، ووجدت أسعد يخرف بكلمات غريبة حيث قال لي.

– يا بن أخي... كان من الواجب أن تمر بعمك حال نزولك قريتنا.
– لست ابن أخيك وهل تطالبني باستخراج تصريح حتى أمشي في القرية!

يا حول الله، ربنا يهديك يا بن أخي. وقد دربوني بتكرار النداء أن ألتفت كلما قال أحدهم «يا نور»، وأن أبتسم، ثم باتوا من بعدها لا يستدركون. وجاءتنا الأيام بأقدار سيئة عمت القرية كلها وابتدت بجنايتها على صاحبنا فرحات لما زاره رجال أمن الدولة حال غيابه عن منزله وبعثروا الأثاث وأهانوا شيبة والده، وقيل في ذلك ما ليس غريباً على سادية هؤلاء الزوار منذ خلقهم الله. وشاع بين الناس أنهم صفعوا الرجل على وجهه، ذلك المحترم المثقف والذي كان يؤمن بالدولة وبضرورة تخطي القوانين في

تلك الفترة الحرجة، فلما حاول الأستاذ أحمد فرحات أن يتحدث إلى الضباط بأريحية وشياكة باغته الضابط بتلك الصفعة التي آلمت روحه من قبل أن تلمس وجهه الطيب، فتجمعت الدماء في مخه وتخثرت دهشة واعوجت شفتاه، ومادَ فسقط على الأرض، حتى أنه نظر إلى الله لحظة السقوط وعاتبه، فلما انصرفوا عن المنزل مسرعين كأن لم يقتلوا فيه رجلاً ونقله أهله إلى المستشفى، ثم إلى العيادة الخاصة وحين يأس الأطباء من إذابة الجلطات العديدة التي رسخت في دماغه سمحوا بنقله إلى منزله ليموت ميتة هادئة. وكان الجزء الواعي من دماغ الأب مستغرقاً في الذكريات البعيدة، وجزءٌ آخر كان يكفر ويتنصل من كل القناعات التي اعتنقها في حياته تباعاً، حتى استقر وعيه أخيراً في دهشه بيضاء بلا معنى وعين زائغة، وكان يسأل عن ابنه محمد الذي كان هربان من الحكومة في مولد سيدي علي زين العابدين، فلما فاء محمد وعرفه والده شد على يديه كمن يؤيده ويسامحه، ثم أسبل الأبن جفن أبيه. وسمعت قريتنا في نفس الليلة صراخاً متجاوباً على شبابٍ ثلاثة قتلهم البوليس بلا تحقيق ولا محاكمة، كانت كما أشاع الناس تصفية، وتغشَّى قريتنا الحزن وفتحت القبور... كان الناس أكثر يسألون عن حدود الكلام المسموح به، وعن الضمانة التي تعصمهم من السجن والقتل بالشبهة والتلفيق، ماذا لو هلفطوا قليلاً بالكلام؟ ووقفنا مع فرحات في جنازة أبيه، واستدرجناه بلطفٍ إلى مكتب الجنوبي ليبكي على راحته لو شاء، فوجدناه غاضباً لا يريم، وحاولنا مواساته فردَّ ذلك كله واتكأ بظهره لكنبة الأنترية. ليلتها تكلمنا أنا والجنوبي في مواضيعَ متفرقة أهمها كان مقارنة استدعت كلاماً كثيراً بين سعد زغلول ومصطفى الهلباوي، ذلك المحامي الذي ترافع ضد فلاحي دنشواي، وقال أحمد إن كل دفوع الهلباوي كانت صحيحة وتُدَرَّس من الناحية القانونية، لكن... واعتدل فرحات في متكئه كمن فوجئ بتواجده بيننا.

– أي تاريخ ابن قحبة تتحدثان عنه؟!
– معذرة!
– لا حلم ولا معذرة... اسألوا زاكي عمَّا أخبرني به

– أخبرنا زاكي أن أسعد النديم هو الذي حرك أمن الدولة إلى بيتكم.

وكان زاكي قد جاءه خبرٌ من ضابطٍ قريب له هو في مقام ابن خالته، وقال أحمد الجنوبي إن الأمر متعلق بك وأشار نحوي أنا –الذي هو أنا– فتعجبت من ذلك، ووقفت من غير داعٍ وطلبت الشرح، فلما هم أحمد بالكلام قاطعه فرحات قائلاً لي:

– هل تود حقاً تغيير القدر، سمعتك تقول ذلك في بعض كلامك.

فسألته مجاراة لغضبه:

– وهل في وسعي؟
– ربما.
– اتكلم يا فرحات أو استرح أرجوك.

مات أبي رحمة الله عليه بعدما رآني كهلاً، فكنتُ أبكي اليوم على فراق صديق لي، وموت الصديق يحاسبك على عمرك. وقد تألمت ساقي وظهري من طول الوقفة في صدر السرادق أتلقى العزاء، فرأيتُ أنني أكبر أيضاً، وفي يومٍ ما قريب أو بعيد سوف يلحدني ابني ويقف في عزائي، أنا وابني وأبي وجدي عاصرنا أسعد النديم. إذا فالشر معمرٌ ولا معنى للتغاضي عنه أو للصبر عليه، إني لأعجب من أسعد كيف ينظر إلى بيوت قريتنا حال مروره بنا، أي كلام تحدثه به نفسه عن قاطني هذه البيوت؟ طوال هذه السنين لم يجرؤ أحدنا على الوقوف في وجه أسعد ولو على سبيل الجنون، الوحيد الذي فعلها كان أبوك يا أحمد حين أغرق لأسعد أرضه عيناً بعين، أما نحن فَحُمْنَا حول المواجهة ولم نفعلها، أنت محامٍ يحبك الناس وأنا بحثت في الكتب عن بطل أو قيمة تلهيني وتثأر لي، أما صاحبنا الذي حل بالقرية فقد أحجم تماماً عن الحياة ويصارع الطغاة فقط على ورق أبيض في حكاياته.

- يا عم فرحات نحن لا سياسيون ولا إخوان... أنت غضبان استهد بالله.
- معلون أبو الإخوان على الماركسيين في بلدنا كلهم أولاد كلب.
- رحمة الله على أبي أخبرني بذلك ومات.
- حتى الذين ماتوا فوق أسرتهم وبين أهليهم قتلهم أسعد كمداً وصبراً. كلنا لنا ثأر عند أسعد.
- يا نهار أسود! سياسة في مكتبي يا فرحات، أنا عندي عيال يا صاحبي.
- من قال سياسة؟؟؟؟؟؟!
- أسعد هو الدولة.
- نعم أسعد هو الدولة بلا شك.
- ربما ليس هو الدولة كما تظنان، ربما ملوا من سيرته العفنة التي باتت تسئ إليهم، ربما هبط سيد عبد المتعال إلى قريتنا في الثورة لأن الدولة باتت مكسوفة من جرائم أسعد... حتى مع غياب القوانين تحتاج الدولة إلى مبررين جدد كل حين.
- أنا أيضاً أفكر في الثأر... لكن هيهات.... هل تقتله.
- فرحات، خذ صاحبك وارحلا من غير مطرود والنبي.
- لن نقتل... اطمئنا... لكننا سنؤلب الناس عليه.
- كان غيرك أكثر وأشطر.
- أسعد النديم يتجهز للانتخابات وسيتحدث إلى الناس... لا أعلم كيف سيحدثهم أو كيف سيقبلون به من جديد... لكن الحكومة عينها عليه، إن استطاع أن يجمعهم دون أن تصل إليهم الفضائح فسيركب وبعده ولده أو مغامر مثله... نحن أيضاً سنتحدث مع الناس، نسبقه إليهم... نجلس معهم في تجمعات صغيرة لا يترصدها البوليس... في سهرات الحشيش حتى، وحول أغنية هادئة في البستان، ربما نلفت نظرهم إلى ضعف أسعد وضرورة تحديه، ربما يقص عليهم سيد الحكايات قصة جديدة عن أسعد

ولديه منها الكثير، ومن ذا الذي يفتش يا عم أحمد في أكواخ المساطيل؟

- والله ما مسطول غيرك، أنت اتهبلت يا ولا، تحارب أسعد بالحكايات؟!
- الحكايات لم تقم بثورة ذات يوم، نحن نكتب من باب أضعف الإيمان، لكني أجد شيئاً فيما يقوله فرحات معقولاً، وأرى الحكاية ممكنة.
- عظيم، ناقشا ذلك أرجوكما في طريق العودة... الله يخرب بيوتكم... حكايات وكلام، سنحارب أسعد بالكلام وبالحكايات! وفيم كل هذه القسوة؟ الطيب أحسن!
- وبالقانون يا عم أحمد، بل وربما نلجأ ذات يوم للتصادم بالأيدي مع عصابته، كل شيء مباح، لكن حينما يسرد نور النديم حكايات عمه وفضائحه على الناس سينصت الفلاحون إليه ولديهم حالئذٍ عاصمٌ من بطش أسعد... سيقولون له معذرة يا حاج امنع ابن أخيك من الكلام أولاً... لُم عليه ولا تلم علينا.

وسألتُ أنا فرحات عن معنى كلامه الأخير:

- لكن نور النديم قتله أسعد، أنتم أخبرتموني بذلك؟!

فقال فرحات يشرح:

- نور النديم يعيش بيننا منذ أكثر من شهرين والناس يعلمون بوجوده وينتظرون أن يقص عليهم حكايته، وهو بالمناسبة ملقب بسيد الحكايات.

واستطرد فرحات:

- سامحني يا صديقي، بعدما آويتك إلى مخبئك ترصدني بعض الناس وسألوني عنك، عن ضيفي الذي لا يعرفونه فأخبرتهم

بأنك نور النديم، خرجت من لساني أولاً ثم فكرت فيها فقلت ولم لا؟ بهذه الكذبة فكرت أن أخبئك وأن أشغل أسعد النديم بنفسه عنا.

– من أجل ذلك دعاني أسعد بابن أخيه وسط الناس... لكن لماذا يفعل ذلك؟

فأجاب أحمد:

– لو كذَّب أسعد بين الناس أنك نور ابن أخيه لكان عليه أن يستدعي نور الأصلي حيثما كان وبسرعة، وكونه لم يفعل هو ما أكد لي أنه قتل نور النديم.
– وكنت أنا أخر من يعلم؟ أنتم خدعتموني يا صاحبي.
– أنا لا شأن لي وكلامك مع فرحات.
– كنت تعلم منذ أسابيع ونيازي كذلك!
– وَعَدنا هذا الرجل بمفاتحتك في الأمر ومصارحتك... وقد فعل.
– يمكنك أن ترفض... وسوف نؤمن لك مخبئاً آخر حتى تهدأ الأمور.
– لن أرفض طبعاً... لكنني منذ هذه اللحظة شريك... ليس يوسعكم إخفاء أي شيء عني.

ذكرني فرحات والجنوبي بكلام العفريت عن نور النديم، ثم لدهشتي سألني أحمد: «ما لعينك حمراء؟» ... فقلت: «لا يهم... لا يهم... فلنفكر في خطوتنا التالية، فلما كانت مشكلة نيازي مع أصهاره من العبيد وقفنا عصبة وأقرت البلدة كلها بحقي عند أسعد النديم، وكان أسعد ينظر نحوي بغيظ ووعيد لكنه لم يكن في وسعه التنصل من دعواي ضده... كل الذي أمكنه ساعتها أن يرميني بالجنون».

وعرض شوقي قضية ابن عمه على أحمد أكثر من مرة فرفضها، وقال أحمد: «قد نسيتُ كل شيء عن ليلة الكوخ يا شوقي ولا خصام بيننا، لكنني

أرفض القضية... ولدٌ في العشرين من أقارب شوقي قد صدم أستاذاً دكتوراً في كلية الطب بالموتوسيكل وقد دهمه الولد أمام المستشفى، أمامها تماماً والناس كانوا خارجين من صلاة العصر من جامع المستشفى وبينهم ذلك الطبيب المحترم الخلوق... وجلس أحمد يشرح لنا ضآلة فرصة الولد في الحصول على براءة أو حكم مخفف، وكون الولد من عائلة العبد – لا تؤاخذني – جعل ضابط المباحث يملأ المحضر بنفسه وكون المصاب بروفيسوراً في الجامعة جعل نوباتجية الطوارئ في المستشفى يكتبون تقريراً طبياً استغرقهم ثلاثة أيام. وتدخلت أنا وقتها بسؤال لأحمد:

– وهل هذا طبيعي؟
– ماذا؟
– أقصد أن يستغرق كتابة التقرير ثلاثة أيام؟

وهز شوقي رأسه:

– اسمع يا أستاذ أحمد، ربنا قال احكموا بالعدل...أنتم حتى لم تقرأوا الملف بتأنٍ وحكمتم على الولد... شاكرين يا صاحبي لأفضالك.

وهمَّ شوقي أن ينصرف فاستوقفته لدي الباب وتناولت منه الملف، ووعدته بإعادة النظر في القضية، بينما غلبت أحمد الدهشة من جرأتي ولم يشأ أن يخزيني أمام شوقي حتى انصرف، فقال الجنوبي:

– اسمع يا صاحبي: نظرنا سوياً في قضايا المكتب لأنني كنت أستأنس برأيك كصاحب يجلس عن يميني ولكن ليس من حقك قبول القضايا أو رفضها نيابة عني.
– أنا لم أعد شوقي بأي شيء، مازال بوسعك أن ترفض ويحسب لي عند شوقي فضل الإلحاح عليك، أنت علمتني أن القانون يساند الحكاية المعقولة وأن القضاة يَمَلون الكلام في القوانين والنصوص وأنا يا صاحبي أقسم لك أن رواية الدكتور غير

معقولة ولا ممكنة، ربما ضربه الولد بالموتوسيكل ولكن الدكتور كذاب.

– الدكتور كذاب؟!

– والولد مخطئ شريف... هل عندك استعداد لسماع حكاية عن ذلك.

– عُمر ابني وُلد على يد هذا الدكتور... أنت لا تدري أي رجل صالح هو ولا كم يحبه الناس.

– عظيم، ابدأ مرافعتك بالكلمتين دول، المشكلة التي ستواجه أي محامٍ في هذه القضية، هي قناعة القضاة والنيابة وحتى الحاجب، أنها قضية كل الطيبة والعلم والأخلاق في مقابل الرعونة والاستهتار.

فقال أحمد يتصفح الملف:

– مع إن تقرير المعاينة والله فيه كلام... كيف طار الولد بالموتوسيكل فوق طوار المسجد وهو طوارٌ مرتفع ويحفه باعة الخضار والساندويتشات والمتسولون... وإن حدث كان من الضروري أن يصطدم الولد بأشياء كثيرة أخري ويصاب هو نفسه.

– وأنت لا تنكر مجاملة أطباء النوباتجية لأستاذهم ورئيسهم في نفس المستشفى... ثلاثة أيام في تقرير مبدئي؟!

– تراخٍ واضح بلا شك، وذكروا أنهم نقلوه للداخل يعاني من ارتجاجٍ قويٍ في المخ وكسور ورضوض، رغم ذلك فقد ميز الفاعل وقال إنه أمسك به قبل أن يفر.

– الولد هو الذي حمل الدكتور إلى داخل المستشفى وعرَّف بنفسه وبأخته التي تعمل طبيبة في نفس المستشفى. لا أعرف ما الذي حمل الدكتور على الكذب لكنه كذب وأعد تقرير الطبي كما يحلو له. يعني الأمر بُيِّت بليل.

– حلوة "بُيت بليل" دي!! موكلي مخطئ شريف والدكتور كذاب.

ويحكي لكم أحمد الجنوبي عن ذلك اليوم لأنه شهده ولم أشهده.

«نعم سأحكي وأقاطعك كما فعلت معي يا نور، في ذلك اليوم جمع طارق بك الشاذلي الأسلحة من رجال عائلة العبد قبل أن يسمح لهم بالدخول إلى فناء المحكمة، وطلب تعزيزات أمنية من المديرية في شبين الكوم فحضروا في ضوضاء عظيمة، وكان متفهماً كعادته إذ سمح للولد بالدخول إلى قاعة المحكمة دون إهانة... سلمته بيدي لحارس القفص وأخذته أيضاً منهم بعد البراءة... نعم البراءة التي لم تكن أبداً متوقعة، وسمح طارق بك ببعض الأعيرة التي أطلقت في الهواء على سبيل الاحتفال، واجتمع رجال عائلة العبد من حولي يشدون على ذراعي بأخوة وشكر، وكعادتهم القديمة في الهتاف لدى كل جمعٍ كبيرٍ منهم، فقد هتفوا باسمي... وعلمت حينئذٍ ما كان صاحبي يقصد بقوة الحكايات... وجاء أسعد النديم فرأى الأعيرة النارية والحناجر تهدر باسم غير اسمه، وعائلة العبد ملتفين حول رجلٍ سواه... وكان قد تشفع لدي الطبيب المصاب قبل المحاكمة فرد الطبيب شفاعته عليه، بل وردَّ من قبلها حكماً عرفياً قضي للطبيب بنصف مليون جنيه لرغبة الدكتور في إحراج العائلة وحبس ابنهم، وهذا دافعٌ يَعرفُ سببَه من عاش في قريتنا. وعلى الفور نشر أسعد عبايته وضمني إليه:

– قلت لكم أحمد الجنوبي واحدٌ من رجالنا... والله ورفعت راسي يا أحمد.

فبلعتها وكتمت الزهو في نفسي، فما الداعي للزهو إن كانت القرية كلها باتت تقول قضية الدكتور وأحمد الجنوبي؟ وكان لدى أسعد كلامٌ يرغب أن يمليه عليّ، واتفقنا على اللقاء بعد أيام، لكنه لم ينتظر لأكثر من سواد الليل وفي الضحى التالي جاءني سائقه عبد القادر الزناتي في نقابة المحامين وأسرَّ إليّ أن أسعد كان ينتظرني في دواره الكبير، وربت أسعد على كتفي لأجلس دون تكليف.

- إخص عليك يا أحمد يا جنوبي، مادامت لك رغبة في عضوية المجلس المحلي لِم لَم تفاتحني، الولد شوقي أخبرني برغبتك هذه فأقسمتُ أن أحذف اسمه وأضعك بدلاً منه.
- لم تكن رغبة يا حاج كان كلاماً.
- ولم؟ اعتبر نفسك في المجلس. المحلي يا أحمد.
- شكراً يا حاج أسعد.
- قل لي يا عمي... أبوك كان حبيبي يا أحمد، بالمناسبة... عَقّل نور يا جنوبي، وقل له عيب نقف لبعضنا في المحاكم.
- والله يا حاج أحبُّ شيء لنفسي، لكن الشورى بينك وبين ابن أخيك... اتفقا ولا داعي للمحاكم.
- يشوف له محام ثان.
- وترضاها لي يا عمي... الرجل تعشم فيَّ. لعل وعسى يكون الصلح وأكون واسطة خير.

علمنا بعد ذلك أن أسعد كان يراقبنا طيلة الوقت ويرسل من يدسهم في جلساتنا وينقلون الحديث إليه، لكننا لم نكن نخشى أن يتعرض لنا أسعد بسوء، بل على العكس كنا محمِّن بفكرة عداوته لنا ونقمته على ابن أخيه، ليس معني ذلك أننا لم يطلنا سوءٌ من ناحيته، بل نالنا الكثير. وأكثر من تأذَّى من بيننا هو فرحات الذي بات البوليس يترصده أمام البيت وأمام المدرسة التي يعمل فيها، وأمست عادة فرحات أن يهرب في الموالد، ربما اصطدم بكتف أحدكم في مولد الحسين أو السيدة نفيسة أو السيدة زينب يطلب النصرة والمدد. هذا الفتي –الذي لو أصبح سفيراً أو وزيراً لملأ مركزه وفاض عليه– نام في الخيام، وكان يزور عياله متخفياً ويزورنا في البستان خلسة في خواتيم السهرة، وبات نحيلاً للغاية، لكنه كان سعيداً، فقد أحبّ، اعترف لي وحدي أنه أغرم بامرأة أسرَّ اسمها ومحاسنها عنِّي. أنا أقرب أصحابه إليه، صار متيماً بها من دون أن تعرف هي حتى مبلغ حبه، يبدو أنها كانت من هوانم المتصوفة وخجل عن البوح لها. قال إن الحب أفنى جسده وأذهله عن نفسه فما عاد يبالي بشقائه، أخبرني أنه للمرة الأولي يفكر في

تأليف كتاب عن مؤسسي الليبرالية في مصر وعلى رأسهم الإمام محمد عبده... وكتاباً أخر ثم قال: «فتح... فتوح» وأغشي عليه. واتخذ نور أيضاً من قريتنا خليلة...»

- ليست خليلة يا أحمد، اسمها المانعة وكانت حبيبتي.
- من أين أسمعك يا صاحبي، وكيف تقاطعني من دون أن أراك؟!
- لا أعرف أين أنا، ولا أرى حتى حدود جسدي... ربما تسمعني من ضميرك يا أحمد.
- أنت لم تحب «المانعة»
- تقول ذلك لأنك لم تحب «أسرار»
- بل أحببتها، كنت سأضحي من أجلها بكل شيء لو عادت، لكنها اختفت من بعدك حيث تختفون ولا تعودون! وسأصارح الناس حتى تصدقني...

«اسمعوا يا من جئتم تسألون عن نور صاحبي الغائب، ربما أشيع أو أخبركم رجال من البلدة أن نور أحبَّ امرأة تدعى أسرار أو هي أحبته، هذا كلام فارغ، أسرار كانت حبيبتي أنا... وأنت يا صاحبي لم تحب المانعة بل غرَّرت بها وخدعتها... اسمك نور النديم وهذا ما نعرفه عنك».

«معذرة يا من جئتم تسألون عن نور صاحبي، باتت تأخذني نوبات سرحان كثيرة أحدث فيها نفسي أو أتحدث مع صاحبي، فإنني أفتقده كما أخبرتكم، أفتقد جلوسنا معاً في المكتب والبستان، وملازمة كل منا لأخيه في الممشى، كان الناس إذا ما رأونا ظنوا أننا نتدارس حكاية من حكاياتهم سوف يحكم فيها القاضي بعد يومين، أو نجهز لحكايات الليل في البستان، فيفسحون لنا الممشى. كذلك فقد مشى من خلفنا يحرس نور النديم رجلٌ عملاق اسمه أبو جلمبو كان له إخوة ستة عمالقة مثله، لم يطلب منه نور ذلك بل جاء أبو جلمبو يعرض على نور خدماته فعرض عليه نور النديم صداقته».

أسعد النديم

هذه القصة بمثابة التوراة عند أهل قريتنا يحكونها على المصاطب ليلاً، وفوق الكيمان عصراً يحكونها، ويمشي الرجل مع صاحبه يتدارسانها فيُذكر أحدهما الآخر بما قد سهى عنه، هذه القصة لم يتدخل عفاريت الترعة في أحداثها لكن الذي غير الأسماء فيها هو عفريت آخر، عفريت الغلبة الذي يمنح الأقوياء مداداً وورقاً فيكتبون التواريخ على هواهم، فالمفروض والمعقول أن جدي هو الذي قابل النحاس باشا في سرايا محمود بك شعير عضو مجلس النواب، حين كان جدي متنكراً في زي سفرجي إن كنتم تذكرون، وقد لاحت له الفرصة أخيراً للكلام مع الباشا على انفراد في حجرة علوية قد جهزها محمود بك ليلتئذٍ لراحة ضيفه عظيم القدر. وقد طلب النحاس باشا قهوته ثم وقف ينتظرها في برواز النافذة المطلة على الحديقة، وكان سارحاً ببصره وفكره في مكانين مختلفين، بينما من يراه في وجهه يحسبه مبتسماً للزمامير ورقص الغجر والفلاحين من تحت يديه. ثم جاء جدي من خلفه يحمل القهوة وقال: «اسمعني يا باشا». وحواديت أهل القرية تختلف من عند هذه اللحظة فأنا أقول إن حامل القهوة كان جدي الشيخ الدرغامي، وأقولُ وأكرر أنني لست نور النديم، بينما هم يقولون إن حامل القهوة الذي تنكر في زي سفرجي تلك الليلة كان نايل النديم أبو أسعد النديم كبير القرية الحالي ومنذ عهد طويل.

كيف يمكننا التأكد من ذلك وقد أدار الباشا والسفرجي في تلك الصورة ظهريهما لنا، وتجمع عليهما شيءٌ كثير من غبار التاريخ، فلننظر حيلة تجعلهما يلتفتان ناحيتنا، أنتم نبهوا الباشا لقهوته مثلاً وأنا سأنقرُ بأصابعي على ظهر السفرجي من الخلف، وحياة النبي يا أحباب ساعدونا، واحدٌ منكم يغلق زجاج هذه النافذة التي يأتي من عندها أصوات الطبل والزمر. ولننظر الآن في وجه السفرجي اقتربوا معي، اقتربوا، إنه جدي، والله

العظيم جدي، تمام الشبه مع الصورة الكبيرة التي كانت في بهو منزلنا القديم. لكن حتى مع هذا اليقين لا نقدر أنا ولا أنتم أن نخبر أهل القرية بذلك، ومن يصر منكم على رأيه سيقولون عنه مجنون كمثلي... إذاً فلنتبع حكايتهم إلى سدادها ولننظر ما يكون.

وقف نايل النديم بين يدي الباشا ولم يمهله فرصة لاستيعاب غرابة الموقف فقصَّ عليه كل شيءٍ حدث في القرية منذ خمس سنوات، وتناول في كلامه أقاصيص بلا عبر ولا معنى عن البوص والثعابين والغجر، وفكر الباشا أن ينهره لطول الكلام، ولكنه استهجن أن يذكر الناس ذلك بعد ألف سنة فيقولون لم يكن النحاس طويل البال، وظل يرمق الفلاح بعينه السليمة ويهز رأسه كمن يفهم هذه الأمور على حقيقتها، موحياً للفلاح بأنه لا داعي للإطالة في الكلام، ولكن نايل النديم قد أطال... فأجبر الباشا على السرحان بخياله في ملجأ عن ثرثرة الفلاح. لم يكن الباشا مهموماً بما يحدث في العاصمة آنذاك من إجبار الملك على وزارته ولو في حماية البنادق والدبابات الإنجليزية. الحقيقة أن الباشا فكَّر في هذا الموضوع كثيراً حتى صدّع رأسه، وفي نهاية كل نقاشٍ مع نفسه كان يصل إلى نفس الأسئلة التي بدأ بها النقاش... هل ذلك يجوز؟ وهل تظن أن بريطانيا حريصة فعلاً على مصالح مصر فهي من أجل ذلك تجبر الملك على وزارة النحاس؟ وما هو المقابل؟ لا تكن ساذجاً... كل شيء له مقابل، على الأقل رجلٌ سياسي مثلك يعرف ذلك. لماذا لا نتفق أنا وفاروق على وزارة لا يتدخل فيها الإنجليز؟ هذا مطلب شعبي، وهدف وطني، لكن فاروق طفلٌ مدللٌ وعنيد. لا... لا...، مهما بلغت درجة عناده ما كان يجب أن يتدخل الإنجليز في الأمر. ولما وقف الباشا في كلام السفرجي على كلمات مكررة فطن بنباهته إلى أن الكلام قد أوشك على نهايته وقد قال الفلاح ثلاث مرات: «يجب أن ننزع البوص ونطرد الغجر، هل فهمتني يا سعادة الباشا؟» وظن النحاس باشا أنه إن أومأ برأسه للرجل فإن الكلام سينتهي، ولكنه كان قليل الخبرة بطباع الفلاح وطول باله وقدرته على الثرثرة، لأن السفرجي عاد يذكر الباشا بالحكاية من أولها، عندئذٍ قرر الباشا أن يسند ظهره للكرسي ويخلع حذائه ويفرد ساقيه ثم قرر

أن يغوص في فلسفة عميقة على أطراف الحلم، ونظر للفلاح مبتسماً وقال في سره: «ملعون أبوك فلاح ثرثار ابن ستين كلب، يا سخيف هل تراني فعلا منشغلاً بك أو بقريتك، كم قيراطاً قريتك هذه؟ فهمنا أن الغجر ضربوكم وأخذوا القرية وزرعوا بوصاً في الأرض، ولكن لماذا يزرعون البوص؟ هؤلاء الغجر في منتهى الغرابة»، ليس الغجر وحدهم يا باشا... الدنيا كلها غريبة ومخاتلة، لا يمكن ائتمان الأرض على خطواتك التالية، لقد عشت كل تاريخ نضالي الوطني وشبابي وأنا أضع كلمة الانجليز مرادفة لكل شيء أكرهه، أما الآن فإن القاهرة تنتظر عريسها النحاس ليدخل قصر الملك بدبابات الإنجليز!

ورغم زجاج النافذة المغلق وصلته من الحديقة زغرودة طويلة من فلاحة قارحة، فتذكر أين هو، وتذكر الرجل الذي يتحدث إليه، وكان الرجل قد توقف عن أن يمثل أي أهمية للنحاس باشا وكان النحاس يرى الرجل ولا يسمع صوته ولكن تعجبه حركاته، فلو أن السفرجي رقص ساعتها ما أنكر النحاس عليه... والله دمك خفيف يا شيخ أضحكتني على همومي، تكلم يا ابن الثرثارة، هه وماذا فعل الغجر أيضا؟ وقرر الباشا أن يسري عن نفسه بالضحك على متناقضات هذه الدنيا يمثلها أمامه ذلك الرجل الذي ما عاد يعرف إن كان سفرجياً أم فلاحا، وقدرته على الكلام مهولة. لكن موجة كآبة صعدت إلى صدر النحاس وبللت عينه السليمة. فقد تذكر الحلم الذي رآه بالأمس وكان يمشي فيه عبر صحراء واسعة عميقة الآفاق، شديدة الظلمة وكان يرتدي مسوحاً من الخيش على جسده ومشعث الرأس واللحية. وفي الحلم كانت كلتا عينيه سليمتين، ولكنه كان يعرج ويصرخ بلا صوت مفهوم، ثم أقبلت ثلاثُ أفراس بيضاء يخترقن ظلام الصحراء كثلاث شعلات سائلة من القمر، واقتربن منه ثم أحطن به، ورأى فوق ظهور الخيل كلاً من سعد زغلول ومحمد عبده وقاسم أمين، ففرح حين تعرف عليهم، لكنهم تجاهلوه كأنه بلا شبح ولا جسد، وظل يستعطف الخيل وراكبيها أن ينظروا نحوه، ويشد الأسرج والألجمة ويصرخ بلا فائدة. وفي نهاية الحلم دار حوله سعد زغلول وأخرج من سرج فرسه خنجراً أثرياً وجهه إليه، وانتهى الحلم. ووجد

السفرجي يقول له: «وأنا يا باشا لم آتيك إلا برؤيا رأيتها بالأمس زارني فيها الإمام الرفاعي رضي الله عنه، وطلب مني أن أتوجه إليك، وأمرني أن أُحضر إليك هذا الخنجر، حينئذٍ فزع النحاس لما رأى نفس الخنجر الذي رآه في الحلم واقفاً بحقيقته ونقوشه الواضحة في يد السفرجي نايل النديم. فسأله لأول مرة بجدية: «ماذا كنت تقول؟» ... فقال نايل النديم: «السيد الرفاعي يقول لك لا تقبل». ولم يفسر ما هو الشيء الذي كان على النحاس ألا يقبله وأمسك بالخنجر في يديه وقبله، ورأى أن رؤاهما تتفق على خنجرٍ واحد وقرارٍ بالرفض. عندئذٍ قام حافياً وصافح نايل النديم وقال له: «لقد جئتني براحة البال، لن أقبل هذه الوزارة المشؤومة، أما أنت فاطمئن فسوف أساعد قريتك سواء كنتُ في الحكم أم لا». واستدعى المضيف ونادوا السواق، وترك الباشا الحفل والضيوف، وزحف ليلاً إلى القاهرة. العجيب أن النحاس باشا قد قبل الوزارة بعد وصوله القاهرة بأيام، ولم يفهم التاريخ حتى الآن تلك الذريعة التي أقنع بها نفسه، ولا تفسيره لرؤياه ورؤيا الرجل الفلاح نايل النديم... لكنه على كل حال قد أرسل لقريتنا جراراتٍ زراعية كبيرة ونازحات للترع، ونفراً غير هين من العمال والمهندسين، واستعدى البوليس على الغجر القابعين في البوص، ومشى نايل النديم ورجالات القرية ومعهم عصبة من العساكر والهجانة يتتبعون الغجر في البوص، وقد دارت معارك حامية في البداية جرح فيها نفرٌ من الناس والعساكر، لكنهم جمعوا الغجر وربطوهم في حبال وسلاسل ثم طردوهم من القرية، لكن بعض الغجر الذين جربوا الحياة في القرية وزهدوا حياة الترحال استسمحوا نايل النديم كبير البلد بالبقاء، مع الوعد والعهد على السير بالمعروف من أصول الناس أولاد البلد وليس الغجر، فأبقى نايل النديم وأولاده على امرأتين وبنتٍ صغيرة، وعجوز يضحك فقط ويرقص إن كلمه أحد. أما المرأتان فكانت أحداهما نفيسة السحارة، التي لم يظهر شرها إلا فيما بعد، والأخرى شابة غجرية سوداء وبنتها أمورة، كانتا يخدمان في البيوت ويشحتان فتات الموائد والطبالي وإن لم يجدا أكلا مع طير الشجر وفأر الغيط. وبقيت مهمة

البوص الذي أمسى لدناً وبلاستيكياً كلما ثناه الرجل ليقطعه عصاه، وارتد في وجهه فخربشه، وخرجت الثعابين من جحورٍ تكمن تحته.

وقد يأس الناس حتى تركوا الشرشرة والفؤوس وأدبروا لمنازلهم، فناداهم نايل النديم من خلفهم وخطب فيهم وعشمهم في الله خيراً، ثم نزل فتوضأ هو وولداه أسعد وسعيد من ماء الترعة، وصلى بولديه ركعتين حتى أبكى الناس والبوص، وخرجت الحيات تباعاً من الأرض تلقي السلام على الناس، حياتٌ بقرون وأفاعٍ بلسانٍ فحاح، وثعابين ملونة، وأنقليس بجناح بطة. كلهم خرجوا واستأذنوا من نايل النديم الذي جده الرفاعي رضي الله عنه، وعاهدهم أن ليس لهم منذ الآن بيننا عيش، فخرج من بين صفوف الثعابين ثعبانٌ رفيع فكُّهُ منمنم وقال: «يا ولي الله أنا «أبو السيور الغيطي»، وقد أسكنني الله في القرية حتى لا يجور الفأر على الفلاح... أنا هنا بإذن الله، ولن أفح في طعامكم ولا أعض صغاركم»، فضحك النديم وأبقاه على العهد الذي أخذه منه. ثم مشت الجرارات والنازحات في الأرض والترع وسبقها إلى البوص عروق الفلاحين المنتفخة، فقد كان النفر المتبقي في القرية قليلاً، والذين هجروها يأساً وجبناً كانوا أكثر وأكثر، فلما رحل الغجر والثعابين مشى كل فلاح في الأرض بجهده، وكل من مهد أرضاً للزراعة من جديد صارت ملكاً له، فكان نصيب نايل النديم وولديه عظيماً جداً، فقد حازوا أرضاً عظيمة، وترك لهم البكوات من آل شعير وآل الفقي في القرى المجاورة فدادين كان الوباء أعطبها، فلما أصلحوها وقد رأوا من طيبته وكراماته أنعموا عليه بفدادين في الجوار، ووضعوا اسمه في كشوف العمودية وصار نايل كبيراً ونبيلاً وغنياً محبوباً في الأهل والجار، وله ولدان أسعد وسعيد، وله عزوة من أبناء خؤولة وعمومة وأقارب فما كانت الدنيا لتضحك لرجل أكثر من ذلك.

أما أسعد فكان نعم الولد لأبيه، وقد زاد في الطول شبراً وافيا عن أكتاف الرجال في القرية، وكان في جيده عروقٌ غليظة تضخ الحمرة في وجهه، وبه شقرة في مفرقه علامة على الفتوة، وشنباً زينه المزين وحلف بالله ألا يأخذ الأجرة أبداً من سيد البلد وابن سيدها، ونادى عليه أبوه

فوضع أسعد في يد الحلاق قرشين عنوة ثم لحق بأبيه، وكان نايل النديم يثق في رأي ولده الأكبر ويحبه ويجلسه عن يمينه في المجالس العرفية، فمن لم يرتدع بالحق وقال الله وقال الرسول ردته قوة أسعد النديم لصوابه ورشده المأمول. وكم تصالح من أخوين بزغدة في كتف أو رد سارق ما سرق بنظرة مستريبة من أسعد، الكل كان يخشاه ويحبه حتى مأمور المركز كان يدعو أسعد للقهوة في استراحته، فيربط أسعد مهرته السمراء في شجرة المانجو التي تسلم أوراقها للشرفة وتهيئ ظلها للجالسين، وقال المأمور وهو ينظر إلى أسعد بإعجاب، إن لي نظرة لا تخيب في الناس، وإني لأراك أكبر من مجرد عمدة على قرية صغيرة، دعك من ضخامة جسمك فقد جلدتُ من هم أضخم منك ورأيت خفراً كالبغال ولَكفُّ أحدهم تزنك صحةً وفتوة، لكني لم أجد في عيونهم ما وجدت عندك، فلو أن الطموح و النجابة تزوجا وأنجبا ولداً لكان أنت يا أسعد، فوضع أسعد فنجان القهوة فارغاً وقال للمأمور: «أنت شرفت قريتنا ونورتها يا بك، وأنا في خدمتك متى احتجتني، ثم قفز في خطوتين على المهرة وألقى السلام بعزة مملوكٍ مجهزٍ بعتاده». وقد فكر نايل فيما فكر فيه المأمور، ولم يكن في وسعه سوى أن يحب أسعد أكثر من سعيد. ومن هو سعيد؟ إننا حتى لا نذكره كثيراً وذلك من باب إعطاء كل ذي حق حقه، فإلى الغيطان كان يمشي وراء الحمار ويسبح في الترعة واضعاً ثيابه على جذع جميزة عجوز تلقي طرحها في الماء، فيطفو في شيخوخةٍ دون أن يلمسه أحد، وفي المسجد يصلي سعيد ويقبل كف والده ويستمع للأمر ويمشي إليه، ويخطئ في تفسير المراد بحسن نية، فيجبر كلاً من نايل وأسعد على الاعتذار للناس، وإنها لكبيرة على الكبراء أن يعتذروا. وكان نايل يربت على كتف سعيد ويقول: «لا تثريب عليك»، أما أسعد فقد كان يعجب من هشاشة أخيه التي تجعله يمشي خلف الحمار ولا يركب المهر، ويمر بالناس مسرعاً كأنما يخشاهم، فيقولون هذا سعيد أخو أسعد والله يخلق ما يشاء ومرض سعيد واحتاج للدواء وإلى دعاء والده، فدلكوا ظهره وبطنه بالزيت وعصبوا المنديل على رأسه وسقوه عسلاً وكموناً، وفرطوا له الرمان في صحن كبير، لكنه ظل يرتعش بالليل ويتأوه

ويمنع أسعد من أن ينام شفقة بأخيه، فلما رأى أسعد أخاه يرتعد رفع أسعد الغطاء عن نفسه ودثر فيه أخاه ثم نزع الشال الذي يدفي به رقبته ولفه على جيد أخيه المريض.

وفي الليل كان نايل يصلي نوافل لله، وحين رق قلبه في السجود عرف أن له عند الله دعوة مستجابة، لكن الوالد لم يتذكر ولده المرضان وجرى في خاطره أسعد على فرسه فدعا الله له بالبركات. وجاء الملاك الذي أرسله الله ليجيب الدعاء كان طائراً في ظلمة الليل حتى انتهى لنافذة الحجرة التي ينام فيها أسعد وسعيد، ففتح درفة الشباك وشرب من قلة الماء الباردة حتى ارتوى، ثم نظر فوجد الشال الذي يميز أسعد يرتعش على الجسم المريض فقال: «الحمد لله أنني وصلت قبل فوات الأوان»... وألقى على المريض بركات كثيرة حتى نفض جيوبه تماماً من البركات، وحين هم أن يطير ثانيةً خارج البلدة وخارج الأرض ميَّز عند التوتة القريبة من المنزل فلاحاً عائداً من فك حصرةٍ وكان أسعد، فقال الملاك: «يا دين النبي... لقد نسيت تماما أن له أخاً اسمه سعيد!»، ورأى الرب أن ذلك أحسن.

وقام سعيد وتدبر في القرآن حتى تفقه، وجلس على شمال أبيه فكان نايل فرحان عن يمينه وشماله، وكانوا يتدارسون مع الناس في أمر سرقة البهائم الذي خوَّف أهل القرية وجعل الرجال بعضهم يزرع في النهار وبعضهم يحرس الزرائب في الليل، وكان بين الحارسين نايل وأسعد. وجاء اللصوص من خارج القرية يحملون سلاحاً وعصياً، ونقبوا في الأرض حتى وجدوا زريبة كبيرة على أطراف قريتنا ولبهائمها ثغاء عظيم. فلما فكوا الحبال عن البقر الأصفر والجاموس الأسود ولم يتركوا في الزريبة عجلاً يلعق في ساقه ولا في الخشب، مشوا بالنهيبة ليلاً وفوق أكتافهم البنادق، لكن عيون البهائم لمعت ببريق أزرق، واستدعت بثغائها شعلات نار خرجت من تحت الأرض ومن فوق أكتاف الشجر، وكانت الشعلة الكبيرة في يد أسعد، وكان منذ أسبوعٍ أو أكثر يشرب الشاي المرّ ليسهر، فصرخ في اللصوص وقامت معركة كبيرة أبلى فيها رجال القرية واللصوص بلاءً عظيماوموات واحد من هناك وواحد من هنا. وكانت عيون الجميع تلمع إعجاباً بأسعد الذي تصدى

لكبيرهم حتى وقف بقدمه على صدره المنهك وقيدوه وفر البقية، وفي دوار الحاج نايل اختاروا أسعد وحده حارساً على كبير اللصوص حتى يطلع النهار ويذهبون به إلى المركز. ولما جلس أسعد النديم في خفرته على ملك اللصوص المقيد، وكان مقامهما بين الزريبة ومخزن الغلال، وأسعد يتكئ بجذعه على حطبٍ مائل، أما اللص فكان مربوطاً في عروة جُهزت أصلاً للبهائم، وفي الحائط طاقةٌ فيها مصباح من الصفيح يلفظ ضوءاً باهتاً ودخاناً أسودَ. فلم تبلغ بشعلتها أن تضئ الوجهين، فأضاءت من وجه أسعد نصفه الأيمن وشقفة من جبينه الأيسر، ومن كبير اللصوص نصف وجهه الأيسر وسقطت من وجهه نقطة ضوءٍ على كمه. فنظر لأسعد وقال: «يا زين الرجال ما اسم الكريم؟ لقد سمعت أهلك ينادونك أسعد فراق ليَّ الظن بأنهم إنما يصفونك، ذلك لتعلم أنني أحببتك لله في الله، وهذا يا صاحبي شيء غريبٌ عليَّ، فالمفروض أن أحقد وأن أغل على الرجل الذي هزمني وربط كوعي من خلفي، وأنا رجل في حياتي ما انحنيت ولا انهزمت. ربما لو كنت أصغر عشرين عاماً ما هزمتني فقد كان شبابي الأول حلواً كشبابك، ولأنني أحببتُك أريد أن أنصح لك، ولكن قبل النصيحة يا أسعد أكرم ضيفك، فأنا أريد شاياً وجوزة ومعسل، وضع يدك في جيبي تجد لفة حشيشٍ أصليّ ومضغة أفيون، إن كنتُ في غدي سأسجن فليكن الليلة ما يكون. وأولى نصائحي إليك لتصير كبيراً، كُن رحيماً برجل قد كبلته في عز الليل». واستجاب له أسعد وقدم له الشاي والمعسل وظل مجلسهما يتقارب حتى ضحك له أسعد وسأله: «من أين لك يا لص بهذه الحكمة؟» فقال له: «إن ظننت أنك سترتاح في الدنيا تكون حماراً، فوطِّن نفسك على النوم وأنت زعلان من نفسك، وإن كان ذلك كذلك والإنسان لا يرضيه شيء أبداً، فزعلٌ بزعل، وافعل في هذه الدنيا ما يحلو لك، أنا اختبرت الصحاب فخانوني، والأهل باعوني وحسدوني، حتى أخي يا أخي ما رحمني، والدنيا كاسٌ مر والأيام تمر، فكُن كما تخاف تصبح أسعد مما تتخيل». وقال اللص وقال... من بصة الضوء على نصف وجهه الشمال، حتى بدأت الديوك تكركب بأظفارها في الحطب، وجربت أن تؤذن قليلاً على استحياء مثل

موسيقيّ يُمرن حنجرته، لكن عندما صاحت الديكة على حق كان الحرامي مفكوكاً والحبل ملقىً في مكانه، وأسعد ليس في البلد ولا في البيت، ومبلغٌ كبيرٌ من المال مفقوداً من خزانة الحاج نايل.

لا تسأل عن البلدة في ذلك النهار والناس بين مصدق ومكذب، ولولا مقام الحاج نايل بين الناس لسخر الفلاحون وغنوا سيرته بالربابة، ووقف سعيد تحت جناح أبيه، وأخفى نايل الحزن ما استطاع، وابتسم للناس وظل على حسن شمائله يشيب وولده سعيد عكازُه، وظهرت في البلدة أشياء لو كان أسعد فيها ما ظهرت، أول شيء أن نفيسة الغجرية، والتي كانت صناعتها ومصدر رزقها أن تبني للعيال أرجوحة بالحبل والخشب بين شجرتي جازورين، وتمد يدها تدفع العيل من ظهره فيطير بعيداً ثم يعود إليها وهو خائفٌ يضحك، تهز الولد على الأرجوحة عشر مرات ثم ينزل عن الطاولة الخشب المربوطة بين الشجرتين. وقد حكى بعض الناس أنها أحياناً لا تحتاج لربط الأرجوحة بالحبال، وكان من يعطيها بيضتين تجعله يطير فوق البلدة كلها ويأكل البلح الأحمر من النخل، ويتربص للبط العراقي المسافر، لكن هذا السر ظلت حريصة عليه حتى لا تدخل في سين وجيم مع الحاج نايل وولده سعيد التقي الذي يحفظ القرآن ويقول إن السحر حرام، وحتى نايل لو كان علم بالأمر فما في الأمر من ضرر، خلوا الناس تطير، لكن ماذا لو علم بما كانت تفعله من وراء ظهره، ويخفي عنه الفلاحون شراكتهم في إثمه؟! ذلك أن نفيسة بدأت تلعب بالسحر الأسود، وتربط الزوج وتفكه، وتجعل الزوجة قردة، وتناول أحجبة الحفظ والوقاية مقابل قروش لا بيض، والبلدة كلها تورطت في ذلك، وأبقوا عليها كَسِرٍّ، فكلما مرَّ عليها نايل أو ولده تظاهرت أنها لم تزل تؤرجح العيال. أما أسعد فقد علموه في الجبل فك السلاح الكبير وجمعه، والنشان على الأرنب الصغير والصقر، وحرّقت بشرته قسوة الشمس في الجبال فصار نحاسياً كالقرش الذي عليه صورة الملك، وتجتمع عليه العصبة من الرجال فما يدرون إلا وهو باركٌ على صدورهم، وقَطَعَ الطريق وهرَّب الحشيش والأفيون والبن اليمني، وبدلاً من المعركة التي كانت قادمة لامحالة على زعامة اللصوص في الجبل، جاء

كبيرهم وأطلق عيارين في الهواء فخرج من أوكار الجبل كلُّ لصٍ وهاربٍ وقاتلٍ، وقال لهم: «أسعد أخي وولدي، وهو الآن كبيركم وكبيري، ونزع شاله من على كتفه وزين به رقبة أسعد».

والأب الطيب ساجداً كان، لله يصلي ويسأله رد الغائب ودوام الستر، وقد عوض الله عليه في حسن سمعة سعيد، لكن سعيداً دخل عليه مهموماً ذات يوم، وقال لأبيه: «نفيسة السحارة نقضت العهد وتمشي في الناس بالوقيعة والسحر». وكانت الشمس ساعتها قد أوشكت من الغروب التام لكنها رفضت النوم وارتفعت عن الأفق وعن رموشه السفلى التي يرسمها جريد النخل والكافور الطويل، وقالت: «نرى أولاً لماذا خرج الحاج نايل وفي يده عصاه».

ولم تكن الشمس وحدها التي تعجبت، بل خرج الفلاحون من دورهم وانتصبوا عما يزرعون ويحرثون، وكان نايل لا يلبس أكثر من صديريٍّ وجهه أسود وظهره أبيض، ومن تحته لباسه الأبيض الطويل، وزحفت أطراف الحبل الذي كان يربط به لباسه على الأرض فرسمت طريقاً يتبعه فيه الرجال، وما شكَّ أحدٌ أنه متجهٌ لعشة نفيسة السحارة، التي كانت تملك أسرارهم وفضائحهم، فمشوا من وراء الحاج نايل يتوسلون إليه بالقربى وبطيبة قلبه أن لا يطردها، حتى وصلوا إلى العشة وكان نايل من حزنه على أسعد وطول مكثه في المسجد لم ير نفيسة منذ زمن، فرأها وقد امتلأت ودقت وشوماً جديدة في وجهها و يدها، وكانت حمراء ولكن جمالها يزهد فيه الناس لأنها فطساء. وكان أسوء الناس منظراً بين الواقفين عند العشة نفيسة وسعيد الذي ارتدى جلباباً قيماً لكن الجلباب لو كان على أسعد لبات ممتناً لحسن قوام الولد ولمحاسن الصدف، أما سعيد فالمسافة بين أكتافه ضيقة وكان أحدب وله رجل طويلة ورجل قصيرة، فكان أعرج وعلى عينه اليمنى سحابةٌ من ماء أزرق، فكان أعور، لكنه كان طيباً ويعيد كلام أبيه على الناس بصوت أكثر شباباً، وقد قال للناس: «تخرج نفيسة من القرية فلا تعود إليها أبداً... هذا حكم سيدكم الحاج يا رجال ونساء القرية»، ومن هنا لهناك ومن هناك لهذاك تشفع أناسٌ كثيرون لها، حتى صدر فيها

حكمٌ بحمل عشتها إلى مشارف القرية، في أخر حوض الطولاني الذي تسكنه العفاريت، وأخذ عهداً على الناس ألا يزوروها أبداً، ثم أوصى غراباً كان يقف على شجرة سنطٍ في آخر القرية أن ينعق باسم من يمشي إلى كوخ نفيسة ويفضحه، على أن يتقاضى الغراب قرشين في بداية كل سنة هجرية.

ورأت الحكومة تسوية حساباتها القديمة مع اللصوص وقطاع الطريق في بر مصر كله، بعد أن باتت سرقة البهيمة من الزرائب كالقدر المكتوب على الجبين، وقامت الحكومة بعساكرها وبنادقها تدك الأوكار وانحنى أسعد ورجاله على بنادقهم حتى نفد رصاصهم وذاب الجبل تحتهم كالعهن المنفوش عندما رصوا الديناميت في الشقوق، وكانت عاصفة بيضاء تعمي الأعين قتل فيها البوليس البوليس، ولم يقتل فيها الحرامي الحرامي، لأنهم لما غامت الدنيا فروا كالسحالي التي تعرف الجبل وهي مغمضة العينين، ونال أسعد في لوح كتفه رصاصة فاحتمل ألمها وقال يا فكيك، وبعد أن عبر الصحراء ألقى بدنه في النيل وظل يعوم في الليل ويتخفى بين الموز والذرة في النهار، كان ينام من غير أكلٍ ولا شرب، وجرحه كلما اندمل خانه ونفث دماً، فمال مرةً على جنبه في المغارب ينعس، وأعواد الذرة والهيش كانت من حوله تهتز في قلق، ولمعت من بينها عين ذيب جاء على رائحة الدم، فلما رأى أسعد نائماً سال ريقه وفتح فكيه وعوى تحت قرص القمر، بعد ساعة كان أسعد قد شوى كبده ويتلمظ من حلاوته، ثم قام إلى الترعة وقفز. والنهر يأخذه من فرع إلى لفرع ومن ذراع لذراع حتى اقترب من قريتنا لكنه وصلها منهكاً لا يستطيع مجادلة التيار ونفسه مبهور، فأشفق عليه واحد من عفاريت ترعتنا وجذبه إلى حجرٍ بالضفة، وأسند ذقنه عليه ثم تركه، وقال الناس في الصبح: «والله العظيم لو تثبتتم من الملامح لعرفتم فيه أسعد... يا حاج نايل... يا حاج نايل».

وفي الليل كانت الجنادب السمراء تعزف عند الترعة همهمات تشرح القلق الذي خيم على القرية كلها، واحتدم وجعه في دوار البلدة الكبير، وقد جاء الحاج نايل النديم بكل من يمكنه العلاج والمساعدة، طبيبٌ من شبين الكوم بخمسة جنيهات، وسيارة مخصوصة، وحلاق القرية، ونفيسة

السحارة التي نالتها الدهشة حينما طرق الحاج نايل على بابها، ولقد قام برشوة الغراب ليسكت بحبتي "كراملَّة" مرسوم على ورقتها غزالٌ أخضر.

وبعد أن أخرجوا الرصاصة وكتموا جرحه ثم عزَّموا عليه، قالوا: «يومان في السرير، فإما معافى وإما فرب الناس غفورٌ رحيم». لكن أسعد حتى وإن شفاه الله فإنا لا ندري أي أسعد سيمكث معنا في الدوار وفي القرية، هل عفا الله عما سلف أم ترك ما تلف ليتلف. وقام أسعد يتوكأ على حديد السرير حتى وقف ونظر إلى القرية التي يعرفها، ورائحتها تملأ صدره راحة... ثم ابتسم، وعن يمين أبيه نايل وقف كما كان وكأن الأزمان لم تتغير، سوى أن أسعد صارت نظرته مرعبة ولكمته تسقط الحمار صريعاً، فهابه الناس وامتنعوا عما نهى عنه، بعد أيام كان أسعد يتكلم في المجلس أكثر من نايل ومن سعيد، ويقرر بأصابعه الكبيرة الصواب والخطأ، وزادت عليه عادتا السجائر والنشوق فلم يعترض أحد. لكن حينما سرقت أول بهيمةٍ من القرية، ثم التي بعدها والتي بعدها، وفي كل مرة كان أسعد هو الذي يخرج من القرية وحده يحمل حُلواناً أو فدية إلى اللصوص نيابة عن صاحب البهيمة ثم يعود بها، وبدا أن الأمر لن ينتهي، وقد سعَّر أسعد الحلوان: جنيهان للبهيمة العُشْرِ، وجنيه للعجل، عندئذٍ صوصوت كل العصافير على شجر القرية: «أسعد يسرق، أسعد يسرق، أسعد يسرق»، وكانت الفئران تقفز بين نهود البيضاوات فإن أمسكت البيضاء فأراً من صدرها قال لها: «أسعد الذي يسرق يا عسل!». وعرف نايل وسعيد أن ماضي أسعد قد جعله حبيباً للصوص وأولاد الليل في البحيرة وفي تلا، وقد زاد في فخره من بعدها وطالب الناس كلهم بجبايةٍ صريحة حتى تظلَّ البهائم في زرائبها، وقد دفع الناس قروشاً كثيرة خائفين، يا ليت أن الماء ابتلعك والذئب أكلك يا أسعد يا ظالمَ أهلك. لكن الحاج نايل جمع العصبة التي كانت سهرانة مع أسعد ومعه ليلة أن قيدوا كبير اللصوص، واجتمعوا على أسعد بالطوب والعصي حت كسروا ذراعه اليمنى وساقه اليسرى وربطوه حيثما ربطوا اللص الأول. ويقال إن المأمور هو الذي لطّف من حقد نايل على أسعد، وقيل بل نايل جبّره ثم خيّره، فإن شاء انصلح وإن شاء رحل، ويقال إن نايل

نفسه هو الذي ظل يماطل في تسليمه للمركز، وحلف الناس بالقربى وبالغلاوة أن يتريثوا حتى يشفى الولد، ويقال إن سعيد هو الذي رق لأخيه في الليل بعد سماع صراخه الذي كان يشبه صراخ السبع المجروح، فقام سعيد وكسر عصا غليظة، ثم جبَّر ساق أخيه ويده، ونايل كان يراقبهما ويبكي من شقٍ في الجدار. ولأن سعيد كانت من نصيبه بركات الملاك فقد حلَّت في قلبه الأبيض وخاف من الله وتواضع حتى احدودب ظهره.

وفاجأ أسعد أباه بزمجرة خوفت الحمام في صحن الدار ورفع عينه المكسورة من المعابة نحو أبيه وقال بصدق وخجل: «يا أبي أريد أن أتزوج، فثلاث إناث وثلاثة ذكور، بلدة طيبة ورب غفور».

وفي هذه السنوات كانت الدبابات قد دخلت مرةً ثانية إلى قصر الملك بعد أن جعل النحاس باشا ذلك ممكناً، لكن الله تدارك أهل مصر فقد دخل القصر هذه المرة رجالٌ وطنيون شرفاء، سمرٌ كأمثالنا لا هم إنجليز ولا ترك. ومشى عبد الناصر بخطواته الواسعة في بر مصر كلها حتى غدا عمدة محبوباً على كل القرى، وانشغل الناس عن أسعد وأبيه والتفوا من حول المذياع. وكان ناصر حازماً وحليماً ولا ترد له كلمة، سنَّ هو وصحبه قوانين نالت من الأغنياء لصالح الفقراء، وفتش الجند الطيب في عزبة آل الفقي وقصورهم وأعطوا ما فيها للشعب، ووزعوا الأرض على الفقير المعدم، وكذلك فعلوا مع آل شعير الذين كانوا هم وآل الفقي بكوات وباشاوات ذلك الزمان حول قريتنا، حتى أن الجندَ قد نالوا خمسين فداناً من أملاك نايل وكاد يُجن.

وكما نعلم فإن كل بيتٍ ينمو في صحنه الخبيث والطيب، أولم تنظروا إلى سعيد وأسعد، أولم يكن ابن نوح كافراً بالله ومات في الطوفان فلم ينفعه توسل نوح لله! وقد جاء إلى عزبة آل الفقي بكباشي من أصحاب عبد الناصر، وأراد أن يتزوج عقيلةً من بيت الفقي رغماً عنها، ويرث ما تبقى عندها من جواهر ومن أرض، وسألها أن يعيش معها في القصر، وأمهلها أسبوعاً لتتجهز، فهربت من بيتها في العصاري في زي فلاحة نحيفة، وغطت

عيونها الزرقاء كي لا تفضحها، وكانت قد جمعت في "بقجةٍ" كل ما غلا ثمنه وخف حمله، واستجارت بنايل صاحب الكرامات والسيرة العطرة حفيد الرفاعي وآل البيت وزعيم بلدته، فحارَ في أمرها وفرك أصابعه، ومشى سرحان في البلد يتكتم على الخبر، حتى هداه الله أن ينكحها سعيداً ولده، ولا تسأل كيف خبز الله بينهما القبول، فكل الروايات تؤكد إنما أحبته من أول نظرة. وثار البكباشي وحبس نايل وسعيد، ووضع البنادق على ذقن أسعد وهو يخطف زوج أخيه من الدوار، وأسعد رغم كل عيبٍ فيه قد أظهر شهامة جرحته في جبينه وسقط مغشياً عليه، إلا النساء، إلا أولياء الله، إلا الخطف والغصب، واجتمع حول المركز القديم في قريتنا رجالٌ من كل القرى، وشعلات نارٍ، وفي مقدمة الجميع أسعد وقف على فرسٍ تزعق، وحين رأى المأمور خطورة الأمر نبه البكباشي فلم ينتبه، فأرسل المأمور على مسؤوليته برقية إلى عبد الناصر، فتنهد الأخير بنفاد صبرٍ من سلوك بعض صحبه الذين لم يفهموا الغاية من الحكم، وابتسم ناصر للتاريخ بقلبٍ مجهد، وأرسل برقية لصاحبه تقول: «يا أخي عيب عليك». فامتثل البكباشي مرغماً، وأضمر شراً للمأمور الطيب لكنه ابتسم، ونظر من النافذة التي في مكتب المأمور فوجد أسعد على فرسه، فقال: «من يأتيني بهذا الولد قبل أن يرتدَّ إلى طرفي». وسهر نايل وسعيد في الحبس، وسهر البكباشي وأسعد على المقاعد الجلدية في مكتب المأمور، وكان البكباشي يباسط أسعد في الكلام ويطمئنه، وسهر معه ليلة قريبة الشبه بالليلة التي قضاها أسعد مع قاطع الطريق في دوار أبيه قبل أن يهرب، فعلَّمه البكباشي كيف يقول «الثورة» و«الفقراء»، وعلمه كيف يتخطى قوانين الإصلاح الزراعي بأن يجمع توقيعات الفلاحين البسطاء على الورق الأبيض، ثم يحوز هو الأرض لنفسه، وعلمه كلام الاتحاد الاشتراكي ولعبة الانتخابات، ثم في الصباح أطلق سراح الجميع وأطلق جشع أسعد النديم من مكمنه.

الليلة السبعون (الطلاق)

أقيمت الليلة السبعون على سطح منزل تاجر حدايد محترم ومتوسع في التجارة، وكان السطح مجهزاً للسمر، والحصائر مبسوطة والزرابيُّ مبثوثة، وموزعٌ في المجلس ثلاث شيشٍ نقية الماء، والماء يرقص في بلور صافٍ، فجلسنا على محبة من المضيف، وألقى بيننا وعند أقدامنا برتقالاً وموزاً وعنباً أخضر وعنبا أحمر، ثم رمى حصوات الحشيش على كل حجرٍ فكان كريماً مضيافاً إلى أقصى الحدود، وبدأنا من فورنا نلف البفرة أو ننقر على الشيشة، وكان صاحبٌ لنا مشغول الفؤاد عن أنس تلك الليلة ويده على رأسه أو تحت خده، فنكشه من يكركر في الجوزة جنبه وقال: «وحد الله يا أبا فلان، زرعتها تفاحاً طرحت حنظلاً؟!».. قال: «يا ليتني ما زرعتها ولا طرحت، أنا يا جماعة الخير في همٍ منذ اليوم، فابنتي بعد زواجٍ ما دام أكثر من ثلاثة أشهر سوف تُطلق. البنت حتى ما حملت منه ولم نطوِ عقد الزينة الذي حوطنا به شقتهما، وبعد أن قلنا يا خلق الله زدنا بالنسب عزوة، أكسبنا الطلاق عداوة ونكداً، وتنام ابنتي عندنا في البيت الذي ودعته وأقسمت لنفسها ألا تأتيه إلا زائرة، وأسمع زفيرها في حجرتها وتسمع هي حسراتنا عليها، فيا حول الله، يا حول الله». وفاضت لكلامه العبرات والدعوات بالستر، ثم قال الحاج زاكي الجمال: «إذا سمحت لي يا أبا فلان أن أمشي في الصلح مشيت على راسي، قل لي أسباب الخلاف ونسدها على الشيطان والحساد، وقليل من عندك وقليل من ناحيتهم يوفق الله». وقال صاحب الهم وقد مال بجذعه للأمام كأنما يخص أهل المجلس بِسرّ: «والله يا جماعة الخير ما أدري بأي حديث أخبركم، الموضوع فيه ما يخجل! فحماة ابنتي تغار منها على ابنها، وتغيظها بطيّ الولد تحت إبطيها، وكانت منها

أفعالٌ لا تجوز، كانت تُحمم زوج ابنتي بيديها وتضع له الطعام في فمه كالعيل الصغير، وكل شيء يحتمل إلا نومُ الولد في فرش أمه، وانصياعه لإشارتها حتى لكأن الولد وأمه يغيظان ابنتي عمداً، فيا ألطاف الله، يا ألطاف الله!».

وكان الحاج زاكي لا يدخن شيشة ولا بفرة، لكنه مصمص شفتيه غيظاً وحسرة، وسحب سيجارة من يدي وذابت في فمه نفساً على نفس. ثم استدرك بعد أن سكت: «يا حاج فلان إن مشينا في الصلح لا تحكِ شيئاً من ذلك، سنقول إن ابنتك لا تحب السكن في دور العائلة وتطمح إلى شقة منفصلة، وكفى الله المؤمنين القتال والقيل والقال». وأمَّنَ الجالسون على كلام زاكي وقالوا «نعم الرأي». لكن أحمد الجنوبي –وقد نام حب المسبحة بين أصابعه– هز المسبحة وشخشخ بصدفها ثم قال: «لا تؤاخذوني يا سادة، لكن هذا الزواج محتومٌ بالفشل، وزوج ابنتك يا فلان ليس برجل»، وحاول الجالسون رد أحمد عن كلامه، لكن ضميره والسيجارة التي لفها لنفسه عند بداية المجلس قد زينا له ما يقول، وحببا إليه الكلام بالعقل والعدل، فاستأنف قائلاً: «ولا تؤاخذني يا أبا فلان فحماة ابنتك امرأة بنت وسخة! وتود لو أن ابنها...استغفر الله العظيم!، طلاق ابنتك وإن كان غماً لكنه غمٌّ يمنع ألف هم! والله قد جعل الطلاق حلالاً لغرض، ورقة تمنع الزوجين من كراهية بعضهما طول العمر، اسمع كلامي يا حاج فلان حتى لا تقابل الله بذنب ابنتك. احك لهم يا شوقي عن عمتك». فتنحنح الأستاذ شوقي وقبل أن يضحك خانه فمه وخرجت منه شخرة أضحكت حتى البرتقال في الطبق، وقال يغالب ضحكه: «عمتي وزوجها أزواج!» ... فعقب عليه نور النديم ساخراً: «أنت لماح يا شوقي ما شاء الله!»، فقال شوقي: «صبراً بالله يا ناس! الحكاية فيها إنَّ ولكنَّ، فزوج عمتي هو ابن عمها أيضاً وهو على ذلك يصبح أخاً لها وزوجاً، وعمي وهي قد تربيا في بيت واحد وقاعتين متجاورتين في دار العائلة، فزوجوا بنت هذه القاعة لابن عمها في القاعة المجاورة وزغردوا وهللوا، وقد كان العروسان عيالاً ابناء اثنتي عشرة سنة! ولما أدركا ما تعنيه كلمة بيت وزوج وزوجه قالا لبعضهما البعض:

«هذه العلاقة لا تجوز شرعاً إذ كيف ينكح الأخ أخته»، ونفرا من اجتماعهما في فرش واحد مثل "التَكَاتِك" في الطريق يزيح بعضها بعضاً، وكان الرزق أيامها قليلاً وعيون الناس متفرغةٌ للناس، فباتوا يطالبون الزوجين بولدٍ وبنتٍ وولدٍ وولد. والزوجان في حيرة أمام ضمائرهما وأمام الناس، فكان الرجل يبكي ليلاً على صدر زوجته وينام جنبها كأخته، ثم ادعيا كذباً أن الله قد حرمهما من الخلفة. فمصمص الناس شفاههم وهدأت الأمور. ثم مرت الأيام والأسابيع والشهور والعقود وهما يتعودان على تجاهل بعضهما البعض، فالناس لا تسمح بالطلاق ولا تكرار الزواج، ومن يقدم على هذه الأفعال فاجرٌ وخائنٌ وابن حرام، فالمطلقة أحسنَ الناسُ لو ضربوها في رأسها بالرصاص بدلاً من تتبعها وانتظار فضيحة تأتي من ناحيتها، والرجل الذي يتزوج الثانية بصباصٌ لا يؤتمن على دخول البيوت. فاصطبر عمي وعمتي على سوء بختهما، وفوضا الأمر كله لله، لكنهما بالوقت ملأَ من مجالسة أحدهما الآخر، وملأَ من صينية المحشي وقلة الماء التي يشتركان فيها. فاتفقا من غير أن يتفقا، إن كان هو في الغيط تمكثُ هي في الدار، وإن ذهبت هي للغيط في حاجةٍ لها يتمشى هو في البلد أو ينظف الزريبة، المهم ألا يلتقيا سوى عند النوم وفي عتمة الليل، كانا إن نامت هي على السرير نام هو على ظهر الفرن وإن تمددت على الكنبة افترش هو حطب السطح، ثم مات الكبار وسافر الصغار وفرغت الدار عليهما بكل قاعاتها، وتوسعا في الرزق فلبست هي ذهباً وخلاخل، واشترى هو جملين وحمارين وفدانين وعنزتين وجلبابين. لكنهما زهدا البقاء في المنزل، وعمي وعمتي قصيران كعلب البيرسول يراهما الناس في الشوارع سائحين ويمسحان مصاطب الناس ضجراً وشكاية. وكان عراكهما مضحكاً حتى أن الأهل في مناسبات العائلة يحرضونهما على الشجار ويفرح كلاهما لذلك، ويكيل أحدهما للثاني والثاني يرد عليه، وبعد أن ينفضَّ الفرح ينظر كلاهما للناس في امتنانٍ أن سمحا لهما بشتيمة الأهل والأيام التي تجمعهما. وقال صاحب المجلس والسطح، وهو رجل تاجر يشتري من كلام الناس ما ينفع ويبيع كلامه بأقل مقدار: «لا تؤاخذوني فيما أود أن أقول ولكن حينما أسرح مع نفسي أقول لعقلي ماذا

يا ولد لو أن زوجتك قد ملتك؟ ويكبرُ عليَّ ذلك فأداعبها حتى تضاحكني وأضاحكها، وأحجز لنا رحلات في شرم الشيخ واسكندرية، ونتمشى أنا وهي في الجنائن وأحب أن أبوسها خلسة لو ركِبَتْ عن يميني في السيارة». فقال مرزوق الخولي: «تصدق بالله أنا رأيتك تفعلها ولم أحسب أنها امرأتك، وحسدتُكَ في سِرّي، بلا خيبة!» ... فابتسم صاحب المجلس للفكاهة ورش عليها دخاناً من ضحكة صافية ثم قال بجدية: «في رأيي والله شهيد أن عقد الزواج لابد أن يكون عشر سنوات قابلة للتجديد، فإما وإما»، واستيقظ الأستاذ فرحات ولف نفسه في عباءته كالجدة العجوز على عادته وقال: «إن عبد الوهاب المسيري، رحمة الله عليه، وهو واحد من رجالات الثقافة والكرامة في هذا العالم، كان يعيد السؤال على زوجته مرة كل عام إن كانت ترضاه زوجاً لعام أخر. وقد رأيتهما وأنا عضوٌ في الحزب الناصري، وكانت مظاهرات كفاية على أشدها، لكنهما وسط الزحام كان يتكئان على بعضهما البعض، وفي يد الدكتور كيسٌ فيه علبة عصيرٍ فارغة يبحث عن سلة يضعه فيها، فلما احتار هش لزوجته وهز كتفيه، وتناولت أنا منه الكيس، فشكر لي أدبي ومشى معها خلف المظاهرة بهدوء ودعة». وكحَّ الأستاذ الجنوبي كعادته إن تمكن الدخان منه، وحينئذ يحضره الأسياد ويُلغى التكلف بين الجميع، وقال: «في ظني: نساؤنا لسن على رتبة عالية في الجمال، والذي يُعرِّفُ الجمال على أنه خصرٌ نحيل ورمشٌ كحيل فقط فليعتزل مجلسنا ولا نسميه لنا صاحباً. نصف جمال الأنثى في معرفتها بأنوثتها وقدرتها على الفرد والطي والغنج والغي، أفيقوا يا هووه»، وقال له شوقي العبد: «يا أحمد. ليس هذا موضوعنا، كنا نخوض في الطلاق يا فايق». فاحتد الجنوبي بلطف، ولوى رقبته كأعلى من أكتاف شوقي، وقال: «أنا فايق يا شوقي، ولم أتخط الأصول، ربما أتخطاها بعد قليل، لكن الآن لا»، وشدَّدَ على "لا" ثم قال مستعطفاً: «وماذا أفعل في نفسي يا عالم؟! أحب الكلام عن النساء وأنتم تلومونني على كثرة الولوج فيه، لكنكم تقترحون مواضيع تقودنا لنفس الكلام، عن المرأة، وما تريده المرأة، وأنا أحب المرأة! عليّ الطلاق أحب المرأة»، وغنى الجالسون صولو وكورالاً: «ونحن يا سيدنا نحب المرأة مثلك

وعندنا من اللوعة في باب النساء سهدٌ وحرارةٌ تكوي القمصان، ومرادنا يتم من الدنيا لو احلوت وطاب الرزق وراقت المرأة لبعلها ورقصت وغنجت وضحكت، كلنا في ذات اللوعة يا محترم، لكنك تنفطر بكاءً على كل مسمع». فقال كالمستغرب: «أو أنا أفعل؟! حسناً ولكن فضكم من هذا الكلام، يخيل إليَّ أنَّ ما يجعل الطلاق سهلاً أن نسائنا قد حرمهم الختان من التمتع معنا في فراش الزوجية، هذا صحيح لأن كل فلاح يقصُّ من ابنته الشيء الكثير ليأمن شرها!، وكانت هناك امرأة اسمها أمورة، تعرفها يا نور وكانت تخدم في بيتكم، هذه المرأة كانت تختن البنات وتنحت البظر تماماً، ولبشاعة هذا الفعل وتعارضه مع الضمير وكلوا غجرية به. حتى لما تنورت القرية وصار منها الأطباء كانت أمورة تعمل أكثر منهم في طب النساء، واضطروا للعمل تحت رقابتها وبتوصيتها عن القدر المقصوص من الأنثى، هذه المرأة بنت الكلب جمعت كومة أبظار من القرية وفرت ثم تركت لنا الحسرة». وقال رجل من الجالسين: «أمورة لم تخدم أبداً في بيت النديم فأنى لنور أن يعرفها؟» ... وعاد الجنوبي وفرحات وابن النديم إلى نفس النظرة التي كانت تسبق كلام أحدهم إن حيره السؤال وعزَّ الجواب. وقال الرجل: «بل طردها أسعد النديم وهدم عشتها لما رفضت أن تخدم في بيته بينما كانت تخدم وتنجم في بيوت أخرى». وقال أحمد: «أعرف موكلة اسمحوا لي ألا أذكر اسمها، وهي سيدة كبيرة وأم صديق لنا لم يأت الليلة، تخيلوا أنها جاءتني طالبةً أن تخلع زوجها بعد زواج دام تسعمائة سنة!! أنا كنت مكسوفاً من المرأة لكن دفعني الفضول أن أفتش في حكايتها وقلت مستظرفاً: «طالما أن الرجل لا يقيم حدود الله فهذا حقك»، وقالت: «كلكم يا أستاذ تظنون أن السر يكمن في السرير وتبلبعون من الأجزاخانات ما يرهقنا ويرهقكم، إن كان على هذا فدعني أبشرك بأن زوجي مزماره قد انكسر منذ زمن، وطول عضوه إنما يعوضه بطول بلسانه، والمرأة إن أحبت رجلاً حملته على راسها أو غطته برموشها ولو كان جلداً على عظم»، وقالت بعامية نائحة: «جاتكو خيبة، وجاتنا خيبة!»، ولم أتخيل أبداً أن يدور مثل هذا الحوار بيني وبين أم صاحبي، لكن المرأة قد استملحت المزاح وضحكت و سلَّمَت عليَّ بكفها في

كل قفشة، فقلت: «يا أمي ولماذا تخلعين أبا فلان وتكسرين رقابهم في البلد؟»، قالت: «إن أبا صاحبك رجل لا يطلق، ولو طلق لريحنا من زمن، كذلك فأنا لا أعمل وكان ينفق عليَّ وعلى ولديَّ، فلما مات أخي وترك بنتاً واحدة، وعرفت أنه سيكون لي من معاشه نصيب إذا طُلقْتُ قلتُ الآن أعتقني الله، وقلت له: «طلِّق»، فأخرج لي لسانه ورقص، قلت: «وإذاً سأخلعك».

ثم قالت بلا مواربة: «تعرف يا أحمد، أنا كنت أحب أباك، وهو كان يعرف ذلك لكنه اختار أمك. وأنا أيضاً تزوجت لكن حظ أبيك كان أفضل لأنه أحب أمك، وأكيد أن أمك عشقته، لكن ذلك لا يمنع من مناوشات حدثت بيني وبينه، كان كلما رآني وهو يرش الماء عند بيتكم فرش لي من رمشه ومن ضحكته العذبة طريقاً أمُرُّ عليه، وقال كلمتين من تحت نظر أمك وسمعها، كان أبوك طيبا ومحترماً لا يروم أكثر من البصبصة والغزل المواربة، لكنه مات شاباً يا ولداه! ولا يبقى على المذاود إلا شر البقر! وفي النهاية طلبت مني أن لا أحدث صاحبي فيما تكلمنا فيه، فأقسمْتُ عليها هي ألا تفعل، حتى لا يخجل مني وينقطع عن الجلوس معي»، فقال زاكي محتداً: «أما صحيح ست باجسة»، وكلمة ست تعني سيدة، وكلمة باجسة هذه فكما أشار وجه زاكي تعني أنها ركبت مركب الفجور والعهر، وشرخت كثيراً في البحر، فقال الأستاذ أحمد محتداً بلا مقدمات: «لا والله هي امرأة محترمة، وحصى الأرض يشهد بشرفها» وحدق أحمد في وجه صاحبه فانكسف عنه زاكي، وقال مرزوق الخولي: «ألم تذهب الحاجة سندس لأخيها الدكتور رفعت في صيدليته وحدثته أمام المرضى وقالت بصوت مكلوم: «حرام عليك يا ظالم طلقني منه». وقد طلقها من زوجها وهي في عمر السبعين ولما مات زوجها لم تمش في جنازته». وقال زاكي يفرغ غضبه الذي استحيا أن يفضه في وجه أحمد فكشر في وجه مرزوق: «نهارك ازرق يا ابن الخولي. وتقول أن نترك النساء على راحتهن! وهل عمرت مشورة المرأة بيتاً؟! تعني أن يجلس المصلحون عن الصلح وتترك كل امرأة وهواها؟!»، وقال نور النديم محتداً: «لا طبعاً... على المصلحين أن يسعوا دائماً للصلح حتى لا تنهار العمارة

الإنسانية ونمسي قروداً من جديد». فوكزه زاكي بسؤال عصيّ وقال له: «سبحان الله! ما دمت يا أخينا ترى أن الصلح خير فلم لا تصالح زوجتك التي هجرتها منذ سنواتٍ خمس وكان رضيعها –ابنك– على حجرها قطعة لحم حمراء؟»، فنظر نور بتلهفٍ ناحية فرحات لكأنه سيجيب عنه السؤال وحدق أحمد فيهما، ولام على زاكي ببعض أصابعه، فقال نور بعدها: «أنا رجل لا يحتمل العادات، ولا أطيق أبدية الزواج، أما عن ابني فأستحي أن يلقاني من قبل أن أسترد حقه وحقي من أسعد النديم. يا حاج شوقي فيما سرحت؟». قال: «سرحت في النساء، كنا نرى أمهاتنا يبكين دائماً في ركنٍ من الدار، ولا يبحن بالشكوى، ثم تحضرها الفضفضة أمي إذا رأت امرأة أخرى، وأحس دائماً أن النساء في قريتنا بينهن أسرار لا نعرفها ولن نعرفها أبداً»، فقال نور النديم: «لكنك غفلت عن الكلام وكنت أول مسطولٍ في المجلس، ووجب أن نختار لك عقاباً كما تعودنا»، فقال له فرحات: «يا حاج شوقي غنِّ لنا "جفنه علم الغزل"» ... فقام ورقص وغنى وأجاد "جفنه علم الغزل". ومال زاكي على رأس أحمد الجنوبي فقال: «أنا في همٍ يا أحمد، تلك المرأة زوجتي إنما هي بنت كذا... وبنت كذا، صارت تمنع عني حتى الريق الحلو، وبتُّ أمثل الشكوى أمامها ولا تهتم، حتى ونحن على الفراش والسرير يصر من تحتنا أجدها تحدثني في شراء بط للدار وطماطم وعلف. امرأة عديمة الحس، وإن كانت أمورة الغجرية قطعت من نسائكم شبراً فقد قطعت من زوجتي متراً، فقال أحمد: «امرأتك طيبة وبنت حلال ولكنك تشغلهم يا زاكي بالدنيا والزرع والبهائم والبيع والشراء، بيتك يحتاج إلى الروقان، ورأسك تحتاج أن تنفض ما فيها من الهموم، يا زاكي إنك حتى لا تترك فرصة للحشيش أن يسطلك»، وقال نور النديم يحدثني: «البيوت يا صاحبي تعج بالكراهية والمحاكم صارت ملأى عن آخرها بنساءٍ يطلبن الخلع أو الطلاق، في ذلك الزمن بات الرجل مجبراً على المنافسة وإلا سيجتمع على كل رجلٍ خفيف الدم عشر نساء وأكثر، صحيح أن النساء كتبن عقداً بملازمة البيوت منذ أيام سيدنا نوح لكن أغلبهن نفر الآن من شروط العقد». وقال أحمد لزاكي: «مشكلتك هينة يا زاكي. لكن قل لي بالله ماذا على

رجل مثلي أن يفعل؟ في كل يومٍ تدخل عليَّ المكتب نساء أشكالٌ وألوان، منهن من تريد الخلع ومن تريد الطلاق ومن ترغب في الفضفضة وإطالة الكلام، وأخرى يكون غرضها المشاغلة بالعين والحاجب وأخوك في نار يا زاكي». وسألني نور النديم كأنما يلاحظ حضوري للمرة الأولى: «من أنت يا رجل؟»، فقلت وقد ساءني سؤاله: «أنا صاحبك وحبيبك!»

أسرار

كان سيد عبد المتعال في حاجة إلى رجلٍ من أهل القرية يجمع له الناس في حملته الانتخابية الأولى والتي كانت في أعقاب الثورة، بالرغم من كون السيد عبد المتعال مقبولاً من كل الأنظمة، لأنه لا يطعن ولا يعقب على شيء، ولأنه يجتمع بدراويشه يهزون رؤوسهم والسلام من غير حديثٍ عن الدنيا إلا في أقل القليل، وشعاره بين أهله: «دع الملك للمالك، وما لقيصر لابد من أن يصله شئنا أم أبينا».

وبالرغم من استعداد مريديه للإنفاق على حملته الانتخابية بلا حسابٍ ولا مراجعة، إلا أنه كرجلٍ ذكيٍ قرر أن يضيف لما يملك من امتيازاتٍ رجلاً طيباً يحبه الناس، ويكون رسولاً بحسن النوايا لدى المتوجسين منه، ولم يجد في القرية كلها سيرة أطيب من سيرة الأستاذ أحمد الجنوبي، الرجل عفيف اليد والمحبوب من الجميع. ففاتحه في الأمر وأغراه بمكتبٍ جديدٍ في المدينة وسكرتيرة حلوة، وقدَّمَ أحمد بفضل سيد عبد المتعال خدمات لأناسٍ كثيرين في القرية.

لكن بعد أيامٍ من تولي أحمد الجنوبي أمانة الحزب في البلدة وفرحته بالمكتب والسكرتيرة اكتشف أحمد أنه ورط نفسه، لأن سمعة سيد في القرية منذ أيام أمه السحارة الغجرية، ومن بعدها سيرته هو في السحر والأعمال، سمعة لا يود رجلٌ شريفٌ أن يتصل بها، وقد كان الناس يوعزون لأحمد بترك الحملة الانتخابية والتبرؤ من سيد عبد المتعال من فوق منبر أحد المساجد، لأن أحمد في زعمهم قد أساء لنفسه لارتباطه بهذا الساحر. وهمّ أحمد أن يفعلها من طول زنِّ الناس عليه. لكن شوقي العبد بحنكته ومحبته للجنوبي قد رده لعقله، وقال له: «تريد أن تترك الرجل قبل أيام من فرز الصناديق وأنت مدير حملته الانتخابية في البلدة؟ والله لو كنت مكانه لضربتك بالرصاص، ولا يعاتبني أحدٌ فيك»، فاستمر أحمد على مضض

حتى فُرِزَت الصناديق وفاز سيد عبد المتعال، وكان الجميع يرى فضل الجنوبي على هذا الفوز لثقة الناس به، حتى سيد عبد المتعال كان يعرف ذلك، وعرض على أحمد مغريات كثيرة ليستمر معه، بل أخبره أنه سيستخرج له "كارنيه" من مجلس الشعب يجعل لأحمد الحق في مصاحبته في جلسات المجلس ويظهر في التلفزيون معه. والحقيقة أن سيد عبد المتعال قد أحبَّ أحمد واستملح صحبته، والحقيقة أيضاً أنه كان يعلم ما يضمره أحمد وشكر له أنه لم يستمع للناس أو يخزيه، وكانت هذه لعبةً من اسعد النديم لإفشال عبد المتعال في القرية وأمام الحكومة، التي ظل أسعد هو حبيبها الوحيد في القرية لسنواتٍ طويلة، ومن جهة أخرى هي طريقة عجوزٍ واعر لإطفاء نجم أحمد الجنوبي الذي يتوجس منه أسعد النديم وولده، ولكن الله سلم، وانتهت الانتخابات ثم قدم أحمد استقالته من الحزب في هدوء، لكن السيد عبد المتعال زاره في بيته ليلاً، ودخل له الشاي ووقفت زوجة أحمد على الباب تتصنت، فوجدت أن السيد عبد المتعال بجلالة قدره يُثني على زوجها، ويطلب منه أن يتمنى عليه فيجيبه لما تمنى، حتى وإن لم يجمع بينهما العمل والمصالح بعد ذلك، لكن أحمد رفض بعزة نفسٍ أن ينال أي هديةٍ أو مجاملة من رجل لا يحترمه. كذلك كان أحمد ينظر للموضوع من ناحية طفولية، كان يخاف إن غضب منه السيد عبد المتعال أن يربطه عن زوجته فلا يستطيع مجامعتها إلا بأمرٍ منه، ولقد ركب الوسواس دماغ صاحبنا قبل تقديم الاستقالة بيومين، ووهم نفسه أن عصبه مرخيّ ولا يرد التحية، فقال في نفسه «بل فعلها سيد». لكن الحقيقة أن باله كان مشغولاً بمخاوف كثيرة في تلك الفترة، ولما يئس السيد من إنصات أحمد تركه على محبةٍ وانصرف، وفي طريقه إلى الخارج وجد زوجة أحمد الجنوبي كامنة في الظلمة التي خلف البوابة تحت عداد المياه والنور، وقالت له: «سمعتك تقول إنك مدين لزوجي بخدمة، فإن كان قد رفض فأنا أرغب في تقاضيها، أريدك أن تمنع أحمد بسحرٍ ما عن البصبصة لنساء المكتب، هو طيبٌ لكن حمله ثقيلٌ وكان الله في عونه»، فقال لها: «طلباتك أوامر يا زوجة الرجل الطيب، زوريني في مساء الغد، وأتِني بثوبين

لك يحبهما زوجُكِ عليك. وفتشت في دولابها عن شيء يقبله الساحر ولا يرده، فوجدت ثوباً جميلاً كان يناسبها وضاق عليها، وثوباً مهلهلاً وقديماً فحملتهما إليه وألقى البخور على المجمرة وتلمس الثوبين بعصاً مسحورة، فوقف الثوبان على أقدامٍ كبني آدم، وخرج من طوق كل جلبابٍ رأس أنثى.

ووجدت أم مريم نفسها بين امرأتين في نفس سنها، إحداهما قبيحة للغاية خرجت من الثوب المهلهل وقال لها الساحر: «سَمِّهَا يا أم مريم»، قالت: «أُسميها مستورة»، وأما الأخرى خرجت من الثوب الجميل فكانت رائعة الجمال، لكنها في الأصل وفي منبت الملامح تشبه أم مريم، والعاقل إذا حدَّقَ يراهما امرأة واحدة، لكن التي خرجت من طوق الجلباب الناعم كانت امرأة ناعمة وبادية عليها الرفاهية قال الساحر: سمها يا أم مريم، فنظرت في وجهها وتحيرت، فقالت: «هذي اسميها أسرار». ثم قالت له: «وما نفع كلتيهما عندي؟»، فقال: «أما الخرقة المهلهلة مستورة فاتركيها تعمل عنده في المكتب، تخدمه وتراقبه لك، وتنقل إليك أخباره، وأما اسرار فسيحبها ويلهو معها حتى تصل به المحبة لأن يعلم بأنها هي أنتِ لا أكثر، وليكن في معلومك سوف تنسين هذا الكلام بمجرد الخروج من عندي».

وفي نصف الطريق إلى بيتها نسيت أم مريم لماذا خرجت أصلاً من البيت وقالت: «ربما أردتُ زيارة أمي» وعرجت على أمها.

أما سيد عبد المتعال فقد خرج في منتصف الليل وفي كلتا يديه كلٌ من مستورة وأسرار، وتخفَّى في القرية حتى وصل بهما إلى حافة الترعة، واستأذن بالسحر الذي يعلمه على عفاريت الترعة النائمين أن يخرج له واحدٌ منهم، فخرج عفريتٌ عجوزٌ يعمل بالنهار موظفاً بالسجل المدني، وأحياناً بالشهر العقاري، وأحياناً مأذوناً شرعياً، هو في الحقيقة لا يعمل هناك ولا هنا، لكنه في كل مرة يأتيه السيد عبد المتعال أو ساحرٌ آخر بواحدٍ أو واحدة من المساخيط كان العفريت يؤلف لهم الحكايات ويلقيها في ذاكرة أهل القرية، ثم يمشي في المصالح الحكومية ليستخرج شهادات

الميلاد وبطاقات تحقيق الشخصية وقسائم الزواج للمساخيط، لكي يصدق الناس الحكايات التي يؤلفها العفريت عنهم.

فلما وقف أمامه السيد بمستورة وأسرار وقال: «ضع لهما حكايات وورقاً»، احتد العفريت وقال: «لا... لا يا سيد... المساخيط صاروا زيادة عن اللازم والمعقول في هذه القرية، وأنت تطالبني بصناعة حكايتين مرة واحدة! اتق الله ولو كنت ساحراً». فأخرج له سيد عبد المتعال فصَّ أفيونٍ أصليٍ، وكان العفريت تعوَّدَ على تقبل الرشاوى من كثرة عشرته للموظفين، فمصَّ الأفيون وانبسط، وقال: «بشرفي... سوف أؤلف لهما حكايات يتغنى الناس بها».

وفي الصباح كانت أسرار تجلس في شرفة منزلها شاردة ومن خلفها زوجها وابنتها المراهقة يكرران عليها النداء، فالتفتت وأجابت ثم وصّلها زوجها إلى المدرسة التي تعمل فيها أسرار مدرسة لغة عربية تحب الأشعار والأناشيد. بينما زوجها وهو عائدٌ منفردٌ بنفسه ركن السيارة في رقعةٍ بعيدةٍ عن العمران، وجلس يتذكر عشرته الطويلة مع أسرار، وحكايتهما التي تُدوَّنُ في الكتاب وتغنى على الرباب.

يقول الأستاذ نادر زوج أسرار: «أحببت أسرار منذ أن كانت في الجامعة، وقد كنت في منتصف العقد الرابع وكانت هي فرساً جموحاً في العشرين، وكان أبوها صديقي وألاعبه الطاولة والدومينو في منزلهم، فكنتُ أراها ويلتهب قلبي محبةً دون جرأة على مفاتحة صديقي في شأن خطبة ابنته الجميلة، خصوصاً وأنني من النوع الذي يراه كثيرٌ منكم قليل الكلام وصديقاً للعواجيز. الصراحة راحة يا مستمعين، فكروا فيَّ كما شئتم واقبلوا شهادات الجميع في ثقل ظلي وبطء حركتي وضحكتي المستجلبة للسخرية، لا يعنيني كلامكم، كل ما يعنيني هي زوجتي أسرار، التي كانت أيامها تحب زميلها في الجامعة، واتفقا سوياً على الزواج في السنة الأخيرة، ولما رفض أبوها الشابَ المتقدم سألتُهُ أنا عن ذلك فقال: «أسرار بنت جموح، وتحتاج لزوج يروض جموحها أو يحتمله».

ولم يكن الشاب الذي أحبته أسرار هذا ولا ذاك، فلو رأى فيه أبوها خيراً لزوجه منها ولو كان فقيراً، فقد كان أبوها غنياً، وعاش في الخليج عمراً كاملاً، وكان من القلائل الذين يملكون في القرية بيتاً واسعاً وسيارة، ويُصرُّ على تعليم بناته للنهاية. ورأيتُ كأن صاحبي يلمحُ لي أن أتقدم لخطبة ابنته، ولكني صراحة وجِلْتُ أن يأتيني منها رفضٌ مخزٍ. فكتمتُ المحبة وصبرت، وقرصتُ بيدي زهر النرد، فجاء بستة وستة، فكان حظي أن أنول ست البنات بتزكية من أبيها. وعَلِمَتْ البلدة بالمحبة التي كانت بين أسرار وزميلها، رغم ذلك تقدم كثيرون لخطبتها، فرفضتهم جميعاً عناداً فوق عناد أبيها، وقال الناس كذا وكذا، وتفشى الكلام السيء في قريتنا عن سمعتها، وقف أبوها يكلم الله على مسمع مِنّي وقال: «يا رب خذني، أو زوجها من رجل طيب يقطع عنها الألسنة»، فأحسستُ أنه لا يخاطب الله بقدر ما يكلمني، فقلت: «زوجنيها»، فتهلل وجهه وصافحني، ولم تكن مفاجئةً لي أن أسرار قبلت.

لكن بعد خمسة أعوام من زواج كانت تتكلف فيه الابتسام، وتحضني دائماً على الخروج من المنزل للتمشية أو لزيارة الأقارب، وبعد أن مات والدها صاحبي وانقطع أنس الدنيا، اكتشفتُ أن أسرار ما زالت تقابل حبيبها الأول، وتسافر له بالقطار ويتمشيان كل يومٍ في بلدٍ جديد. هي كمدرسةٍ جميلة كان زملاؤها الرجال في كل المواد الدراسية يحملون حصصها عنها، ويكفيهم أجراً ورَدَّاً للجميل أن تُسلم عليهم، أو أن تمشي برعونة خصرها ما بينهم، ويكفي من أسرار طلةٌ واحدة عليها لتحبها، كما فعل الناس وفعلتُ أنا.

ولما أجلستها بين يدي وضيقت عليها فواجهتها بما سمعتُهُ عنها ورأيته، تملَّصَتْ من قبضتي، وواجهتني بنظرة تقول صراحة: «نعم لم أحبك، ولن أحبك، وأنت تزوجتني على درايةٍ بداء قلبي، فلم قبلت؟»، ولم أقو على طلاقها ولهاً بها وهياماً، ثم إحساساً بالمسؤولية التي وكلني بها أبوها صاحب عمري. وتحرك القدر لصالحي، فمات حبيبها تحت عجلات القطار في ضباب الصبح والشبورة. وحزنت أسرار ولم تخف حزنها، ولما جاءتها إعارةٌ قبلتها دون أذني أو مشورتي، وقال لي أبي: «زوجتك جميلة يا نادر، لا

تتركها تسافر وحدها وإلا ستندم»، لم يعلم أبي أنني منذ زواجي منها ما توقفت عن الندم، وقلت لها: «سافري وانسي همومك ثم ارجعي لنا»، وقابلتها عند بوابة المطار بعد أربع سنوات من الغياب فلم أتعرف عليها، لا أنا ولا ابنتها الوحيدة، لأن الله كان قد زادها جمالاً خلال تلك السنوات بقدرٍ لا يُصدق، واستبدل باللحم والدم في جسدها قشدة حمراء وعسلاً مصفى، وقبلتها في وجنتها فقبلتني، ومشينا إلى البيت زوجين لا يؤرقنا شيء وتأبطتني. لكن بعد ستة أشهرٍ بالعدِّ والتمام – والزوج دائماً يعرف– وجدتُ في عيون أسرار زوجتي وفي فرحتها رجلاً آخر غيري، فركبني الغَمُّ والنكد من جديد، وذهلتُ حيال جرأتها ورفضها لمحبتي، وبدا لي أنها ستحب أي رجلٍ سواي وغيري، خاصة أن حبيبها الثاني كان سيء السمعة، ومدرساً في المدرسة المقابلة لمدرستها، وعلمتُ من بعض الناس أنه سجل لها كلاماً تقول فيه: «أنا فلانة وأحب فلاناً».

لم أعرف لماذا أحبته، لكنني فطنتُ لليوم الذي بدأ فيه يبتزها، من عينيها الحائرتين علمت، ومن كلام الوشاة في القرية. فذهبت من فوري إلى بيت غريمي وطرقت الباب عليه فلم أحيِّ زوجته التي فتحت، وخرج إليَّ مذعوراً تلعب برأسه الظنون، فلم أشرب الشاي عنده وقلت له: «أستطيع أن أفضحك في بيتك، وأستطيع أن أجلسك للحق والغرامة عند أسعد النديم كبير قريتنا، وأستطيع أن أقتلك، ونستطيع أن ينسى كل منا الآخر لو انتهيت عن زوجتي، ولو أعطيتني ما تكسر به عينها، وتذلها وتبكيها به طوال الليل». وبأقل كلامٍ هز رأسه وأخرج الشرائط التي عليها صوتها ومحبتها، ثم قال بسماجة: «عذراً»، فبصقت في وجهه أمام زوجته وخرجتُ فطلب بعدها نقله لمدرسة أخرى بقريةٍ مجاورة.

هدأت أسرار من بعد تلك الواقعة ومرحت مع العيال في البيت ومكثت تذاكر لهما الدروس، فحدبتنا جميعاً بعطفٍ جعل الحياة حلوة والنسيان ممكناً، رغم نزيف الذكريات المؤلمة.

ومرت السنوات، ودخلتْ عليَّ أسرار البيت بابتسامةٍ أعرفها، وملَّستْ على رأسي كعادتها كلما وقعت في حبٍ جديد، وسألتني عن الغداء الذي أشتهيه لأنها تريد أن تطبخ أكلة حلوة. وحامت الشبهات في البلدة حول رجلين شوهدت في صحبة كليهما، أحمد الجنوبي وصاحبه نور النديم، لكني علمتُ أنها لم ترتبط بذلك الفيلسوف الذي كان يكلم نفسه في الشوارع ويعشقُ المساطيلُ حكاياته. فللمفارقة المحزنة أصبحت أعرفُ ذوقَ زوجتي في الرجال، كان أحمد الجنوبي يشبه حبيبها الأول بشكل لا يُصدَّق، بل إن أسرار تشبه في ملامحها وعودها زوجة الجنوبي بشكل لا يصدق أيضاً، لكن نعومة أسرار وبياضها يجعلها أحلى وأشهى وأبهى.

وكعادتي مشيت مقتولاً من جراء نكرانها لمحبتي، وكنت أراهما في السيارة معاً وأسمع الناس يتغامزون، فأعرف من الطريق والشجر حكايتهما، لا بد أنها تنتظر الآن أن يمر عليها بسيارته الفضية من أمام المدرسة لتنزل إليه.

◆◆◆

ودار أحمد الجنوبي بسيارته حول مدرسة أسرار وضرب الكلاكسات وعلىَّ النفير لكي تخرج إليه، ولم ينتبه أحمد أنها كانت واقفة له في شرفة الطابق الثاني من المدرسة تحاول أن تنبهه لطفاً من غير أن تفضح نفسها، وفي النهاية نزلت إليه فأدار الكاسيت على أغنية لإليسا، ودار بالسيارة في الشوارع كلها إطالة لوقت بقائها معه، وحذراً من أن يُعثر عليهما في جانبٍ من القرية يتهامسان أو يتلامسان فيكثر القيل والقال. اختبأ بها يا أحمد بين الآكام وأدلف معها إلى ثقبٍ ينام من حوله شجر الجميز العتيق، لكن حتى هنالك لا تأمن متطفلاً فماذا تفعل يا أحمد؟ أجملُ امرأةٍ في الدنيا، ذات الدلال وربة الترف، كلامها حلو وهي حلوة، حلوة جداً يا ربي، وإن مشيتها الميادة قد أمرضت رجالاً بتليف الكبد. هي الآن بين يديَّ تقول ضارعةً: «اقطف ما شئت، واجلس متربعاً على قلبي، الناس في كوم وأنت في حبة عيني». يا رب سامحني إن قلت بأن يوسف عليه السلام إن رأى أسرار

وجالسها قليلاً لتغيرت القصة تماماً. أما أنا فأُحب أسرار، فمن قال منكم لا تحبها أخذته من يده إلى حيث يراها ويبكي على حظه، طيبة القلب تودُّني، وتودُ أهل بيتي، وتهاتفُ زوجتي تسأل عن صحتها، وترعى ابنتي في المدرسة. وتسرف في هداياها إليَّ في عيد مولدي وعيد الربيع وعيد المحبة، وبلا أعيادٍ تهديني أيضاً، عندي منها جلبابٌ وقميصٌ وساعةٌ وألف زجاجة عطرٍ ورابطة عنقٍ وخاتمٌ من فضةٍ فصُّهُ أزرق، ومسبحة كهرمان وعود ريحان، وحامل أقلامٍ وحقيبةٌ جلدية. تودني جهاراً بين الناس بلا خوفٍ من الفضيحة، وأفشَتْ بين الناس أنها تثق بي كأخيها ومحامٍ لها، فصدق الناس وقالوا «آمين». لكن ماذا لو تلبسنا في قبلةٍ أو حضن، أنا لست يوسف يا خلق الله! ومنكم من يقول: «يا أخي استأجر شقة أو وكراً في مكانٍ بعيدٍ واستمتع بشبابك ومتعها»، فأقول له: «أنت لا تعرف أحمد الجنوبي»، أنا رجل ذاقَ الدلع بعد الأربعين فاستمرأه، وهي ليست رخيصة في عيني، وقد امتحنتها فلم أجدها محض امرأةٍ شبقة، أسرار كانت تحب هي الأخرى، وما عاد يخالجني شكٌ أن زوجها يدري ما بيننا، وكم من مرةٍ أوقفتُ السيارة فجأة في وسط الطريق دون مراعاةٍ لأحدٍ فأقول لها: «زوجك يا أسرار ما هو؟! من أي ماء خُلق؟!!»، قابلنا مرتين في الطريق أنا وأنت، في المرة الأولى حاولتُ أن أخلق سبباً يبرر ركوب زوجته معي، فوجدته يسلم عليَّ بحفاوة كمن يطمئنني، وفي المرة الثانية رآنا ولم أتوقف له بالسيارة، وكانت هي تعطيني هاتفها لأكلمه وأسلم عليه. ما الذي أقوله وما الذي تقرؤونه هذا؟ أيصدق أحدكم حرفاً من ذلك؟!! هل هذا صنفٌ جديدٌ من الدياثة؟، وتخبرني أسرار بأن زوجها كان مرتبكاً حين قابلها معي، وتصف الأشياء بأسماء كبيرة لتحيد بي عن تسمية ما يحدث بيننا.

◆◆◆

وعن عشاق أسرار كتب العفريت في الكراسة أنهم كُثر، ولكم جَنَتْ على قلبٍ تبسمت صوبه وهي سرحانة في شأن أخر لا يخصه! ولها قتيل أو جريح عند مرمى كل نظرة منها أو خلجة من الرمش. ومِن نائمٍ على ظهره صدره يعلو ويهبط حالماً بها، ومؤرقٍ على السطح قام يتلمسها في جمال

القمر. ويقول زوج أسرار في صراحة لا يحسد عليها ولا أحب أن أكون ولا أنتم مكانه: «عرفت من عشاق أسرار أمماً أمثالكم، منهم من تخفى في هموم الدنيا لينسى عشقها فما نسي، وكان يبني البيوت طابقاً عن طابق ويجمع المال والأرض ويملأ الدنيا عيالاً، فإن مرت به أسرار في حاجةٍ لها قال: «وما نفع ذلك وما الدنيا وبهجتها إن لم أحز أسرار معي». ومنهم عاشقون دُوَّمٌ على الصبابة يترصدونها في مظانها، وما يطمعون إلا في نظرة إشفاق على حالهم المزرية. ومن الصنف الأخير عرفت شوقي العبد».

انتهى كلام الزوج يا ولداه. أما شوقي فكان الله في عونه على قلبه، إذ أنه لا يصحو من النوم إلا ناظراً للدنيا بلومٍ وإن كانت البيوت كلها تصلي الصبح، وشوقي لا يفعل، فلا بد يا شوقي أن في قلبك شيئاً، تكلم يا شوقي... لكن شوقي لا يفعل، يُمثِّل في الدنيا دور الرجل الغويط، لكنك يا شوقي غلبان وحق كتاب الله، ما لم يخبركم به شوقي أن أسعد النديم لم يكن له ذنب في الإطاحة باسمه من كشوف المقبولين في النيابة العامة، وما حدث أن عشرة أسماء كانوا في الورقة أمام الوزير فحذف اسمين وقال: «نحتاج إلى ثمانية فحسب»، فبات شوقي زعلان من الله كابنك الذي لم تعطه قطعة الحلوى. وزاد من حنقِهِ شماتة أسعد النديم فيه. ولو كنتُ يا رب وكيلاً للنيابة لتزوجت أسرار، لكن أهلها رفضوا مرة بعد مرة وقالوا: «أنتم يا عبيد أهل غيطان وتجارة، أما أسرار فهي مرفهة في بساتين أبيها، تُقطف لها الثمار بلا تعب، وتلبس ما عزَّ وغلا، والبنت حلوة يا شوقي ونساؤكم سيغرن منها».

كل صباحٍ شوقي يذكره قلبه بذلك، حتى بعدما صار في الخامسة والخمسين، فينظر للصباح في لومٍ وضيقٍ فيشعل السيجارة، ثم يقرر أحياناً أن يذهب إلى وظيفته التي جاد بها عليهم الحاج أسعد بعد لأيٍ وتوسل، هو الآن يعمل كاتباً في المحكمة بعقدٍ مؤقت، وهو مسمى وظيفي للا شيء، للفراغ التام، فهم ثمانون رجلاً في مكتب واحد، تزكمك رائحة العرق والتبغ بمجرد أن تدلف إلى مكمنهم العلوي. لكن حجرة المحفوظات المقابلة لحجرتهم كان بها عشرة نسوة بين الحلوة والنغشة والمكسوفة التي تنتظر أن يبادئها أحدهم بالكلام. فيسلم شوقي عليهن بنعومة عند الباب شاهراً كُمَّ

جلبابه، كلا لم أخطئ، فشوقي العبد يذهب لعمله في جلباب، وهذه واحدة من دلالات جبروت عائلة العبد وعنادهم في كل شيء، ولو كان الصواب والأصح واضحاً كعين الشمس، بل إن شوقي قد ازداد تجبراً على مديره، ووضع لنفسه مكتباً في حجرة لا تخصه، حجرة المحفوظات المبهجة الملآى بالنساء، والرجل طول عمره – والشهادة لله– كريمٌ جواد مع أهله وأصحابه والسائل والجار، فكان لا يأكل السندوتش وحده أبداً بل كان يغدق على الجميع بأكل وشاي وسكر، وكان المدين إن تَلمَّس رحمة شوقي وجدها، بل ويعطيه شوقي بقية ما في جيبه، وربما اقترض له من صاحبٍ يعرفه ثم يمنحه براحاً في السداد. وكانت تسلية شوقي بعد الإفطار والشاي أن يناكش الزميلات بحديثٍ عام عن الملل في الزوجية، فتدلي كل واحدة بدلوها، وتكشف من الملل أسرار بيتها، ويقترب منها شوقي ويتودود معهن في كل شيء، وما عاد شيء في بيوت الزميلات سراً على شوقي، حتى ألوان القمصان الداخلية وما تحتها، وحال الزوج وحاجته للفياجرا، بل إن من بين الزميلات من كان يقرصها في فخذها عشماً، وتمضي في الكلام عن الليلة الفائتة في فراش زوجها، وكان أحياناً لا يسأل بلسانه بل يستفسر بعينه وحواجبه من الزميلة التي تقبع في آخر الحجرة، ولا تحب أن تشارك في الحديث علناً، فترفع له إبهام يمناها لأعلى أو لأسفل فيضحك لها وتضحك.

والمكاتب والبيوت تنضح بالرتابة والملل، ولا راحة في الدنيا، ولا شيء يشغلهم غير ذلك في ساعات العمل، ويحكى أنه تباسط مرة مع أحد الزملاء فأخذهما الكلام إلى المقارنة بين سيقان النساء، وهل الملفوفة أحلى أم ذات السمانة المدورة والكعب الأبيض أمتع، فقال زميله: «إن سهير رمزي وإن كان جذعها السفلي لا يعلى عليه لكن سيقانها مدقوقة كأرجل الماعز، وأين هي من سيقان هياتم؟!»، وهنا يحكي شوقي على مسؤوليته، وإن كنا جميعاً لا نصدقه أن زميلة فاضلة قالت لهما بعد ان شعرت بالغيرة: «وحق كتاب الله إن ساقيَّ أنا أحلى»، فقال لها شوقي: «قالوا الجمل يطلع النخلة!!....»، فتهورت المرأة ورفعت عبايتها من عند الأرض إلى ركبتيها، وظهر للذي يجلس على الكرسي أمامها أشياء أخرى ما بين فخذيها. ونحن لم

نصدق ذلك حين حكاه لنا، ولكنه في الليلة التالية جاء بصاحبه كشاهدٍ على ما حدث، وحلف الرجل وأقسم، ونحن في مجالس الحشيش كما تعلمون نقبل الشهادة من العدول ومن غيرهم. لكنا في النهاية لا نصدق سوى ما يسيغه المنطق، وتسألني عن شوقي أقول لك: «لا بيع فيه ولا شراء، لكنه لا يؤتمن على سرٍ ويزيد أحياناً في الكلام ليملأ فراغ وقته، ويجذب انتباه السامع إليه، عيبه كله في لسانه، وربما ورَّطَ نفسه في كلامٍ يُحاسب عليه. وينجو دائماً من ذلك بالكلام المتجاسر وبأيمان الطلاق المغلظة، وكان يندم على ما فعل ولا يعتذر أبداً».

ويحكي عن زميلة له في الأربعين من عمرها، امرأة حلوة يصقلها الدهر أكثر وينحت خصرها كلما مرت عليها السنوات، وكان جسمها يهتز في عباءتها مثل الحليب الرائب، وقال إنه لو شاء لمكنته من نفسها حيثما شاء، وهذه قد رآها أحمد الجنوبي مع شوقي يضاحكها وتضاحكه، ويلكمها برقة في كتفها وتضربه في صدره، وأقسم أحمد أنها ذات جمالٍ يُقال فيه الشعر، امرأة من بلدة زارها الإنجليز في الزمن القديم وتشبههم. وقال شوقي: «لكنها فلاحة مثل بقية نسائنا يا أحمد، أسنانها صفراء، وحمالة صدرها غير محبوكة عليها». وقال أيضاً: «رأيت دم الحيض على فستانها من الخلف وهي تصعد أمامي الدرج فنفرت منها»، وفي العصر بعد أن يعود لمنزله ويقيل ساعتين يمسي رائقاً أكثر، ويذهب إلى دكانة المانيفاتورة التي كان يمتلكها، يحدثه العامل في الدكانة عن بضاعة جديدة يحتاجها المحل فيعطيه ما يكفيه ولا يسأل عن اسم البضاعة، إنما جاء إلى الدكانة لأنها قبالة محل "أسماء"، الأرملة البيضاء التي تبيع العباءات والنقاب وخمار الرأس، ثم حين يخلو محلها من الزبائن يهز طوله ويعبر الشارع إليها، يحكون عن جمالها قبل أن تلبس النقاب في جمال نورا الممثلة البضة، كذلك فإن النقاب مهما بلغ من تكلف الاحتشام فإنه لا يكفر جمال القوام. وتسألني عن شوقي والنساء أقول لك أنه يا سيدي لا ذيب ولا هو خط الصعيد، كل ما في الأمر أن لهجته الممطوطة يكتنفها شيء ما يجعل النساء يألفنه جداً ولا يحتشمن أمامه، لكنه إن تخطى حدوده ترده بنت حوا أصفر الجلد، كما

رأى ذات يوم من أسماء أصابعها وهي تستبدل منه أربع خمسينات بمئتي جنيه، فأمسك أصبعها الذي فيه أثر الخاتم، فردته سريعاً واستكملت العد ثم قالت: «شرفت المكان يا عم شوقي، بارك الله في بيتك وأولادك». فانصرف عنها مخزياً تكاد تدهمه التكاتك المسرعة التي تزحم الشارع، ومكث في دكانه يمص أفيونة ويندم على ما بدر منه. الملل وقلة الحيلة يسيغان له ذلك النوع من التحرش، وتتراكم الذكريات على بعضها بلا معنى، من أنا؟ ولماذا أنا؟ أسئلة لا نحسن أن نجيب عليها فتظل تصفر في الفراغ المحيط بأرواحنا المنهكة، وشوقي بطبعه وفطرته لا يطيق الفلسفة ولا التفلسف، لذا فإن يومه كله يقضيه فساءً في وجه الدنيا. لكن شوقي رغم تقولنا عليه فإنه ما زال يحلم، ومن وقت لآخر يلبس عباءته فوق جلبابه الكشمير، ويرسل اللاثة على كتفه، ثم يمشي بعصاه العاج متبختراً إلى مكتب طارق بك الشاذلي رئيس المباحث، وبعد السلام والتحية وفنجان القهوة الذي حمله أمين الشرطة بنفسه لشوقي سخي اليد، وضع طارق بك في كفِّ شوقي خمسة جرامات كاملة من الحشيش وقال: «تحية مني لك ولأصدقائك الذين تسهر معهم في بستان الجنوبي».

وسأله شوقي مرة: «لماذا أسعد النديم يا طارق بك؟ لماذا تصرون عليه رغم أسنانه التي سقطت وما عادت تخيف العيل المرعوش، وقد هزمه الإخوان في قريته مرة، رغم ذلك ما زلتم تصرون عليه، هذا هو السؤال الذي يحيرني، ويدهشني أنكم تتجاهلون رجال عائلة العبد!». وقال طارق بك وهو يشير إلى شوقي ليتحرك معه ناحية الأنترية المكسو بالجلد: «الناس بمنتهى الصراحة يكرهونكم».

فقاطعه شوقي مؤكداً: «ولكنهم يحبون شوقي وأنتم تعرفون ذلك. ثم إن أسعد الآن تلزمه لمسة خفيفة ليتداعى، وهذه اللمسة سوف تأتيه من ابن أخيه نور النديم، تلك الحكايات التي يملأ بها أخيلة السامعين عن الجن والملائكة وأصول البلدة جعلت الناس ينظرون بحقد أكبر إلى دَوَّار أسعد، ويعدون عليه أخطاءه. الرصاص والزمن لم يقتلا أسعد النديم لكن الحكايات تفعل». وقال طارق الشاذلي محتداً:

- هذا كلام في منتهى الخطورة، يجب أن تنتبهوا لكلامكم في البستان يا حاج شوقي، البلد تمر بمرحلة عسيرة وأنت تعلم.
- ومن قال إن أسعد هو البلد، أو حتى نور ابن أخيه... نحن البلد يا حكومة، جربونا يا طارق بك ولن تخسروا شيئاً...جربونا كما جربتم ابن نفيسة الغجرية!

وأنهى طارق بك المجلس بأن قام ومد يده لمصافحة الضيف: «يا حاج شوقي كلامك معقول، ولكن ما على الرسول إلا البلاغ، اطلب مني شيئاً في وسعي تحقيقه لك»، فقام شوقي وسلم وانصرف، ثم عاد قبل أن يغلق الباب خلفه ليقول: «ربما لو أصبحتُ رئيساً للمجالس المحلية في كامل المركز؟»

فابتسم طارق بك وقال: «نورت يا حاج شوقي».

وتحكي أسرار عن زوجها، أنه قشر لها موزة وقربها من فمها المنمنم وقال: «ما أدري يا أسرار فمك أم الفاكهة أحلى»... ثم قال: «صادفت اليوم أحمد الجنوبي... رجل ابن حلال صحيح... كان الناس ملتفين من حوله وهو يخطب فيهم كالزعيم... أصلُ الموضوع موكلٌ عنده أراد أن يخدعه بعقود صورية تثبت أن الأب قد باع له كل شيء قبل موته، وأضمر في نفسه أن يأكل مال اليتامى إخوته، لأنها كانت عقوداً لتسهيل المصالح لا أكثر، فلما علم أحمد أنه خُدع وساهم في أكل مال اليتيم ذهب إلى بيت موكله ظهراً وفضحه بين الناس، ثم أجبره على كتابه عقود جديدة تحفظ حقوق اليتامى»... وقالت أسرار: «أخشي أن زوجي أيضاً يحبك يا أحمد».

وعن شوقي العبد يقول نادر زوج أسرار: «له مرور ببيتنا في الصبح والمسا، يطالع نافذة أسرار الموارية كأنما يرفع عينه صدفة إليها وبغير قصد، فإن رآها بلَّم وتلعثم، وتظاهر أنه واقف لغرض آخر، فيكلم شوقي أول من يقابله ويعرض عليه المساعدة، وتسمع أسرار من نافذتها شوقي يقول للرجل: «كل موظفي مجلس المدينة معارفي ويودون خدمتي»، ونسمع منه: «اذهب وقل للمأمور شوقي العبد يبلغك السلام ويقول لك إن فلاناً

قريبي». دائماً ما يتفاخر شوقي تحت شباكنا، ولكن أسرار لم تلتفت إليه يوماً، أو بالأحرى توقفت منذ زمن عن الالتفات إليه، مسكين شوقي! وما انقطع عن شباكها حتى في سنوات إعارتها للخارج، كان يأتي ويتلمس من وجهي أنا أخبارها، فصارت بيننا ألفة وعشرة، وكنت أخبره بلا كلامٍ أنها بخير، أو أنها أوشكت أن تأتي، وفي اليوم الذي كان مقرراً لعودتها سربت إليه الخبر إشفاقاً عليه فما وسعه سوى أن يرمح كالعيال بطول الترعة من شدة الفرحة... أما أنتم فلا تحسبوا أسرار تكرهني تماماً، فكثيراً ما أهدتني ليالي لا يحلم بها الملوك في قصورهم، وتدللني وتبوسني في رقبتي حتى أضحك!».

– اتركوني يا ناس أضرب هذا الزوج بالجزمة على راسه.
– اهدأ يا أستاذ أحمد! الرجل يحكي كما نحكي كلنا.
– لا تقولوا رجل، هو شيء بارد وابن كلب... يا سخيف يا عديم الحس!
– معلهش... الله يسامحك يا أستاذ أحمد.

المساخيط: حاشية على جمال أسرار

ونسي العفريت تماماً أن يكتب حرفاً في قصة مستورة، المولدة عن خرقة قديمة في قعر دولاب أحمد الجنوبي، العفريت قد تلهى بكتابة قصة أسرار حتى أحبها، وكان يصفر لها كلما مرت بمحاذاة ترعتنا الضيقة، يجلس لها على الضفة مبتلاً ويقول يا قمر، ويا قشدة، ونظرة يا جميل وحياة النبي.

وكان معجباً ومنشغلاً إلى حد الذهول بقدها، وعلاقة ردفيها بخصرها، وتلك المشية اللعوب التي تتقنها، ما يرقَّص عليها الجلباب وتميل فروع الأشجار لتتبصص عليها، وتدعي الأغصان كذباً إنما دلاَّها هواء إبريل وثقل الثمر عليها.

ولقد خسرنا هذا العفريت وحق كتاب الله، قد كان عفريتاً طيباً يمشي في مصالحنا ويختم الأوراق الحكومية، فكما تعلمون لا طاقة لابن آدم على الوقوف بين يدي موظفي الحكومة ولا نقود معنا. وقد رأيته عند باب مجلس المدينة شغله العشق عما حوله وعن الأوراق التي كانت في يده، والناس يصدمونه بأكتافهم وينظرون إليه شذراً، فلما رآني فرح وأمسك بذراعي يسألني عن أسرار، فأخبرته أنها جالستني منذ يومين في بيت المانعة وشربنا الشاي ثلاثة ريثما يأتي أحمد، وما جاء أحمد، انشغل عنها بشأن له، ثم سألت العفريت عن مستورة التي أهمل حكايتها تماماً فضرب جبينه بكفه وقال: «تذكرتها... تذكرتها» ثم رآها بعد يومين تشحت من الناس في الشارع فرقَّ لها، وتناول ورقة كان ملفوفاً فيها بقايا فسيخ وبصل، وكتب عن مستورة أنها زوجة فلاحٍ جلف، وهي تحمل الليسانس. ووجدت مستورة أنها تتذكر كل شيء عن بيتها وزوجها، ولكيلا يداخلها شك فيمن هي جاءها زوجها يصرخ عليها من الخلف وفي يده نعل البلغة الفلاحي ويقول مع مط في الكلام وتدلية الرأس كيد الطلمبة: «كنتِ فين من أول النهار يا بنت الصرمة؟»، وجرت من أمامه فتسلمتها حماتها في الزريبة تترب الروث من

تحت البهائم، ثم تكنس الدار وتطبخ للعائلة وتأكل الفتات، وتمسح للعيال ولجدهم، ثم آخر الليل يضع زوجها شالاً على وجهها كي لا يراها، ويأخذ منها حقوقه متخيلاً أخريات، مستورة مأساتها متداخلة كثيراً مع «سندريلا» لكن في قصتها العفاريت لم تساعدها، وكانت سبباً فيما هي فيه. لأن مستورة من المساخيط، ولكن حتى المساخيط الذين هُم فعلُ السحرة يمكنهم دائماً أن يتوجهوا بالدعاء لله لأنه كريم، فقالت: «يا رب خذني إليك أو غير مجرى يومي!» وكما جاء الأمير بالحذاء يبحث عن «سندريلا» في القرية مشى في بلدتنا أن زوجة الأستاذ أحمد الجنوبي المحامي تبحث في القرية عن مساعدة لزوجها في المكتب، زوجها المعجباني البصباص الذي بدأ يحس برفاهية العيش وفكَّرَ في اصطياد سكرتيرة حلوة له من محاميات المحكمة الحلوات لابسات البناطيل، فقالت أم أولاده: «اترك لي أنا اختار لك»، وتخيرت بين اثنتين من نساء القرية. الأولى مطلقة مرتين لأنها ممسوسة بشيطان، وتعض من غير إنذار. أما الثانية فهي مستورة التي يزهدها القرد، وقد فَرِحَتْ كثيراً حين علمت أن مستورة تحمل الليسانس بدرجة جيد جداً، ولكن كما يحمل الحمار أسفاراً. وكان تدلي شفة مستورة بغباء هو الحاسم في مسألة الاختيار، وخبط الحظ على باب مستورة، وخبطت هي لأول مرة على باب المكتب بكسوف، وقال أحمد: «حين رأيت وجهها وهيئتها أول مرةٍ فكرتُ كيف تظلم هذه الحياة ابن آدم. أنا لا أتحدث عنها، أنا أقول عن نفسي كيف سأحتمل هذه "الهذه" لساعاتٍ طويلة في المكتب وفي المحكمة». مستورة كان في شبشبها "جلة" حين خطت أول مرةٍ على سيراميك المكتب، فلما نبهتها زوجتي لوت شبشبها تحت إبطها، ومشت على السيراميك وحسبته لجة، وكانت الشقوق في قدميها تنام فيها الفئران، وكفها خمشتني وأثَّرَت في عظمي، وابتسمت زوجتي ووصتها عليَّ، ووصتني عليها، ثم صعدت تتمايد على درج السلم وتضحك هي وابنتي مريم ضحكاتٍ شيطانية، وقالت مستورة: «سجل رقمك يا أستاذ أحمد على المحمول»، وكان زوجها قد شَحَتَهُ لها من جارٍ طيب. وكان مغطى بالعرق والطين، وكان لا يشبه شيئاً مما رأيناه في دنيا

المحمول. فأمسكت الموبايل بأطراف أصابعي، وقلت لها: «مري عليَّ في الثامنة من صباح كل يوم، وفي المغرب من كل مساء».

وفي القاعة التي تنام فيها مستورة وزوجها والعيال وفئران كثيرة، كان نور اللمبة الصفراء خارج القاعة ينفذ من زجاج الباب المغبش، ثم يسقط على وجه مستورة فتجدها مبتسمة، زوجها لم يطالبها بتنظيف الزريبة قبل النوم لأنها ستكون في المحكمة صباحاً، محامية وستتقاضى من يد أحمد الجنوبي خمسمائة جنيه أول كل شهر، ويكسب الفلاح على يد الله ألوفاً من الجنيهات ويقتني الأرض والبهائم لكنه يظل طامعاً في المرتب الثابت، فغسلت مستورة رجليها قبل أن تنام ثم تناست الضوء الشاحب الذي ينفذ لوجهها ويشعل الأحلام في مخيلتها الساذجة، بالمناسبة هل لكم أن تدخلوا معي إلى أحلام مستورة منذ تلك الليلة؟ ها هي قد تركت الحلم ونامت، لكن من الممكن أن ندلف لخيالها دون أن يشعر بنا من في القاعة. أول حلمٍ لها كان عبارة عن غرفة مطلية بالأزرق الجيري، مضاءة بونَّاسة، وسقفها من الخشب، وكان يسكنها جاموسة كبيرة وعجلٌ صغير، وهي تحلب الجاموسة دون أن ينفد لبنها. ثم نقودٌ كثيرة تخبئها تحت المرتبة وفي ملابسها الداخلية في حمام المحكمة قبل أن تأتي للدار، أو هي تشتري هي وزوجها نصيب الآخرين في الدار والأرض. وفكرت أن تقف على سلم الدار تصرخ في النساء فيُجِبْنَها لما تريد، ويضعن في طبقها قطعة كبيرة من اللحم كالتي في يد الرجال، ثم تبيع الجاموسة التي أعجفت عن اللبن، وتشتري اثنتين وعجلين، وكان في خيالها نفس الجاموسة لها رأسان وعددٌ لا يحصى من الحلمات، حتى أن بعض الحلمات كانت تنتج الجبنة الفلاحي مباشرة، وعلب سمنة نباتية ونقوداً فضية، هذا حلمها وهي حرة فيه، وما كان ذلك تطاولَ راوٍ عليمٍ والعياذ بالله، ولكن انظروا إلى مستورة لتعلموا كل شيء دون سؤال ولا طول تخمين. فهي لم تحلم بالوقوف أمام قاضٍ ولا بلبس فستان جديد، ولا حذاء بكعب عالٍ ولم تر في أحلامها ورقة تحاول فهمها ولا ملفاً تمشي به من مكتبٍ لمكتب. وكانت تأتينا أخبارها بليلٍ في سهرتنا كلما سأل أحدنا أحمد عن سبب ضيقه وسرحانه، فقال: «سبقتها إلى المحكمة كي لا يعرفنا الناس

سوياً، فمشت في ردهات المحكمة تسأل عني، وحفيف شبشبها في البلاط ترتعش له الرقبة، ودلفت إلى كل مكتبٍ تسألُ عني، وعرَّفَتْ نفسها فلم يصدقها أحد، وسار معها بحثاً عني محاميتان جميلتان، وموظفة لعوبٌ تحب الهزار، وثلاثة سعاة، وكانت تصرخ باسمي وهم يضحكون، حتى عثروا عليَّ، فقمت من مكاني صاغراً وخبأتها في ركنٍ من مبنى النقابة. ولم يصدق القاضي أنها محامية حتى أخرجت له كارنيه النقابة من كيسٍ في صدرها، فسألها: «ماذا تطلبين»، وكنتُ قد طلبتُ منها التأجيل رغبة مني في المماطلة لحين الحصول على مستندات جديدة، قلتُ لها سنمُطُّ قليلاً من أجل التقاضي، وغمزتُ لها فضحكت، وحسبتُ أنها فهِمَتْ، فسألها القاضي: «لماذا ترغبين في التأجيل؟»، فقالت وهي تسر إليه: «سنمُطُّ في القضية»، ورسمت بيدها فعل المط وقلدها القاضي. أصبحتُ أضحوكة. وتقول مستورة: «أعطاني زبونٌ سلمتُهُ قرار البراءة خمسين جنيهاً تذبح ذكر البط، ورجلٌ طيبٌ مشيتُ معه بين المكاتب، فكرْمَشَ في يدي عشراً من الجنيهات، ويعطيني الأستاذ أحمد كل صباح مبلغاً لتصوير المستندات، ودفع الرسوم ويتبقى منه عشرٌ أو عشرون جنيهاً لا يسأل عنها أحمد، لأنه لا يحب الكلام الكثير معي، فكنت أثرثرُ عنده ليأمرني بالانصراف دون محاسبة. ويقول أحمد: «إنها كلبة فلوس، تتمحك بالزبون حتى تخجله ويدفع، ومن لا يخجل تعاركه ويفصل بينهما موظفو المحكمة، والنكبة حينما ركِبَتْ معي السيارة وجلست في الكرسيّ الأمامي، عطلت برائحتها عطر أسرار الذي كان فراغ السيارة ينعم به، وتحلو عليه أغنيات الحب حين أقود وحيداً». كان اجتماع رائحتهما معاً يذكرني برائحة أول وكرٍ للدعارة خلوتُ فيه بأنثى وهزمني سوء الرائحة فلم انتصب، وهربت لهواء الله، كذلك أفتح الشباك إذا ركبت معي، وذات مشوار طويل لمحكمة شبين الكوم شَعَرَتْ مستورة بالغثيان من طول تنفس رائحتها، ومن مطبات الطريق. فطلبت مِنّي التوقف على جنبٍ من الطريق، ودلت رأسها من الشباك ملوثة جسم السيارة بينما جذعها الخلفي يضغط بمؤخرته على أنفي، وهذا حرام والله. وقد تم إعفاء مستورة في الدار من الذهاب للغيط إلا في أيام الحصاد، وذات مرةٍ طالبتها حماتها بتتريب

الزريبة كسراً لحاجبها الذي بدأ يعلو ويهبط، وكانت مستورة قد دست في يد زوجها مائة جنية غير راتبها، فوقف لأمه وقال: «ارحموا زوجتي فإنها تتعب»، وغنيٌ عن الذكر أن زوجها وأهله لم يحققوا شهادةً مدرسية أعلى من دبلوم الزراعة، وقد سافر به أخوه للعمل في الكويت. ليس ذلك فحسب، بل إن مستورة لما شحتها زوجة الجنوبي عباءتين قديمتين وفستاناً فاقع اللون، وخماراً أخضر وحذاءً مقصوف الكعب، لم يعرفها زوجها في الشارع ومشى يعاكسها من الخلف حتى حاذاها، وفي تلك الليلة قَبَّلَهَا من وجهها. ومشى أحمد الجنوبي في أحلامها للمرة الأولى، فرأت أنه جَديٌ أبيض يلبس نظارة، وهي مصرةٌ على حلبه رغم صراخه ودهشته.

عذراً لابد أن اتدخل أنا الآن في الحكي قبل أن تحكي لكم مستورة عن لقائي بها في مكتب الأستاذ أحمد الجنوبي، آه، نسيتُ أن أخبركم بكلمة السر، أنا الذي هو أنا والذي لست أنا هو، كانت مستورة ترصُّ الملفات في الدولاب المخصوص وتحسب في دماغها البقشيش التي ستخرج به من وراء كل ملف، وعندئذٍ بشرني أحمد أننا كسبنا قضية (الثلاث أفدنة- مباني) التي رفعناها على أسعد، ففرحتُ جداً، وقدم ليَّ الورق بحذر، فوجدت أن القضية كانت مرفوعة باسم نور النديم هو الذي كسبها لست أنا، لقد رفعها أحمد بالتوكيل القديم الذي حرره له نور النديم الأصلي، وكان يستطيع أن يوقع نيابة عنه وعني، حين قدم إليَّ الورق ورفع عينيه بذكاءٍ وترقبٍ جعل بلية عينيه ترقص على زجاج النظارة، وكنتُ قد رفضتُ وأبديت اعتراضي بالعين أيضاً، لم أشأ أن أوبخه في حضور سكرتيرته الفلاحة، فسحب عني الورق نصف سحبة كمن يقول لي: «أنت حر». لكنه عادَ ورفع نظارته وحواجبه ناحيتي، وأقسم أنه عبَّر بجدارة عن هذا الكلام: «ما دمت تدعي أنك مغامر ورجل يصنع الأقدار في كراسته، وأنك فدائيٌ وكذا فلماذا تحجم عن فعلٍ يجعَلُنا نربحُ من أسعد النديم أرضه، حتى يمكننا في النهاية أن نطيح بنفوذه. «لاحظوا أن الذي يقول هذا الكلام هو أشرف رجل عرفته أو ستعرفونه في حياتكم، أحمد الجنوبي جنيه ذهب، فلما أصرَّ على إمالة

القلم ناحيتي وقعتُ وأنا لا أفهم لماذا فعلت، لكن ذلك أعادني إلى سكة الجنون من بدايتها. فيما بعد سأحكي لكم فمستورة تريد أن تحدثكم».

- لم أكن سأحكي عن ذلك يا أستاذ، لماذا يصر هذا الرجل على أن يبدو فاهماً وعالماً ببواطن الأمور كلها، مع أنه غلبان، أنا حتى لا أذكر من الجلسة التي يتحدث عنها غير أنه جلس هو وأحمد يتحدثون عن المساخيط، وهو كلام عجيب والله. قال نور: «والمساخيط ليسوا أناساً مثلنا، هم يشبهوننا لأن السحَّار حين يخلقهم يزيف في حكاياتهم ليبدوا مثلنا تماماً، المساخيط أنفسهم لا يعرفون أنهم كذلك، ولكن الذكي ثاقب العين يكشفهم بنظرةٍ أريبةٍ مستريبة، لأن الله لم يخلق الإنسان هكذا، إنما من اصطنعوهم وزيفوا لهم القدر هم من يحسنون استخدامهم بيننا، وفي قريتنا ما لا يقل عن عشر مساخيط»... ثم ضحك هو وأحمد كثيراً، وحين نظرتُ مستفهمة لا أعلم إن كان واعياً لهذيانه أم لا سخر مِنِّي وقال: «يا مسخوطة». واستكمل ضحكه خلال ما أجاب أحمد عن تليفون من أحد الموكلين.

وهو لم يأت بجديدٍ في قوله عن المساخيط، فعندنا في لهجتنا كلمة «غش» تعني قبيح، وكنت أكررها بلا وعيٍ حتى سألتُ نفسي ما علاقة الغش بالقبيح؟ ورأيتُ أنَّ الناس لا يظنون عن الله الرحيم شيئاً قبيحاً، فكان كل قبيحٍ تزويراً في خلق الله، وهم الناس من يسمون القبيح (حزيناً) في قريتنا، لكنها كلمة أجمع تصف القبح والغُلب وقسوة القدر عليه، وسواء أيقول عني الناس (غشة) أو (حزينة) فأنا لم أقل عن نفسي أني ذاتُ جمالٍ أبداً.

كنت سأحدثكم عن وظيفتي الحقيقية عند الأستاذ أحمد الجنوبي، فإن وظيفتي في مكتب الأستاذ أحمد الجنوبي كانت أن أراقبَ الأستاذ وأعدَّ عليه حركاته، لم يُطلب مِنِّي ذلك صراحة، ولا حتى من زوجة الأستاذ أحمد كما تظنون، ولكنها كانت تنظرني كل مساءٍ لدى خروجي من مكتبه، وتسألني عن أحوالي، وتضع أمامي فاكهة وشاياً باللبن، ورغيف "فينو" أُغطسه فيه،

فتصطبرُ على أخباري حتى أبدأ في الكلام عن زوجها، وأخبرها إلى أين ذهب، ومن أين حلَّ، عندئذ تتثاءب هي وأولادها الأربعة فألتقط حبَّتَي الفاكهة وأمشي. أما العيونُ التي كانت من خارج بيته فكانت لا تُعدُّ ولا تُحصى. مرزوق الخولي مثلاً هو واحد من الزبائن الذين أحب رؤيتهم دائماً في مكتبنا، رجلٌ يحب أن يفيد ويستفيد، فهو ليس كبقية أصحاب الجنوبي الذين همُّهُم على الحشيش والضحك والتحدث عن النسوان والعباءات الزبدة، كلا... مرزوق عنده طموح، وكان فقيراً في البداية مثلي، ثم اشترى أرض الناس كلهم، وباعها لهم ثانية بسعرٍ أعلى، قد جعل متر الأرض في قريتنا التي لا يعرفها أحد يصل لمائة ألف جنيه، وعقودٌ للبيع يحررها وأخرى للشراء، والمحامي الذي يثق فيه مرزوق يكسب من ورائه الشهد، ومثل بقية أهل قريتنا كان يثق في نزاهة الجنوبي، وأنا أيضاً ليس عندي ما يطعن في نزاهته ذلك الرجل، لكنه عبيط، يأتيه الفلاح صارخاً باكياً ويطلب منه أن يخرجه من ورطته، فما أن يفعل لا يأخذ أحمد شيئاً من أتعابه المتبقية، لأن الفلاح إما أن يلف أو يدور في الكلام ويدور أحمد من وراءه في البلد فلا يطال منه إلا قطع النفس، ويزهد أحمد ماله عند الرجل.

وإما أن يبكي الرجل شاكياً العذر والحاجة والدين، فيرقُّ له قلب أحمد ويترك أتعابه صدقة على رجلٍ مليونير في الغالب. أما مرزوق فكان رجلاً عملياً وكريماً لا يفاصل أحمد في أتعابه، ولا في بقشيش لي يفاصل. مرزوق رجلٌ طموح أيضاً يود أن يبني في قريتنا برج «إيفيل»، وأظنه سيفعل ذات يوم. وقد جاءني مرزوق الخولي ذات يومٍ إلى مكاني في المحكمة حيث أجلس بفرشة كرنب خلف السور، ويشتري مني الموظفون بعد أن انتهي من تصوير المستندات ووضع الدمغات... كان مرزوق يبحث عني أنا ليس عن أحمد، فقد بات مشهوراً أن أحمد لا يطيق الجلوس كثيراً في المحكمة. أنتم تعرفون الآن أنه في مثل ذلك الوقت من كل يومٍ كان يدور مع أسرار بسيارته، ثم لماذا لم يتصل مرزوق بأحمد ليعرف أين هو؟، لقد أراد أن يشتري مني كلاماً، فلما قمتُ إليه بدأ معي الصفقة كما يبدؤها مع الرجال، فقدم ناحيتي سيجارة ولكنه تذكر أني أنثى قبل أن آخذها واحتفظ بها لزوجي، ثم سألني عما أنجزه الأستاذ أحمد في قضايا نور النديم وأي أرض تسلمها من

أسعد النديم، وأيها ما زالت عليها مشاكل. فأجبته على حد علمي أن كل ما تحصَّلَ عليه نور من عمه هو ثلاثة أفدنة مباني، والباقي تحت نظر القضاء وهيئات فصل الحدود من مساحة وزراعة ومجلس مدينة. ثم اقترب مني وازداد التصاقاً برأسي: «أتعرفين من أخبار نور شيئاً؟» ... وكانت حكاية نور وزيارته للمانعة في دارها بدأت تفوح رائحتها، والناس يرون سيارة الجنوبي هناك أيضاً. فحثَّني على الكلام وقال: «أنا قريبك». وأخرج مائة جنية تذبح الجدي، فنقلت له نثارَ أخبارٍ أن نور ينوي عمل مشروعٍ ضخم على الأرض التي يتسلمها من عمه، والناس يقولون إن المانعة ستشاركه بالمال، وناس يقولون تزوجها في السر، وناس يقولون لا زواج ولا يحزنون، وتكرر مرور المعلم مرزوق بي سواء في المحكمة أو في السوق، لكنه بعد ذلك بدأ يستخدمني في كتابة عقود صغيرة خارج مكتب الأستاذ أحمد. وكنتُ لا أُحسن أن أفعل، فكان يُملي عليَّ بخبرةٍ قانونية تحصلت من تكرار كتابة العقود، ثم يبصم هو على الورق ويسلم أو يستلم المال، ثم ينفحني خمسين جنيهاً، كل ذلك لا يعلم عنه الأستاذ أحمد ولا زوجي شيئاً. هذا مصدر رزق حفظته لنفسي لأدخر لشراء جاموسة أو اثنتين لبنهما لا ينفد.

أما في دار مستورة فقد انكسر من باب القاعة زجاجُه، ووضعوا مكان الزجاج ورقة "جرنال" قديمة خرقتها حمامة بيضاء بمنقارها الأحمر، ووسَّعَ الخرقَ من بَعدِهَا فَأرٌ شق الجرنال بجسمه وذيله، ثم مرق لركنٍ في القاعة ثم جذب الزوج بقية الورقة المدلاة فمزقها، وقال في الصبح أقصُّ لها كرتونة سميكة من عند البقال الأسمر البدين الذي يبيع الأشياء أغلى مما سعرها الله والحكومة، لكن هذا من الغد، أما الليلة فإن نور اللمبة البيضاء على السطح كان يغزو خصاص الباب كأنَّهُ ألقٌ هاربٌ من قمرٍ بعيد، فيذوب على وجه مستورة التي كانت من توها تشخر فتستدير للنور على جنبها الآخر وتحلم.

ومستورة امرأة تعرف الأحلام وتحقق في نومها ما تصطبر على بلوغه في النهار. لكن هذا الحلم بالخصوص أنكرته، لأنه حلم "استغفر الله العظيم". كان أحمد الجنوبي يضع يده عليها، وتنهدت وتأوهت حتى قال لها زوجها: «مالك يا مستورة؟ هل بطنك تؤلمك؟» ... والحقيقة رغم غرابة

الحلم فإن له ما يبرره، فمنذ فترة وأحمد الجنوبي يبحث لمستورة عن أي خطأ صغير لكي يغضب ويثور ويلقي بملفات المكتب في وجهها.

يعاملها بطريقةٍ مهينةٍ جداً لتتركه لمكتب محامٍ آخر، يُصَعِّبُ أمامها المهام ويسخر منها علناً، ويرفض أن تركب معه السيارة، فيفيض بها الكيل وتقرر ترك مكتبه وتمتنع عن الاتصال، لكن هذا معناه في دار مستورة أن تعود للغيط والزريبة من جديد وانتظار الملاليم من يد زوجها. وما كان زوجها نفسه يقبل بعد أن ذاق فلوس الزوجة التي تفوق في الشهر حصادَ ربع فدان. فإن مكثت في الدار كان يسألها عن السبب، ثم يأخذها من يدها لمكتب الجنوبي الذي يدير وجهه عنه وعنها، ويقول: «يا أسيادنا مستورة لا تنفعني ولا أنفعها، كان خطأ ولابد من تصحيحه». فتقول زوجته: «استهد بالله يا أحمد مستورة بنت حلال وعيَّاشة»، ويقول زوج مستورة: «طاوعيه يا مستورة، واسمعي كلامه». ويتدخل نفرٌ من الجالسين في المكتب: «صلوا على النبيّ، هذه عين حسود طرأت بينكم». ثم يدفعها زوجها ناحية أحمد ويتحدث بلهجة ممطوطة جداً ومشددة على الكلام: «يا سيدي إن عارضتك أو ضايقتك ثانية فاخلع حذاءك وأدبها». ثم تقترب مستورة من مجلس أحمد متأدبةً ومعتذرة، تسأله إن كان يريدها من الغد في المحكمة، فيقوم أحمد ويقلب ورق الأجندة التي على المكتب ويقول: «غداً في الثامنة صباحاً، انتظريني عند باب النقابة». لكن أحمد ليس على الدوام صارماً ولا قاسياً معها، أحياناً تصفو روحه كالطفل ويفتح لها باب السيارة من الداخل لتركب إلى جواره، يستمع لأغنيات شبابية ويدندن بكلمات المحبة على مسامعها، هي تعلم بالطبع أن هذه الكلمات لأسرار، أو لواحدة من الزبائن اللائي يتركن روائحهن في جو السيارة، لكن مستورة باتت تفرحُ حين تراه مبسوطاً فقد كان ينظر إليها بصفاءٍ إنساني، يستوعبها ويسيغ دمامتها. ذلك في أيام صلحهم الأولى، لكن بعد ذلك تطرأ المشاكل، ويُحمل أحمد مستورة مسؤولية ضياع الورق والأقلام وشكاوى الزبائن، ومللله من الزوجية وحيرته في أمر أسرار، فيغضب وتغضب، يبتعدان ويصطلحان حين يوفق بينهما أولاد الحلال. وواقع الأمر أن أحمد بات عند مستورة أكثر من مجرد مصدر للرزق، فقد أضحى هو الرجل الذي تخشى غضبه وتتوق لرضاه وتحترمه،

ثم باتت تحفظُ سِرَّهُ وتبث عند الزوجة والزبائن الفضوليين أخباراً آمنة عنه، ولم تكن تعلم أن أحمد له مثل هذه الأهمية في البلد حتى اليوم الذي دعتها فيه إسعاد زوجة الحاج أسعد إلى دارها، واشترت من مستورة ست أزواج حمامٍ بنية وزرقاء وبيضاء. وبدت إسعاد سيدةً سمحةً إذ اشترت فلم تفاصلها في الثمن، وكريمةً في بيتها فقد وضعت أمامها تفاحاً كبيراً ليس منه في السوق ولا بخمسين جنيهاً لثلاث حبات، وأصابع معجونة بالدقيق الأبيض وفي شقها عجوة تذوب في الفم، وطبق قشدة وطبق عسل أبيض، وقطعتي كنافة على الكبيرة منها حبة كرز. ثم دهمها أسعد وهي تأكل فارتعبت، ومسحت كفيها في الخمار وأحنت رأسها، فابتسم لها بمودة وأجلسها.

«ماذا يفعل أحمد بالنهار؟ ماذا يفعلون بالليل؟ هل صحيح أنه يتجهز للانتخابات؟ تكلمي يا مستورة، كلي يا مستورة، يا بنت لا تخافي، أنا عمك»، وتقول إسعاد: «مستورة بنت حلال يا حاج، وغرضي أن تفتح لها مكتباً أكبر من مكتب أحمد الجنوبي»، ومستورة كانت تعلم أنها لم ولن تكون محامية أبد الآبدين المخلدين، والناظرين لها بعجبٍ وإشفاق، فحتى العقودُ الصغيرة التي كان مرزوق الخولي يطلب منها كتابتها كانت تصدر منها أخطاء قانونية ملفتة ومضحكة، فيعود مرزوق بالعقد للجنوبي لينظرَ فيه ويعيد كتابته دون أن يسأل «من الحمار الذي كتبه لك يا مرزوق»، كما أن الأمور في كتابة العقود باتت صعبة وملتوية، فالفلاحون لا يكتبون عقداً واحداً في البيع والشراء بل عقدين، أحدهما يسجل في المحكمة بقيمة دون المبلغ المدفوع في الأرض أو العقار، ذلك للفكاك من قبضة الضرائب، والعقد الآخر لا يسجل في المحكمة ليبقى في جيب البائع والشاري وحدهما. وحين حررت مستورة العقدين للمرة الأولى لم تفهم وكانوا يحسبونها تفهم، فمضت بالعقدين وفي الصباح سجلت العقد ذا القيمة الأكبر وجرى خلفها مرزوق بالشبشب في فناء المحكمة، ولما سألوه قال: «بنت كلب غرَّمَتني عشرين ألف جنية ضرائب في عقدين بمليونين». وكان أحمد يضحك إن سمع بذلك ولا يبالي. لكن إن كان أسعد ولابد يعلم عن مستورة ذلك فما حكاية المكتب الذي يعدها به؟

أسعد كان يتجسس أيضاً على سر أحمد ونور، لولا ذلك ما قدمت لها إسعاد الكنافة التي عليها كرة حمراء من حلوى الجنة، لكن مستورة عرفت حينئذ أنها تحب أحمد أكثر من ورقة المائة جنية التي دفعتها لها إسعاد زيادة على ثمن الحمام، وتكتمت سره فلم تحدثهم عن أسرار ولا المانعة، ولا ندف الكلام الذي يسقط من نور وأحمد على مسامعها. وجاء الشيخ قللي يزعق من خارج الدوار فأدخلوه، ولم تحتشم أمامه امرأة واحدة من نساء الدوار رغم أنه صفق بيديه الكبيرتين وتنحنح، وكان في حجم البغل الأبيض إذا توفز على خلفيتيه، فأجلسته إسعاد على كنبةٍ بالقرب من مستورة وأمرت بصحنٍ كبير عليه سريس وجرجير وخبيزه وسطل ماءٍ كبير، وتركتهما إسعاد وقامت تفتش في دولابها عن عباية مزخرفة لمستورة، فلما أكل القللي وتجشأ حضره الغزل، ونظر إلى مستورة التي غمست العجوة بالقشدة ورفعتها لفمها فقال: «يا ليتني كنت عجوة» ...

الشيخ قللي إمام المسجد الكبير، يأتيه رجال ونساء يسألون عن أيمان طلاقٍ مشروطةٍ وغير مشروطة، ويفتي في طلاق الغضبان، وفي البيع والرهن والميراث. عنده دارٌ كبيرة بها ثلاث قاعات، الأولى لها نافذة على الشارع، وتصلح أن تكون دكاناً، وتسع السمن والأرز والسكر وحلوى الأطفال، وقاعة للنوم خلفها زريبة، وقاعة يجتمع فيها طالبوا الفتوى، وهم بعد الفتوى يسألونه عن محامٍ يثق هو به لتحرير العقود، كانت مستورة ستكلمه من نفسها أن يرسل إليها كل من ترغب في الطلاق والخلع، لكنها تحرجت حين غازلها، وتهيبته حين ترك مجلسه واقترب منها، ومشت من الدوار محتارة في أفكارها، ولحق بها من حيث كانت تجلس صوت نهيقٍ أفزعها. والحقيقة التي يجب أن تذكرها مستورة دون خجلٍ أنها قد جربت الغزل، بل جربت ما هو أكثر منه في مكتب الأستاذ أحمد من قبل، وهي سقطة يخجل منها الأستاذ فرحات كلما أعدناها عليه، لما خلا بها في المكتب ودفعها للحائط وحاول وحاول. وذلك من ذوقه الغريب في النساء إذ يحبهن جميعاً بلا تفرقة، ويعشق البرص والعرج والضامرات ويكتب في الجميلات شعراً وزجلاً، كل ذلك ضغط على زر الأنوثة في مستورة فكان ذلك الحلم، ولما أفاقت من حلمها قالت لزوجها: «لا تشترِ كرتونة من الرجل

الأسمر البدين الذي يبيع السلعة بأضعاف ثمنها»، فعند الأستاذ أحمد نتيجة حائط أهداها له مقاولٌ كان يعمل لباناً، واشترى "تُكتُكين" لأولاده الذين افتتحوا معرضاً "للتكاتك" في أول البلد، ونسى أحمد النتيجة عند زجاج السيارة الخلفيّ، ومر العام ولم يعلقها على الحائط، سآتيك بها وندككها في برواز الباب من المساء. ومشت في فستانٍ ملونٍ إلى حيث يمر أحمد عليها بالسيارة في طريقها لمحكمة شبين، وشغل أحمد الكاسيت ولم يفتح الزجاج هذه المرة نفوراً من رائحتها وقد كان يدخن كثيراً.

وقد أحبت مستورة أحمد الجنوبي بلا شك في ذلك، ورأت أنه يحبها أيضاً بشكلٍ ما، بدرجة ما، غير واضحة ولا يفصح عنها، رأت ذلك في عشمه فيها، وتحميلها بأعباء المكتب كله، إلى حد الاتكال عليها أحياناً في التفاصيل الكثيرة التي يملها، بينما كان دوره أن يقرأ الورق الذي جمعته له، يقرؤه على عجالة، ويقف مزهواً بنفسه بين يدي القاضي ويترافع، ورأت ذلك في ائتمان أحمد لها على تعلق السيدة أسرار به، وكم ضبطتهما متلاصقين إلى حد يشي بقبلة كانت أو ستكون، وضبطته مرةً وهو يحمل أسرار من وسطها، وكانت زوجته غائبة عن الدار، ولم يحاول أحمد أن يبرر لها تلك الأفعال فرأت أنه يأمنها... عينه زائغة على النساء لكنه يأمنها ويتكل عليها ويضاحكها من حين لآخر، أنه يحبها ولا يعلم.

وقالت أم مريم لزوجها إن مستورة حسودٌ للغاية وباتت تتطاول في الكلام عليها.

وقال أحمد: «إنها باتت تسرقني بلا حياء».

وترصد أحمد لها أول خطأ بعد حديثه مع زوجته... وطرد مستورة ولم يقبل شفاعة أحدٍ في ردها، كان طرداً بائناً ثلاثاً.... وتعذبت مستورة بخيانة أحمد لها زمناً، وقد حاول العفريت إشفاقاً عليها أن يمحو مرارة الهجر من دفتر حكاياتها ولم يفلح، وفاجأت مستورة العفريت نفسه بقرارات غريبة... حين تقدمت بدعوى خلع من زوجها... وبعد انقضاء عِدَّتِها سمعنا عن زواجها من الشيخ قللي وافتتحت مكتباً في داره بالقاعة الكبيرة.

نور النديم (سفر محذوف من توراة القرية)

ومات سعيد أخو أسعد النديم وابن نايل بعد خروجه من الحبس مباشرة، فلم يكد يهنأ بخبر حمل زوجته بنت الباشاوات منه، وأطبق على صدره مرض عضال أماته في بحر أسبوع. ثم وضعت الحبلى طفلها الصغير، ورأى جده والناظرون إليه أنه أزرق العينين ذو بشرة حمراء تماماً مثل أمه وأخواله، فقال نايل النديم لنفسه: «لابد أن نصيب ولدي سعيد في هذا المولود كامنٌ في الروح». وسماه نور. واعتاد نايل أن يدلل الصغير ويحمله في القرية على كتفه. وكان نايل يجلس مع بنت الباشاوات أرملة ابنه فيعجب كثيراً من وفائها لسعيد، وحديثها المطول عن أخلاقه وشيمه التي لا تعوض، فيسأل نايل نفسه: «كيف عرفته هذه المرأة في تلك الأسابيع القليلة أكثر من أي واحد فينا». وفاتحها ذات ليلة عن نيته في تزويجها من أسعد ولده، وظن أنها ستقبل بأسعد لكنها نفرت تماماً من العرض ثم أمسكت بصغيرها تلاعبه أمام جده وتقول: «سبحان الله.... الشبه بينه وبين سعيد لا يصدق... نفس استدارة الأنف وكثافة الحاجب»، ويقول نايل في سره (والله لا هو شبهه ولا يحزنون)، وقال لها أخيراً: «سأبني لك يا ابنة الأصول ولولدك قاعة في طرف الدوار كي لا تتحرجي من دخول أسعد ودخولي عليك كل ساعة» فوافقت ممتنة.

أما نفيسة السحارة فقد استوحشت منفاها وكوخها المقام على أطراف حوض الطولاني البعيد عن القرية، تلك الرقعة من الأرض التي كانت العفاريت القديمة تحمل صكوك ملكية لكل شجرة أو قناة ماء فيها. فكان الرجل إذا مر بالحوض نهاراً تتجسد له العفاريت إوزاً أخضر ينعم في الترعة. وإذا مر الفلاح بزرعته نهاراً يراها برسيماً وفولاً أخضر ويجدها في المساء قطناً منوراً أو كرنباً متربعاً على الطين الأسمر كآذان الفيلة. وكان لزاماً على

من يقصد نفيسة السحارة في منفاها أن يرشو ذلك الغراب المراقب للطريق بحبة كرملة مرسوم على ورقتها غزال أخضر. وتشفعت نفيسة السحارة وتوسلت بكل متسلل ناحيتها، إن كان ذا حظوة أو كلمة مسموعة عند نايل النديم، أن يردها إلى القرية... لكن نايل رد كل شفاعةٍ وختم على منفاها، واشترى من حر ماله للغراب كيساً كاملاً من الكرملة يأكل منه على مدار العام. لذا فإن نفيسة لم تصدق نفسها وكذبت عينيها حين رأت ذات ليلة أسعد النديم سيد القرية وابن سيدها يطرق عليها باب الكوخ، ولم يكن معه مهره الذي يركبه لأنه حرص كمثله على السرية في زيارتها... وانتظرت طويلاً أن يتكلم.

– الأمر وما فيه يا نفسية أن الحاج نايل كان مصمماً على طريقته القديمة في رياسة القرية، كان ينصح ويؤدب الناس كما يفعل أبٌ رحيم، والناس يحبونه ويفتدونه بعيالهم، لكن نايل لم يعِ، ولم يدرك الفلاحون بما كان يحدث في بر مصر كلها. رغم أن الحَكومة الجديدة اقتربت منهم وأنشأت مدرسة ابتدائية وجمعية زراعية ومركزاً للشباب فيه راديو وطاولة "بنج بونج"، حتى أنهم قد أنشأوا في قريتنا بيتاً ثقافياً. كل منشآت الحكومة الجديدة كانت تقف باللون الأصفر الفاقع من حول خضرة القرية وبيوتها الطينية. وصحيح أن قليلاً من أهل القرية من كان يلج إلى هذه المنشآت لكنها كانت حاضرة وبقوة. أما نايل النديم قد كان متمسكاً بأذيال الزمان الفائت، ويدعو على منبر الجامع الكبير باسم الملك...أي ملك؟، تشاجر مرات كثيرة مع مأمور المركز فأقالوه من العمودية ولكن بطريقة لا تجرح كبرياء أسعد بين ناسه. إذا أنهم أعادوا تعريف قريتنا بوصفها حي كبير تابع للمركز، ولا عمدة على حي.

واستمعت نفيسة السحارة إلى كل كلمة قد قالها أسعد، وتاقت نفسها لرؤية تلك المباني الصفراء الجديدة، ولرؤية صورة ذلك الزعيم الذي صار عمدة وحده على كل القرى. لكنها لم تفهم سر مجيء أسعد إليها، وبعيدٌ عن الظن أنه قد جاءها للفضفضة لا أكثر. فقال لها أسعد: «خلاصة

الكلام... استخدمي كل سحرك، وادفعي نقوداً كثيرة لعفاريت الطولاني، واحصلي منهم على قنينة ماء أصفر أو أحمر إن شرب منها أبي يتكاسل عن الخروج للناس حتى ينسونه، واني يا نفيسة لأرى ذلك براً بوالدي، فإن العمدة الجديد أفصح منه لساناً ورجاله أوجع بطشاً... العمدة الجديد يصرخ في وجه بريطانيا العظمى وأمريكا بلا خوفٍ ولا حسابٍ لما يترتب على كلامه... فأعطته القنينة ووصفت له أن يسكبها في إبريق الوضوء إذا قام أبوه للصلاة.

وقد زرع الرب شجرةً وارفة الظلال في تربة ذلك الفناء الكبير المحدق بدوار نايل النديم وولده أسعد. تلك الشجرة اجتُثَّت من حكايات القرية، فما عاد الناس يذكرون إن كانت جميزة أم سنطة وارفة. المهم أنها واحدة من أشجار الدلتا، وكان بوسع طفل عمره عشر سنواتٍ أن يتسلق جذعها ليجلس بين فروعها وحيداً وحزيناً. ذلك الطفل هو نور النديم ابن سعيد النديم، وكان من مجلسه فوق الجذع مواجهاً للنافذة التي في غرفة جده، وكان بوسعه أن يري جده مستلقياً على سريره النحاسي أغلب الوقت لا يتحرك، وهذا ما جعل نور النديم حزيناً. فبعد أن فقد أباه ماتت أمه، فحدب جده عليه وخصه برعاية تفوق كل أحفاده من ولد أسعد. فإن نور كان يبدو لجده نايل ابن باشاوات سيء البخت تسرب إلى نسله بمحض الصدفة فأدبه وأكرمه. لكن الجد صار عجوزاً بشكل مفاجئ، يطيل النوم ولم يعد يماشيه في القرية كسابق عهده، وكلما مشى نور إلى حجرة جده ردته امرأة عمه عن الحجرة حتى لا يوقظ الجد، فيجلس الغلام على جذع الشجرة مراقباً يقظة من جده ليهرع إليه. كان بوسع نور من مكانه ذلك أيضاً أن يري عمه أسعد النديم وهو يضع على شفة الجد قنينة غريبة الشكل، وكلما تجرع الجد منها ازداد كسلاً وعجزاً عن الحركة والمرح. ذلك بأن أسعد النديم قد عاود زيارة نفيسة السحارة مرات كثيرة، فبعد أن طلب منها أن يتكاسل الرجل الكبير عن الخروج عاد وطلب منها قنينة تجعله يفضل الصمت عن الكلام، لأنه إذا تكلم أحرجه بين زواره وبين رجال القرية، ثم عاد أخيراً وطلب منها قنينة تجعل أباه يفضل المنام عن الصحو، فأعطته في المرة الأخيرة قنينة سم زعاف فاضت على إثرها روح نايل النديم، وبصق

دماً من صدره على جلباب ولده أسعد. وقرر أسعد قتل الغجرية جزاءً على غدرها بأبيه، خاصة وأن أسعد قد أواها من المنفى، وسمح لها بالزواج من فلاح فقير اسمه عبد المتعال أنجبت منه ولداً سمته سيد، تيمناً بتلك النقلة الطبقية من خيام الغجر وعششهم إلى بيوت الفلاحين. لكن نفيسة السحارة قد أزاحت يدي أسعد عن رقبتها بكل هدوء وقالت: «أتلومني أنا يا سيد الناس؟ ... أنت أردت أباك ميتاً، والا فما معنى «اجعليه كسولاً لا ينهض، صموتاً لا يروم الكلام، ونائماً لا يستملح الصحو... كنت خجولاً فقط من أن تنطق الكلمة فتقول اقتليه يا نفيسة»... ولم يجد أسعد النديم في بيانه ما يرد التهمة عن نفسه، فزاح نفيسة بذراعه وخرج يعض على يديه من الندم، لقد جرب في حياته القصيرة آنذاك ذنوباً كثيرة، ليس القتل أحدها، ومن أنواع القتل يكون نصيبه هو الأسوأ فإنه قد قتل أباه... إنه جرمٌ مثل الكفر بالله، بل إنك لتحارب الله مباشرة إذا امتدت يدك بالسوء إلى أبيك، فما بالك أنك أنت الذي قتلته... هذا كثير ..أعرف أنني سأملك هذه الأرض وسأجعل أهلها ينحنون لي طوال أيامهم في هذه الدنيا... ولكن هل تساوي الدنيا كل ذلك الإثم الذي نتحمله لنحصل عليها... لابد أنها تساوي ولكن القتل ثمن فادح لا ينبغي أن يدفعه أحد، المقتول يستريح أما القاتل فيعيش كل حياته ركضاً وتفلتاً من أسئلة الضمير وأسئلة المصير، فما بالكم بقاتل أبيه...؟! إن كان الله يسامح وهو سيد كريم كما يدَّعُون فسوف يسامحني... ربما... أنا تكفيني ربما يسامحني، من سوء الحظ أننا لا نرى الله موجوداً بقوة سوى بعد أن نخطئ.....

فلأعاهد هذا السيد على ألا أقتل أبداً، لأنني أستطيع مجابهة كل الناس وتحديهم ولا أقدر على عداوة صريحة مع الله... أنا لن أقتل بعدها أبداً.

وما أريد أن أخبركم به من هذه الحكاية الطويلة أن الولد الذي رأى – من فوق الجذع– عمه يقتل جده كان نور النديم الحقيقي وليس أنا... فلا بد أن هذه الحكاية قد حدثت في أواخر الستينات أو في أوائل السبعينات من القرن المنصرم، معنى ذلك أن عمر نور النديم الآن يجاوز الخامسة والخمسين بينما لم أتم أنا الأربعين بعد.

ما حدث أن كلينا قد خرج من القرية طفلاً إذعاناً لسلطان أسعد النديم الذي أقصى نور بعيداً عن عينه، حتى لا يتذكر جرمه كلما رأى الولد وألقاه إلى أخواله يرعونه... واستخدم نور النديم سنوات عمره كلها للاستعداد لمواجهه عمه يوماً ما... فعاد إلى القرية قبل خمس سنواتٍ من دخولي أنا إليها، وتحدى عمه في استرداد حقوقه، بل إنه هدد أن ينافسه إلى البرلمان فقتله العم في أسبوعه الأول في القرية وطرد زوجته وأخفي سيرته ونقض عهده مع الله... لكن المعارك الانتخابية كانت فرصة عظيمة للناس للتشنيع بسيرة أسعد، وذكر الناس حكاية نور الذي جاء واختفى من غير أن يروه، وقالوا قتله عمه لا محالة. لكن نبابيت عائلة العبد تكفلت بإسكات الألسنة عن الشائعات وبإجبار الناس على أسعد النديم لدورة برلمانية جديدة... ودخلت أنا القرية من بعدها بأعوام فقال الناس أنني نور النديم الذي كان غائباً وعاد يطلب حقه، والتفوا من حولي لأفعل... كان على نور النديم أن يعيش قصة طويلة مع عمه فمات عنها وعشتها أنا بدلاً منه... لأن أسعد حين رآني قال: «مرحباً يا ابن أخي»، كأنني كنت براءة له بين الناس من تهمة القتل، كذلك فإنه لم يكن يفقه اللعبة التي نلعبها عليه، كان يظنني مجنوناً فحسب، أو أنني قدرٌ أُنزل إليه خاصة من السماء لحسابه في الدنيا على كل الشرور التي فعلها... أقول لكم الحقيقة صار أسعد مجنوناً بي وبحكاياتي، وكنتُ أعرف أنه يرسل من رجاله من يستمع إلينا، أو أنه يمد أذنه دائماً ليتسمع من طرف بعيد.

وقد خرج مثلنا من القرية – إذعاناً لسلطان أسعد– رجال كثيرون منهم سيد عبد المتعال أو ابن نفيسة السحارة كما يدعوه الناس في سرهم وشوشةً للتقليل من شأنه، بعد أن صار سيداً بمعنى الكلمة، له نفس أبهة أسعد، وقبول من الناس يفوق أسعد. قرر سيد بعد وفاة أمه نفيسة السحارة أن يترك حركات السحر البسيطة التي علمتها له ، كأن يجعل قوالب الطوب تتناطح وتتنافر كالديوك ثم ينزف المجروح دماً كثيراً، ويبدو كمن يسلم الروح، كذلك كان يجعل الديكة تنبح في القرية على سبيل المزاح، لكنه لم يكن يقصد سحراً، فلما أراد أن يتزوج اختار بنتاً كريمة من عقائل الفلاحات وهي أحبته أيضاً... وكان فدانه الذي يزرعه عن أبيه يرمي ثمار

خمسة فدادين، لكن الفلاحين حسدوه، وقالوا سحراً، والأمر أيضاً لم يكن يخلو من قليل من السحر، وقال الفلاحون لابنتهم لا تتزوجي أبداً ابن الغجرية، وهددوها بقتله فبصقت في وجهه أمامهم ليرحل من دارها مكسور الخاطر، ثم إنهم في المساء دبروا جريمة سرقة، وكلنا يعرف من يسرق البهائم في البلدة، فوصموه بها وحبسوه في الدار حتى الفجر، فلما فتحوا عليه الدار التي حبسوه فيها وجدوا مكانه ديكاً أحمر ينبح واختفى أثر سيد لسنوات، فأين ذهب سيد؟.

ولقد نفذ سيد عبد المتعال وصية أمه نفيسة بحذافيرها حين قالت له: «يا ولدي إن قال لك الناس في البلدة يا ابن الغجرية فاعلم أنهم لا يحبونك، وأنهم يفكرون في إلحاق الأذى بك، واعلم أنك لن تصبح يوماً واحداً منهم ما لم تكن سيدهم، فاهرب وعد إليهم سيداً بما ستتعلمه من الدنيا». وحفظ تمتمات وتعاويذ نفيسة وسافر إلى الملكين ببابل هاروت وماروت، فوقف بين أيديهما متأدباً وقال: «أنا سيد ابن نفيسة التي تخطف الكحل من العين، وهي أرسلتني إليكما أتعلم السحر»... فنظر الملكان كلٌ منهما إلى الآخر، ثم سأله هاروت أو ماروت، لا أذكر، عن سبب تركه للقرية التي جاء منها، فأجابهما سيد عبد المتعال منتحباً: «إنه الحب... أحببت فتاة بصقت في عيني، وطردني أهلها من بيتي وأرضي، اسمعا لي جيداً أيها الملكان الجليلان، لا بد أن أتخلص من قدرتي على الحب، فلا أحب ولا أهوى بعد الآن أبداً»، فبكى ماروت أو هاروت وقال ناصحاً: «وهل تعلم يا ولدي ما أنزلنا إلى الأرض بعد أن كنا سكاناً للسموات العلى؟... إنه حب الزهرة، امرأة كانت جميلة في أول الزمان، بيضاء وترقص للناس في ملابس حمراء كأنها جمرة نارٍ مشتعلة، وقد علمنا أن جمال الزهرة فتنة لنا وتأديبٌ من الله لتكبرنا على جنس الإنسان... أحببنا الزهرة فلما أمرتنا بالسكر سكرنا، وبالقتل قتلنا، وندمنا بعد الصحو، لكن الله رفع جسدها في ثوبها الأحمر إلى فلك السماء فصارت كوكب الزهرة وإنَّا ها هنا قاعدون إلى يوم القيامة حتى تهبط الزهرة من فلكها وتعلم صبرنا على المحبة، سنعلمك السحر... ولكن اعلم أن السحر كله سينتهي قريباً حين تنتهي الحكايات فوق ألسنة الناس، وحينئذ تنزل الزهرة من فلكها، ويذوب من فوق الأرض كل ساحرٍ عليم»... وأعطاه

هاروت خنجراً فأسال به دماً من رسغه، وسقطت معه قطرات من نور هي بضع من الروح، إن خرجت من الجسد لم يعد قادراً على المحبة من جديد... ولمَّا تعلم السحر وصار رجلاً جلداً اختفى سيد عبد المتعال سنين لا يعرف عنه الجن الأحمر خبراً. لأنه كان في عهدة أحد الحكومات توكل إليها وظائفاً لا يفهمها الناس... ثم عاد متوجاً على قبة البرلمان برئاسةٍ ذات قبولٍ عند الناس والحكومة أكثر من رياسة أسعد.

◆◆◆

وقام رجل كان يشرب الحلبة الصفراء عند باب المقهى والظاهر أنه كان قد انتشى من أحاديث القرية التي كان أبي يقصها عليهم فخاطب أبي قائلاً: يا حاج منصور أجرك على الله. وأراد ذلك الغريب أن يجامل أبي ويسري عنه غمه المنثور في الحواديت فقال: «لا تحزن فإن أسعد النديم وأبوه كلاهما خالدان في النار ولن يقبل الله سبحانه من أحدهما توبة ولا عهداً». فسكت أبي متفكراً فيما قاله الغريب ثم رد عليه بعد حين: «لا أدري، بل ليس لأحدنا أن يقسم بهلاك ابن اليهودية ولا ابن الحرام»... واستشهد أبي على ما قال بأن قال: «حاول نايل النديم في سنواته الأخيرة أن يسلك في الناس مسلكاً طيباً خاصة بعد وفاة ولده سعيد، فأقام مجالس الحكم التي لا يظلم فيها أحدٌ ولا يجور فلاح على عود برسيم من حقل أخيه، لكنه لم يناقش في واحد من هذه المجالس حق عائلتنا المنهوب ولاما سلبه بيديه من الأرض والمال، كذلك لم يمنع أسعد ولده من البطش بأعمامي وإخراجهم من القرية بل كأنه قد استراح لذلك. كان عدله أعرج ومذبذباً كالموج ما يكاد يلمس قدميك حتى ينحسر عنها، فرأيت عدله زيفاً لتجميل الزعامة لا أكثر. ثم إنه قابلني مرة في الطريق وفي يده صبي حلو أزرق العينين يقال له نور ابن سعيد، وكان نايل يتجاهلني عادة إذا ما تلاقينا صدفة وأتجاهله، إلا أنه في تلك المرة قد دعاني باسمي واستمهلني ليتحدث معي فلما نفرت منه تصدى لي وشد على ذراعي فوجدت فيه فتوة رغم شيخوخته وقال لي:

– اسمعني يا منصور، سأعيد إليك حقك كله وحقوق أعمامك لكني أنتظر الفرصة المناسبة التي أحدث فيها ولدي أسعد، وستجلس مني مجلس ولدي سعيد رحمة الله عليه لكن

العمودية من بعدي ستكون من نصيب أسعد فإنه أقوى والناس يذعنون له... أنا وأبوك كنا صاحبين، وكنت أنتظره خارج السرايا حين كلم النحاس باشا، وكانت ذراعي تلي ذراعه ونحن نقص البوص وكانت تؤازره ونحن نعارك الغجر حتى طردناهم فلم ينفعهم سحرهم، وكنت حاضراً حين كلم أبوك الأحناش وأجابته بلسان فصيح.

فأجابه أبي:

- لكن الناس في القرية باتوا ينسبون هذه الحكايات إليك وإلى ولديك، وانمحت أسماؤنا يا حاج.
- الأرض والمال أنفع لكم وأهم يا ولدي، وما نفع الحكايات إنها كلام لا أكثر.
- كلا، بل إنها كل شيء، حين سرقتَ الحكايات جعلتني غريباً بلا أصل، جعلتني أبكم أخاف إن تكلمتُ أن يكذبني الناس أو أن أُقتل، ولم تَسلب الأرض والمال سوى بحكايات جديدة أشهدت أهلك عليها فجعلتني معدماً.

قال نايل:

- كنت وأبوك نعم الصاحبين فوسوس لي الشيطان أنه قد استأثر لنفسه ولأعمامك بنصيب أكبر من الأرض، ففعلتُ ما فعلتُ وأنا نادم عليه. دعك من الناس فسينسبون الحكايات لصاحب القوة من بعدي، وسأوكل إليك مهمة استجلاب أعمامك الذين خرجوا من القرية لتعيد الأرض إليهم، ومن رفض منهم العودة فسأشتري منه حقه وأعوضه بزيادة عشرة جنيهات في الفدان... (وكانت العشرة جنيهات تشتري مركباً نيلياً طويلاً نرى رأسه عندنا ويرى الناس رأسه في أسوان).

ثم عاد أبي يحدث الغريب فقال: «لكن نايل لم يكرر عليَ حديثه هذا من بعد، وجاءتنا شائعات تقول بأن نايل بات يخرف كالممسوس وينام في المجلس كالطفل فيحملونه إلى سريره، فظننت أن كلامه معي كان من باب التخاريف واستأصل أسعد البقية الباقية منا، لكني لم أنس نظرة الصدق والحنو التي كانت في عيني نايل وقت أن حدثني والتي إن قبضه الله عليها أظنه يرحمه بها».

فقال الغريب معترضاً على كلام أبي:

- أتقول إن الظالم يدخل الجنة.
- أقول إن الله حرٌ في ملكه.
- أتتمنى لعدوك السلامة؟!

فقال أبي: «هذا من فعل أبناء الأصول، لقد جُبلنا على احتمال ما لا تحتملونه أنتم».

المانعة

زوجها كانت له فلسفةٌ خاصة في التعامل مع الزوجة الحسناء، كان يرى ضرورة إذلالها، ويجبرها على إخفاء جمالها في النهار، بينما يرغمها على التزلف بمحاسنها ليلاً على سرير الزوجية، ثم لا يلقاها إلا نكداً متجهماً، يعاقبها على جمالها في كل هفوة من الهفوات. وكانت المانعة قبل الزواج تطيلُ النظر إلى المرآة وتقول لنفسها: «أنا حلوة، ولو كان جمالي على امرأة غيري لقلت أنها حلوة، فأنا طويلة لا شكاية من قدي، إلا في خصرٍ تثنى يلهب الأكباد بعدي، ويقول الناس حين أخطر بينهم: «يا جمالك! يا مانعة مات خيالك».

كان ذلك قبل الزواج، فلما تزوجتُ حَطَّمَ زوجي المرايا كلها، حتى لا ألتفت إلى نفسي... عذبني... كان ذا مالٍ وذا أهلٍ وذا علم، لكن الله ابتلاه بداء الشك والوسواس، كان زوجي شكاكاً. عرفت ذلك منذ جلستنا الأولى للقمة الوفاق، وعلى سرير العرس المنعم بالرياش.

كان ملمس اللحاف بارداً ما يزال، وأنا على زينة عرسي، ما بالكم بالحسناء إذا تزينت، وبدأ يتحسسني بنهم فظننت أننا سندفئ السرير قبل الأكل فقلت: «يا بنت وكم أكلنا!»، وظل يتحسسني كمن يقيس أرضه، ومرَّ على كامل جسدي، ثم دفع بأصابعه إلى قلبي يفتش في ضميري، باحثاً عن عيوبي، قال وهو يلهث بأنفاسٍ حارة عند رقبتي: «صارحيني يا مانعة... كم رجلاً عرفتِ من قبلي؟ هل مسَّكِ أو لمسك أو نالك أحدٌ غيري؟ بضاعة غالية أنت يا مانعة، ويقولون إن «خيَّالك مات»، بمعنى أن فارسك الذي بوسعه أن يشكمك لم يخلقه الله أصلا، تدرين يا مانعة كيف عرفت عنك؟ سمعتُ ذات يومٍ رجلا غلبان كان يتفيأ في ظلال تكعيبة عنبٍ لدينا، وكان ظمآن فمد كفه إلى الجدول الجاري وارتوى وقال: «الحمد لله، ليس أجمل من ذلك في الدنيا إلا جمال المانعة!» وقال إن جمالك يفسد العابد

الناسك، فانتبهت وسألته أن يصفك لي، ورشوته بعنقود عنبٍ أحمر كان أوله في يدي وآخره في حجره وهو جالس، فحكى عنك، وسعيتُ أنا إلى قريتك أسأل الناس عنك وعن الطريق التي تألفينها، بين بيتك وبين المدرسة الفنية التي كنت تدرسين فيها، وقال الناس: «احذر حُسنها، واكتب وصيتك قبل أن تلقاها أو أن تسلِّطَ عليكَ لحظها، المانعة يا سيدنا مات خيَّالُها وعدمت مثيلتها». فقلتُ: «أنا لها». فلما رأيتك كان أستاذٌ في المدرسة يجاريك الحديث، وتبتسمين له في خجلٍ لدى بوابة الخروج، وفي الطريق جرى عيلٌ صغير واقترب منك، فرمى في كَفِّكِ ورقةً صغيرةً رأيتُكِ تقرئينها، وابتسمتِ، ممن كانت هذه الورقة؟ وهل قال صاحبها أنه يحبك؟ وكيف أجبت؟! وفيم كان الأستاذ يتحدث معك، وفيم ضحكت؟ وكيف يقبل أبوكِ بدخول أولاد عمك إلى بيتكم، وفي البيت أنتِ؟ وابن عمك ذلك الذي صافحني في الزفاف فشدَّ على يدي، ثم شد على يديك وابتسم لنا كمن يتألم، أخبريني يا مانعة، هل كانَ، أو هل كنتِ؟! ومن يدريني كيف فعلت من قبلي!، وكيف تفعلين معي؟! خذي في حسبانك أن النوافذ مغلقة، وأن الشرفات ممنوعة عليك، ردي السلام على الناس بحساب، ولا تصافحي رجلاً، ولو كان شحاذاً يتلقى الصدقة من كفك. واعلمي أن أمي قاعدة وسط الدار حارسة عليك، ومن حيث لا تدرين ستجدينني خلفك، في السوق وفي المخبز، وحتى في الحلم الذي تهذين فيه تجدينني... أنا خيَّالك يا مانعة».

وقد كان زوجي مجنوناً بالشك في كل شيء، يشك بأنني وأمه كنا نسرق الفلوس من جلبابه، ويفتش عن المال الذي فقده، حتى إذا وجده لم يعتذر لأحد، فقط يعد المال وينسحب.

أيعرف أحد منكم يا سادة كيف تعيش امرأة مع زوجٍ لا تحبه؟! إنه سؤال مثلما تقول لأحدهم: «هل وردت جهنم من قبل؟».

رغم ذلك صبرتُ على زوجي صبر بنات الأصول، واستجبت لنهمه السريريّ، لكنني كل مرة أحسُ بعدها أنني سُرقت، أُخذت عنوة إلى رجلٍ نهمٍ يتناول حقه عضاً ونهباً بأطرافه، أوقات كثيرة شئت أن أُزيحَه عني، أن

ألفظه من جسدي ومن ذاكرتي، لكن خشيتُ إن قلت له اتركني أن يحسب بالي مشغولاً برجلٍ غيره، وثوبي الفضفاض الأسود كان يخشخش على هامتي ورأسي المغطاة بالنقاب، رغم ذلك بات الناس يعرفونني في الشارع بالمرأة الحزينة، التي جلبابها يخشخش كورق الخريف، وأصبحوا يكررون عبارة «يا مانعة مات خيَّالك» بمجاملةٍ وإشفاق، لأنني ببساطة لم أعد تلك المانعة.

وتقول «روح» صديقة المانعة: «حسبي الله فيمن بدل جمال المانعة حزناً وشحوباً، كنتُ إذا صادفتُها في الطريق أنكرتها، حتى تعرفني هي بنفسها، فأقول: «مالك يا مانعة...مالك يا بنت؟!» هذه شهادة صاحبتي عليَّ في تلك الأيام، باختصار أنا ذبلت وكانت تسقط مني في الطريق أوراقٌ جافةٌ ملتصقة بجلبابي أينما حللت، أنا ذبلت. زوج لا تحبينه معناه: «ساء صباحك ومساؤك»، زوجي بات يكرهني، ينهشني في كل ليلٍ كالذيب، ويجرُّني معه في أحاديث لا أحبها، ماتت أمه فما حزنْتُ عليها وما حزِنَ هو! كنا مشغولين بأحدنا الآخر لحدٍ منعنا من الحزن على أمه أو أمي وبقية أهالينا الذين ماتوا تباعاً طيلة خمس عشرة سنة، وتركوا كل واحدٍ منَّا يتكئ على الآخر بحقده. تعلمت بعدها أن أتكلم معه في البيت وجهاً لوجه بعد أن مات الذين كان من حقهم التدخل بيننا، فواجهتُه مباشرة بجنونه وقلة ثقته بنفسه، لا أعرف كيف خرجت مني الكلمات ولكن كنتُ قد فاض بي، وحين ضربني عقاباً على ما قلتُ وقفتُ له على طولي الأول، ووضعت عيني في عينه فلم تتكرر حكاية الضرب بعدها... كان يشتمني فقط، وأنا أتركه لهذيانه ولا أعيره نظراً. كان بوسعي في تلك الليلة أن أقول له: «أكرهك بكل ذرة في جسدي، أكره الهواء الذي نتشاركه، والساعات المنزلية التي كنا نقضيها معا»، كنت سأقول له: «أكرهك»... لكنني أشفقت عليه، فبرغم كل شيء لابد أن تحدث عشرةٌ بينك وبين سجانك تسمح لك بأن تتعاطف معه، لو كنتُ قلتُها كان سيُجن أكثر مما كان مجنوناً وابن ستين كلب، سلب مني الحياة والنضارة، أبدلني مشاعر الخوف والقلق بكل المشاعر الأخرى. وهل يحسب الرجل أنه إن ضيق الفخ على أمرأته يُعجزها أن تهوى غيره أو تبادل رجلاً آخر المحبة.

لابد أن يكون الزوج مكشوفاً عنه الحجاب، وهذا لا يكون، فبوسع المرأة، حتى إن دهمها زوجها مع رجل آخر، أن تقنع زوجها بأن الرجل كان يصلح ملة السرير... أعذروا وقاحتي، فبعد السنوات التي قضيتها في هذه الدنيا رأيتها تعلمنا الوقاحة لا أكثر، وزارنا عبد القادر ابن عمي، وكان زوجي يكلفه بمشاوير ومهام مقابل المال، ورأيت من طرف خفي أن عبد القادر يتبصص على جسدي من فوق كوبة الشاي... وأضحى يترصد مألفي جيئة وذهاباً من السوق وغيره، ويسألني بلطفٍ أن يحمل عني. كان عبد القادر ابن عمي هو فتوة القرية ورجلها، غليظ الذراع، يحب أن يناديه الرجال بأبي الرجال، وكان يعمل سواقاً عند أسعد النديم، ومثل كل الفتوات كان قلبه جسوراً، يطرق على الباب في غياب زوجي، ويتذرع لحماتي بحجج واهية، فكانت تكذبه في سرها، لكنها لا تخبر ابنها صيانة له من مواجهة ابن عمي الفتوة الموصول بأسعد النديم. حتى فاض بها ذات مرة فدخل عليَّ مخدعي يضربني، فانتفضت له متحديةً غَضَبَهُ، وقلت له كلاماً يسمم البدن، قلتُ:

– والله البيت بيتك، وأنتَ من دعوت الرجلَ لدخوله أول الأمر، وأنت من ابتسمتَ لسهَرِهِ معنا، وتوسلت به إلى أسعد النديم في مصالح لك، كان بوسعك أن تلقاه في الخارج، لا أن تُعوّدَ رجله على المرور بنا ثم تلومني، عجايب والله لك ولأمك!

وجاء عبد القادر في المساء التالي، مظنةً منه أن زوجي كان غائباً في حوائجه، فلما رآه تعلل ابن عمي بحججٍ "هبلة"، وكنت أنتظرُ أن ينفجرَ زوجي فيه، لكنه اكتفى بأن صحبه إلى بابِ الخروج في أدب، لكنّي لم أسكت، أوقفتهما لدى الباب، وقلت لعبد القادر ابن عمي: «زوجي رجلٌ غيورٌ يا ابن عمي، ولا يرغب في زيارتك لنا في غيابه ولا في حضوره، وبصراحة أنا أرى رأي زوجي... لو قابلتني بعد ذلك في فرحٍ أو عزاءٍ فلا تسلم عليَّ. وانسحب عبد القادر يتحشرج صوته كالذئب الجريح وافتقد نباهته في الرد، حياني ابن عمي كما يحيي العسكري الضابط سخرية وتوعداً وهبلاً وعدم درايةٍ بما يحدث. كانت علاقتي بعبد القادر تجاوزت عدة أسابيع، لم يمل يوماً من

مطاردتي وانتقلنا من الغزل المسرب في ثنايا الكلام إلى الغزل الصريح حد اقترابه مني ومحاولة تقبيلي، وللحقيقة فقد نال قُبلةً كان نصفها على شفتي، فلما تمنعتُ عليه نالت خدي، دفعته عني وبات قلبي يدق طيلة الليل، وزوجي يتفرسني ويقترب من قلبي بأذنيه ليسمع ما في ضميري، أوشكتُ أكثر من مرة أن أقول له أكرهك وأقضي عليه بكلمة، ثم أحجمت. أما عبد القادر، فحين غازلني لمحت صاحبتي روح ابتسامة غنجٍ في كلامي وتدللاً في الحديث يشبه أيام المانعة التي كانت تعرفها، فسألتني عن حالي مع زوجي، فتركت البسمة وتنهدت لها، فتحسرت أسفاً وسحبتني من يدي إلى مكانٍ بعيدٍ نتحدث فيه، فلما أخبرتُهَا بالرجل الذي شاغلني لطمت وجهها. وقالت:

– عبد القادر يا مانعة! البلطجي ابن عمك، زير نساء وواطي! ومن فلوس البلطجة والتهديد يعيش ابن عمك يا هبلة، خدع كريمات قبلك وأذلهن.

فقلت لها: «لكنه ابن عمي، أيفضحني؟!»، قالت: «ابن عمك إن قدر باع أولاد النبي –عليه السلام– في سوق العبيد، ليس له خلاقٌ، ويُسند له أسعد النديم كل الأعمال القذرة، وابن عمك حراميّ أيضاً فاحذريه، وبالفعل تذكرتُ فقدان خاتمٍ من بيتي، فلما زارنا عبد القادر طردته أمام زوجي وأمه، قلت لزوجي: «أنا أكثر رجولةً منك»، حين تكرهون زوجاً تحبون أن يتورط فيما يخزيه أمامكم، وجاءت اللحظة التي يتمنى فيها الرجل موته، أو يتمناه قبلها. أقصد حين يكون –لا مؤاخذة– بلا فائدةٍ في السرير. صعد وهبط وابتل جبينُه وزاغت عيناه ثم ارتمى إلى جانبي بلا نفعٍ، وتكرر الأمر مراراً... وانكسرت عصا ذكورته التي كان يوبخ جمالي بها... وأحس أنني شمتى ومشفقة، كان لابد من كلماتٍ أُشجِّعُه بها، ولكنها لم تخرج من فمي ولا من قلبي، كل ما قلته حين علمت انسحابه من جيش الذكور المتباهين كالديكة على أسطح قريتنا... لم أقل له سوى: «ماذا حدث...؟ هل أنت مريض تحتاج إلى كشف؟ أكشف. وجرب أصنافاً من البرشام والدهان والعسل، وقل للزمان أرجع يا زمان»، كان يكبرني بعشرين عاماً ولكنه فقد حيويته مبكرا في

أوائل الخمسين. وظني أنه تقوض سريعاً لجلوسه مع دماغه في شكوكها، وتصديقه الظن مثل تصديقه اليقين. لم يحبه الناس، ولم أحبه، ومرض بالكبد، تفتت كبده كرهاً للحياة وللناس، مع أنه كان أستاذاً وسيما وابن أغنياء، وكلما تحدث لزائرٍ يعوده في مرضه سمعته يقول: «هي التي قتلتني». ويرحل الضيف ونبقى كلانا مع الكره والإشفاق، ورائحة الموت الدانية من الشباك تقترب كل ليلة أكثر، حتى صار وجهُهُ كصفار البيض، وبطنه منفوخا ونفسه كريه إذا تكلم، عندئذٍ تعلمت القرآن أشد به على صبري، وسمح لي بحضور مجالس العلم في المسجد... وبلغت سعادته منتهاها حين أخبرته أني سأمارس مهمة تغسيل موتى النساء. وكنتُ أشغلُ نفسي بكل شيء ينسيني من أنا، ويلطف من رائحة الموت المحلقة على رؤوسنا، فما عدتُ أعرفُ بعد طول مرضه أي رأس يقصدها الموت... حتى أتكأ ذات ليلٍ على ظهره وكان يبتسم في خبث وطلب مني أن أدنو إليه فلما فعلت أمسكني من طوقي وقال بنفسه الكريه:

– إن متُّ يا مانعة، أتتزوجين من غيري؟

وكما أخبرتكم لم أصارحه مرة بكراهيتي له، لكنه حين سألني عن الزواج من بعده، أجبته وأنا أرد يده عن طوقي:

– ربما.

فارتكن بظهره على الوسادة محرجاً وحاقداً ثم بصق عليَّ وقال: «إن عشنا إلى غدٍ فسوف أطلب من المحامي أن يقصيك من الميراث ومن وصيتي، وسوف أطلب معه شهودا أطلقك أمامهم، تخرجين من بيتي شحاذةً بنت كلب كما دخلته أول مرة»، ولم يكن لزوجي غدٌ، بل قتله الغد. سالت رائحة الموت في بهو منزلنا وجاء قلة من المعزين والجيران يساندونني. قررتُ أن أُغسِّلَهُ بيدي. وكما تحسَّسَ جسدي ليلة الدخلة، تفحصت جثمانه إصبعاً إصبعاً، وأرقتُ عليه الماء وأنا أتحسسه ليتأكد عندي أنه كله ذاهبٌ إلى ملحده، ولو كان ممكناً لأرسلتُ ذاكرتي إلى القبر معه. وحين وقفتُ للمرآة

بعدها رأيتُ أنه قتلني معه، وربما قبله، فقد ترك شحوباً وحزناً. وكان الورق الأصفر يطير من الشجر الذابل ويقصدني، فيلتصق بجلبابي لا يزول حتى أنفضه بيدي، فتسقط الورقة هشيماً كالعمر المبعثر وتترنح قليلاً في الهواء ثم تموت.

باتت المرآة يزعجني مرآها. لكنني أمسيت امرأةً ثريةً جداً وأرملة... وجاءت صاحبتي روح من لطفها وحدبها عليَّ، لكي تعيش عندي كأختي، وتسهر عليَّ كأنني ابنتها التي ماتت في عمر الزهور ولم تنجب بعدها، ثم مات زوجها على جبل عرفات فباتت وحيدةً مثلي. روح كانت متنفسي وسري. وفي القرية بالخصوص تحتاج الأرملة التي تطالب بحقها من بالميراث إلى جهدٍ عظيم وصبر على احتمال المماطلة. وبعض الفلاحين ما زالوا يرون أن المرأة لا ترث، وحرامٌ أن يجمع الرجال بعرقهم الأرض والمال ثم ترث النساء بلا عناء، تلك عقيدةٌ راسخةٌ لدى أكثر الفلاحين، عندكم مثلاً زاكي الجمال، أنا لا أقول بأنه رجل سيء، ولكن أقول بأنه يُبَدِّي الأعراف في قريتنا على شرع الله وعلى كلام الطيبين والحكماء، ففي عُرفهم أن البنت لا ترث إلا بعد أن يكبر اليتيم، ويتزوج الكبير والصغير، وتعمر الدار بالعيال، ثم يكون من العيب على الأخت أن تُشرك زوجها، أو تستعين به على مطالبة أخوتها بالورث، وعيبٌ ثم عيبٌ أن تلجأ المرأة إلى المحاكم، ولتنتظر حتى يوشك الجميع على الموت، فربما تنال البنت ميراثها، ويقسمون لها من الأرض الناشعة التي لا تُزرع، وتجمع أموالها أقساطاً في آماد متباعدة تموت الوارثة قبل أن تحصلها، ويماطل الخال أبناءها وأحفادها ويبخسهم الحقوق. وفي القياس ما ضرَّ لو جارَ المساحُ على نصيب الأنثى. وعلى الوارثة أن تسامح في كثيرٍ من حقها أو تصبر عليه زمناً طويلاً.

وكان زاكي يملك في مدخل القرية، أمام الفندق الذي بناه مرزوق الخولي، قطعةً من الأرض عرضها عشرة قراريط، انضمت كلها لكاردون المباني فزاد سعر المتر الواحد فيها حتى بلغ عشرين ألفاً أو يزيد. هكذا ثمنها السماسرة من قريتنا ومن خارجها. وفي مقدمة قطعة الأرض بيتٌ من طابقين كان مأمور المركز في الزمن القديم يسكن فيه، وكان زاكي عاجزاً أن يستغل

ميراثه الضخم في أي شيء، لأن زاكي لم يكن يملك بالميراث عن أبيه وأمه سوى خمسة قراريط وأملك أنا، المانعة، بالميراث عن زوجي قيراطين، ويملك نفرٌ كثيرٌ من القرية أسهماً في القيراط الثامن، وقد بُني بيت المأمور على قيراطين، ذلك البيت الأصفر ذو الشرفة الواسعة في الطابق الأرضي وذو الشبابيك الكثيرة. وكان زاكي يملك بالورق والعقود الطابق الأول كله ميراثاً عن أبيه، ويملك أمتاراً قليلة في الطابق العلوي ميراثاً عن جدته لأمه. ولو أخبرتكم أن كل امرأة في هذه القرية عاشت أو ماتت كان لها نصيبٌ ضئيلٌ من البيت وقطعةٌ الأرض ما صدقتموني، فلما زاد سعر الأرض ظهر لزاكي أكثر من خمسين رجلاً وامرأة من أهل القرية تقدموا بعقودهم إلى النيابة العامة لنيل حقوق أمهاتهم وجداتهم المهضومة زمناً طويلاً. وقد كان بعضهم، بالشرع والحساب، لا يملك أكثر من نصف المتر وجاء بعضهم يسأل عن ميراث زوجه وحصتهم لا تزيد عن خمسة آلاف جنيه. لكن الجميع أصروا على مطالبة وملاحقة زاكي، لعلم الناس بثرائه الفاحش ومسلكه الواعر في مطالبته بحقه ولو كان جنيهاً واحداً في رقبة أحدهم يأتي به، فقرروا أن يرهقوه ولا يجعلوه يهنأ بورثه وماله... لكأن أرواح الجدات والأمهات حضرن ليفركشن كل الاتفاقات التي حاولوا عقدها في مكتب أحمد الجنوبي، وكان الناس يتوسلون بأحمد إلى صاحبه زاكي كلما أعجزتهم مماطلة زاكي، لأن زاكي لم يكن يثق إلا بأحمد ولا يوقع ورقة دون أن يومئ إليه أن يفعل.

ففعلتُ كما يفعلُ الرجال في قريتنا، ومشيت إلى مكتب الأستاذ أحمد الجنوبي مطالبة بالقراريط أو ثمنها.

لكن زاكي ظل يماطلُ بلا سببٍ مفهوم، وكان الورثة الخمسون وأبناؤهم يطاردونه في كل مظنة له من الغيط للبيت للسوق، وإلى البستان الذي يملكه الجنوبي، رُوي من بعض الشهود أنهم رأوا زاكي يقطع حوض الفول الأخضر جيئة وذهاباً وينتف بأصبعين شعر رأسه من شدة التفكير. وجلستُ تحت نقابي في مكتب المحامي صديق زاكي، فتنهد قائلاً:

– المشكلة عند زاكي أنه لا يملك سيولة، والأمر يحتاج لملايين حتى يوفي كل الوارثين حقوقهم.

قلت: «تبقى مشكلته يا أستاذ أحمد، إن لم يكن سيشتري هو فسيشتري غيره، وليس لي دخلٌ ببقية الوارثين، لي قيراطان بعيدان كل البعد عن مشاكل بيت المأمور... فليبع شيئاً من أملاكه البعيدة وعنده الكثير».

– تلك هي المشكلة الحقيقية، زاكي لا يستطيع البيع، لا يقدر عليه... أنا أحدثك كصديق له، زاكي أدمن على الشراء، لم يحرر عقد بيعٍ منذ ما يزيد عن عشرين عاماً، يرى البيع تفريطاً والبائع خسرانٌ مهما كسب، أنا أفهمه لأنني صاحبه، لكن بلا شكٍ سأتدخل لإنهاء هذا الأمر... عنده أربعة عشر قيراط في حوض الطولاني بعيدةٌ عن كل أرضه، سأبيعها له وننهي الخلافات اطمئني... ربنا يستر عليك يا زاكي.
– تعلم يا أستاذ أن الحاج زاكي تُجاور أرضه أرضي على أطراف القرية، ويزرع في فدانين من ملكي ولم أتلق منه إجارةً ولا حصة من المحصول، قل له يعقل يا أستاذ، زاكي من كبارات القرية فكيف يتحمل الإهانة من أصحاب الحقوق.
– قلت لك اطمئني...زاكي يسمع لي.

ولم أخبر الأستاذ أحمد أن زاكي كان يغازلني، أحبني في شبابه البكر وكان يغافل أباه في الطريق ويتبعني، لكنه في النهاية تزوج على هوى أبيه من امرأة جميلة والله، وعندها ميراث فدانين، زاكي كما يقولون لو سقط من السماء لنزل واقفاً، فلما ترمَّلتُ عاد يتبصصُ عليَّ، يحسب أنه من تحت النقاب سيجد المانعة القديمة، أو أنه يحسب للفدادين التي حازتها المانعة من زوجها. كلما حدثتُهُ في الحقوق تلوى الرجل وسبَّل جفنيه وتعشم في صبري... ولماذا كنت سأخبر الجنوبي بذلك؟ فمذ ترملتُ عاد الغزل الذي كان يلاحق المانعة أيما حلت، ومن رجال تقف الصقور على أشنابهم واثقة مرتاحة... وعاد ابن عمي عبد القادر يطرق الباب عليَّ وليس

في المنزل غيري وغير صاحبتي روح، وكنتُ قد حسمتُ أمري معه منذ اليوم الذي طردته أمام زوجي، وقد شطَّ ابن عمي في مسلك الفجور من بعدها حتى شاع عنه كلامٌ يخجل الأبالسة... بات يعمل سائقا في الإسعاف وهي وظيفة كافأه بها الحاج أسعد النديم على طول خدمته له، لكن عبد القادر لم يكن يذهب للشغل الحكومي أصلاً ويسوق السيارة بالحاج داخل البلدة. لكن مصدر دخله الأساسي هو الفضائح والبلطجة، يمشي هو وصاحبه جابر الحرامي في القرية يوسعون الشروخ وينظرون من خللها. وحتى تفهموا ما أقول، فإن البيوت في قريتنا بها شقوق للفأر وشقوق للثعبان، ومنها شق أو اثنين لجابر الحرامي، هو ليس لصاً لكن داءه كان التلصص على الرجل وهو بين فخذي امرأته، لا نعرف ولم يعرف أحد كيف كان يتسلل جابر ويصنع لنفسه فرجةً في الحائط الذي وراء السرير أو أمامه. فرجة لا يلحظها أحد ينظر عبرها بعيونه الصفراء، ويرصد آهات الناس على الفراش. وبرغم ذلك فكل أهل البلدة يعرفون كون جابر عنيناً ليس له في النساء، إذ حاول أفاضل من الناس تزويجه غير مرة من صبايا ملاح يكفون الناس ويكفونه هذا الداء الوسخ، لكنه أحجم عن الزواج متعللاً بحجج كشفت عجزه، وكان إذا اشتد أزيز الأسرة اقترب جابر من الشق برأسه أكثر، فتبدو عيناه لأهل السرير، والناس في ذلك مذاهب، منهم من يغيظونه أكثر ويزيفون المتعة حتى يبكي جابر، وكان إذا بكى مكث في داره أسبوعاً مريضاً بالحمى وبالحسرة. وكثيرٌ من الناس كانوا إن رأوا أحداق جابر في الشقوق تدثروا ببعض ثيابهم وقاموا يطاردونه بالعصي وبالأحذية، وكان الله رحمةً بجابر من الضرب الموجع يسخطه قنفذاً، ثعباناً أو فأراً، جابر نفسه لا دخل له في الصورة التي يسخطه الله عليها، لكنه يسقط من الشق الذي في الحائط فيوجعه الناس ضرباً بالشباشب وغيرها، فإذا ظهر بعدها من النهار ظهر في هيئته الأدمية، متوجعاً من أثر الضرب في ذات الأماكن التي طاله فيها الشبشب وهو فأر، فيمشي بعرج أو يربط رأسه المجروح، وكم تألم وتأذى فلم ينتهِ أبداً. وجمع الله شمل المتعوس على خايب الرجا، وألَّفَ بين عبد القادر ابن عمي وبين جابر الحرامي. وأوكل إليه عبد القادر مهمة التجسس

على النساء الوحيدات، فيرى أحوالهن من الشقوق، فإن وجد أن المرأة – يا عيني– تزفر من وحدتها وتمشي بأصابعها على رقبتها وصدرها استدعى جابر عبد القادر على الفور، فيطرق الأخير عليها الباب، ويغازلها، فإن رقت له وأجابته إلى السرير، وقف جابر عند الشق يصورهما بكاميرا الموبايل، ثم يتعيشان بعدها من ابتزاز أولئك النسوة. وعرفتُ عين جابر ذات مرة في شقٍ علويٍ قريب من السقف، وكنت أمشط شعري الطويل الحزين، فلما لهث وتبصص استدرجته زيادة بتلمس خصري، فسقط على الأرض ثعباناً قبيحاً صببتُ عليه الماء الساخن وأرقدته في المستشفى شهراً، ولم ينل مني عبد القادر ريقا حلواً إلا خمسمائة جنية على سبيل القرابة، فلما عاد ثانيةً طردته فانصرف، لكن بدا أنه لن يتوقف عن إثارة المشاكل سوى أن يقف له رجالٌ أشداء لا يهابونه، ودلني عقلي أن أمشي لسيده أسعد النديم، لكن الصدفة والهوى انجرفا بي إلى سبيل آخر، رجلٌ لم أعرف شبيهاً له في الرجال، يقولون أنه ابن أخٍ أسعد النديم جاء يطالب بحقه، ملأ القرية بالصياح وبالحواديت، ابن أصولٍ و باشوات، ويخطر في جلبابه ويسحر الألباب بحديثه... كنت قد جربتُ الرجال فمقتُ عشرتهم وسوء طويتهم، وربطت على قلبي عهداً ألا أحب أبداً، لكنني أحببتُ نور النديم، أقول ذلك رغم أنه قد كذب عليَّ وخدعني، لكنني ما زلت أحبه، ذلك لأنني لم أحيّ أياماً أفضل ولا أجمل من الأيام التي عرفني عليها، كان كذباً مخملياً ناعماً، ونائياً عن الحقيقة مثل الحياة على ظهر قارب صغير ،ينأى عن كل بر ومرسى، وينجرف مع الوهم... حين سألته ماذا يفعل رجل مثلك في قريتنا الصغيرة؟ قال ببساطة: «جئتُ لكي أغير القدر»، فسألته إن كان ذلك في مقدور البشر، فسكتَ وابتسم وجمع يدي بين يديه وتكلم.

«أنا أيضا أحببتك يا مانعة، بل إنك الوحيدة التي ائتمنتها على سري وعلى اسمي الحقيقي، رغم ذلك تخبرين الناس بأنني نور النديم، وأنني كذبتُ عليكِ وعليهم. أو تدرين يا مانعة لم احتفظت بسري معكِ؟ ذلك بأنني خشيتُ لو نسيت اسمي فادخرته في بيتك في الساعات التي كُنَّا نقضيها سوياً، وفي رقصك لي أنا، أنا الذي هو أنا، لأنه حتى المرايا حينها قد شرعت

في الاحتيال عليَّ، كانت تبديني كرجلٍ آخر لا أعرف عنه. وتعرفين كيف يكون خداع الناس وخداع المرايا. أفلم يكونوا يخبرونك أنك صرت امرأة أُخرى غير الجميلة التي خَطَرَتْ من بينهم زمناً. وصاروا يوكلون إليكِ صب الماء على أجساد الموتى. أخبريهم من أنا يا مانعة».

ويحكي رجل من القرية أنه في غفلة من الزمان تورط الأصدقاء الثلاثة، فرحات والجنوبي ونور، في قصص عشقٍ عجيبة، وكانت عفاريت الترعة قد ملت من حواديت القرية الممجوجة عن الميراث والمقاس وأكل الحقوق، فأرادوا أن يستمتعوا بحكايات جديدة، عن الحب، وعن الهوى، فأفسحوا للأصدقاء الطريق، ووسعوا لهم مسلكهم، وشغلوا الناس عنهم بملاحقة زاكي فوضع لثاماً على وجهه كالمطاريد وظل يفر من غيطٍ إلى غيط. وحتى في بيته لم يجد زاكي الراحة فقد اختلف مع زوجِهِ وضربها، فتركت له البيت خاوياً وذهبت لاحقةً بقريبها أسعد النديم لكي يؤدب زاكي على ما فعله معها، وكان زاكي يهاتف أحمد بصوتٍ ضعيف ويقول: «الحقني يا أحمد، أنا بموت»، فتقطع العفاريت الاتصال بينهما ولا يعرف أين زاكي ولا كيف يعيش. المهم أن العفاريت تفرَّغَتْ لقصص العشاق تتابعها.

أما فرحات فقد أحب امرأة لم يخبر أحداً باسمها، لكنه باح ذات غفلة وقال لأقرب الجالسين إليه أن اسمها أسماء، وكان يسميها أسماء الله الحسنى، وظهرت له بمحبتها كرامات كثيرة عرفها الناس في البستان نهاراً،... كان إذا ذهب ليقيل تحت التوتة اجتمعت من حوله حيوانات الحقل يسبحون الله بلغة الإنسان الفصيح، والزهور والأعناب كانت تفعل، حتى الحمام الذي كان يمر صدفةً من فوق البستان وفوق قلب مولانا، كان يهبط كالساجد لآيةٍ تأمُرُ بالسجود، ويقف ليُسبِّحَ عند رأس مولانا فرحات، وكان عرقُهُ إن لامس التربة ينبت عنه النعناع أو القرنفل، واستفاق مولانا ذات مرة من قيلولته فوجد عند أصابعه فأراً يلثمها ويقرأ ما تيسر من سورة الجن، فجزع فرحات لمرآه، إذ كان لا يحب منظر الفئران ولا يطيقه، من وقتها ما عادت الفئران تدخل البستان ولا تنام في شقوق الكوخ، وأرسل الله إلى فرحات سناجب عريضة الذيل تُسبِّحُ معه، رغم أن السناجب ليست من

قوارض قريتنا. وقد بدأ فرحات في مراسلة الجرائد كلها بمقالات فلم تستجب أغلب الصحف، لكن صحفاً أخرى ومجلات قد استجابت ونشرت له، بل ورحبت، فقد كان مولانا يطرح كل الأفكار من منظور المحبة، حتى وإن تكلم في السياسة أو التاريخ، بدأ يشرحُ نفسه للمرة الأولى كرجلٍ يفهم نفسه، فأزال الإشكال والشبهات الأمنية من حوله، نافياً مزاعم أسعد النديم حتى لدى السلطات. ليس معنى ذلك أنه توقف عن الهرب والفرار من الأمكنة التي نألفها، كان مولانا يفر من تلقاء صبابته لا من ترقب البوليس... إلى أرضٍ لم تطأها أقدامنا ولا مطامحنا، وتراه ساكتاً ثم يصرخ فجأة باسمها ويقول: «مدد...مدد».

أما أحمد الجنوبي فقد دخلت عليه مكتبه ذات مرةٍ امرأةٌ آيةٌ في الحسن، قصيدةٌ في العطر والغنج. اكتشف أحمد وهي مازالت تخطر نحوه أنه أحبها، بل ربما أحبها طيلة حياته، كيف حدثته نفسه بذلك؟ لم يفهم، أحس بأن شيطاناً قذفها في قلبه، وأنها رمية القدر التي ربما صرعته، وأعادت عليه أسرار، ذاك هو اسمها، كلامها وهي تبتسم عن ثغرٍ عذب، فقد رأت بعين أنوثتها أن أحمد لم يفهم من كلامها شيئاً وكان يحدق فيها لا أكثر. فلما التقاها صدفةً في الشارع بعدها بيومين وكان يتنزه بسيارته ويفكر فيمن سلبته لبه ورشده ثم رحلت، فلما رآها غامر واستدعاها باسمها بين الناس دون مراعاة للشارع ولا للعلانية، واقتربت من سيارته فدعاها للدخول ففعلت، وكان يقرأ من وجهها سطور فرحٍ ومفاجأة، ولو قالت له أسرار حينئذٍ أنها كانت تفكر فيه في نفس اللحظة لصدقها. لكنهما تكلما فقط في موضوع القضية التي دخلت بها عليه مكتبه، وكان أحمد لسرحانه يخلط في الكلام بين قضيتها وبين موضوعٍ أخر وربما مواضيع عدة.

أما هي فلم تمانع لخبطته وتعرقه في حضورها، ولم تكن تبالي بأي حديث يتكلمان، المهم عندها كان ألا ينتهي الحديث إلى كلامٍ يُفرقهما، أو أن يذهب بكل حبيبٍ منهما إلى عالمه... وانتهيا بعد حينٍ إلى كونهما يدوران في شوارع القرية بلا وجهة، وجرَّبَ أحمد أن يبتعد بسيارته عن طرق القرية ومطارقها فلم تعترض هي، وكان عطرها هفهافاً.

وفي الليل هاتفها وفي الصباح هاتفته، لكنها قد توقفت عن مهاتفته بعدها دون سبب، وعاد أحمد يراجع في رأسه ما حدث ذلك الأسبوع، وفتح الملف فاكتشف أن القدر هو من دفع أسرار دفعاً إلى مكتبه، لأنه كان موكلاً عن خصمها في تلك القضية، وهو كان قد اشترى من زوج أسرار أرضاً، ثم اتهمه الزوج بخداعه في الثمن. لكن أحمد اكتشف أن الرجل قد سدد كامل الثمن المتفق عليه، وزوج أسرار كان طامعاً في الزيادة لأن الأرض زاد ثمنها بعد البيع وتضاعف، وعليه فلا يصح من أحمد أن يكون موكلاً عن كلا الخصمين، واستدعاه طارق بك الشاذلي رئيس المباحث إلى مكتبه فوجد أحمد كلا الخصمين، ووجد محامياً آخر في جبهة أسرار وزوجها، استقبله رئيس المباحث باحترام وسأله في مودة أن يصلح بين الطرفين ويقرب الأمور، فقال أحمد بكل وعي المحامي الحصيف:

– هذا يا طارق بك ما حاولته، وكلمت السيدة أسرار عن ذلك حين التقينا، لكنها امتنعت بعدها عن الكلام، وسألتُ نفسي أي شيطانٍ جعلها ترجع عن المعروف أو ترفض الصلح.

فتأودت أسرار في مجلسها كمن تعتدل للحديث أو تهم بقول شيء لكنها سكتت، فتدخل طارق بك مثنيا على نزاهة أحمد.

– أحمد بك من أحبِّ أسماء المحامين إلى قلبي، إن لم يكن أحبها على الأطلاق، رجلٌ شريفٌ ويحرص على الصلح بين الخصوم، على فكرة يا أحمد بك، ترائى لي أن أزورك في بستانك الذي على أطراف البلدة، إن كنت تسمح.

ورحب أحمد بالفكرة وعقد موعداً مع رئيس المباحث وتضاحكا بما أثار حسد المحامي الآخر، فتكلم من غير داعٍ:

– لكنه خدعنا هو وموكله، عيب عليك يا أستاذ أحمد تأكل حقوق الناس.

وانذهل أحمد من هذا الكلام الغريب الذي كان يسمعه للمرة الأولى في حياته المهنية، فلم يتهمه من قبل أي مخلوقٍ في مالٍ ولا في أمانة، وكان المحامي الآخر أستاذاً كبيراً من مدينة شبين الكوم، فحار الأستاذ أحمد في الرد وعاجلتهم أسرار بالكلام فقالت:

– أنا أيضا كنت مخدوعة في أحمد.

وقال أحمد ثائراً متجاهلاً لأبهة خصومه، ولجمالها ولشوقه إلى كلمةٍ منها على انفراد.

– اسمعي، اسمي الأستاذ أحمد ولست أحمد مُنكراً... وما دمتم لا تقبلون وساطتي فبلاها من هذه الوساطة، الأمر بينكم وبين الشاري إن شاء زادكم، وإن شاء تمسك بالعقود والثمن المدفوع، وهذا كرم غير ملزمٍ به وأنا لا أحبذه، والقانون معه ولو اكتريتم كل محامي شبين في صفكم، مثل هذا الأستاذ الذي لا يفهم في الذوق ولا في القانون.

وكانت ثائرة أحمد عظيمة حد أنه أخرس الأستاذ نادر زوج أسرار حين همَّ بالكلام وأجلسه، لكن أحمد تعامل بعقلٍ شديدٍ وتهذيبٍ لدى استئذانه من طارق بك للخروج.

وفي المساء ترك أحمد سيارته ومشى ينهل من ذاكرة الأسبوع الفائت ويحورها لصالح بهجته، وافترض في ممشاه ألف لو، وكان يسمع أم كلثوم من مكانٍ ما في روحه، فدندن معها حتى وصل لشارع المدارس الخاوي من الناس في هذه الساعة من المساء، لكنه فوجئ بها، أسرار تقابله، يقابلها... وكان واضحاً أنها مندفعة إليه فسعى هو لها، والتقاها في منتصف الطريق بحذاء الطوار، وشدَّ على يدها دون كلام، وقالت له:

– أريد أن أصارحك بشيءٍ ما عجيبٍ حدث لي، أنا أحببتك يا أحمد.

ولما أطالت (روح) صاحبتي في الكلام إلى هذا الصحافي الذي جاء من مصر يسأل عن نور وكانت تثرثر هي فيما لا طائل منه بدأ هو في توجيهها نحو المهم فسألها كيف أحبَّت صاحبتُك نور النديم أو أحبها، فاعتدلت وحكت:

«كانت تلتقيه صدفةً في الطريق، وتسأل عن ذلك الوجيه الذي يتبعه العملاق محمد أبو جلمبو في كل مكان، فحدثتُها أنا عنه، لكنها في الصباح سألتني أن أماشيها إلى مكتب الأستاذ أحمد الجنوبي المحامي للكلام في المصالح والعقود، وعند باب المحامي قابلته، وحياها محمد أبو جلمبو باسمها، فالبلدة كلها كانت تعرف المانعة تحت نقابها أسفاً على جمالها الذي سرقه زوجها معه إلى القبر، وكانت أوراق الشجر الصفراء تسقط عن جلبابها حتى وإن عز الورق الجاف في الحقول والقرية.

ثم أخبرتني ونحن نثرثرُ كعادة أرملتين في ليلٍ طويلٍ أن نور النديم عرض وساطته لدى زاكي وقبلها المحامي، وطلبت مني أن أُعد غذاءً دسماً لأنها دعت زاكي والجنوبي ونور النديم ونفراً من رجال القرية للتشاور في أمور المال من الغد، فتعجبتُ ولكنني وافقتُ في النهاية، هي أدرى بمصالحها على كل حال، لكن الغذاء الذي كان يكفي عشرة شهده نور النديم بمفرده، لأنه الوحيد الذي قد حضر، وانتظره حارسهُ أبو جلمبو عند الباب، وأخرجنا له ما يأكله. بعد قليلٍ شعرتُ بشيءٍ خفي يحدث بينهما، فاستأذنتُ لصلاة العصر على مقربة منهما، وتركتُ أذناً عندهما وأذناً مع الله، ففوجئت بغزلٍ صريحٍ يحدث بينهما... أي وحق الله، حتى أنني صليت العصر ثلاثاً من الدهشة وعدت وصليته خمساً ولم يتوقف أحدهما عن مغازلة الآخر، فلما طويتُ المصلية رأيت أن المانعة كانت تكلمه سافرة بلا نقاب وتبتسم كأيام دراستنا في الدبلوم واحمرت وجنتا المانعة، وكان من عادتي أن أنظف عنها ورق الشجر الذي كان يلاحقها فوجدت على ثيابها ورقة حين اقتربت منها بكفي طارت بجناحين كفراشة، وفَرَّت من النافذة الموارية. كانت المانعة فرحانة كمن انفك عنها نحسها.

– وهل كان يحبها فعلا؟

- أبداً يا أستاذ، عمره ما أحبها، كان كغيره يقصدها من أجل مالها وأملاكها الكثيرة في القرية، لكن ذلك الملعون كان أمكر الجميع وأعذبهم لسانا، هو من أبناء المدينة يحسن الكلام والغزل، فأدار رأسها وأكل أموالها، أخذ منها ما يزيد عن مائة ألف جنيه ابن الكلب...
- هل اقترض منها؟
- اقترض؟! أنت تتحدث مثله يا أستاذ. كانت المانعة تتوسل إليه ليأخذ أموالها منها، فيقبلها كالمتعفف ويقول على سبيل القرض حتى استرد حقوقي من أسعد النديم.
- ولماذا لم تمنعها عنه، أو تمنعيه عنها؟
- أنت لم تر المانعة يا أستاذ كيف احلوت وزال شحوبها، ولا تنظر إليها الآن... المانعة بعد أن دارت في فلك نور عادت لحلاوتها الأولى بل وأحلى، طلبها خطابٌ من البلدة والبلاد المجاورة من جديد وقالوا: «مالٌ وجمال»، كيف كنت أردها عن فرحتها.
- وكيف افترقا... أو لماذا؟
- الولد كان يسرح بدماغ المانعة، حتى أفهمها أنه هو ليس هو، أي ليس بنور النديم، ويخبرها بأنه صحافيٌ وأنه من أبناء القرية لأناس هجروها فراراً من أسعد ومن أبيه، مسلسلٌ طويلٌ وعريض أقنعها به، الغلبانة، وكانت تصارحني مؤمنة بما تقول، وتطلب مني أن أكتم السر حتى ينتقم من أسعد ويغير القدر، سألتها من شهودها على ذلك؟ قالت: «أحمد الجنوبي. فأخذتها من يدها إلى أحمد وحكينا له حكاية صاحبه، فدهش».
- من أين جئتما بهذا الحديث العجيب؟ واستخرج ملفاً من خزانة القضايا مكتوبٌ عليه نور النديم، فأرانا بطاقة نور باسمه وشكله ثم قال:
- نور كسب أول قضاياه ضد عمه بالأمس...ثلاثة أفدنة عند أطراف القرية والليلة سيوقع على استلامها.

فقلت للمانعة وأنا ألطم: «هل صدقت يا خايبه، يا هبله... الباشا نصاب ويستغلك».

وعاود الجنوبي حديثه إلينا مؤكداً على كذب صاحبه فقال:

– حتى أن نور استدعى زوجه من عند أهلها في المنصورة، وستصل في غضون أيام.

عند هذا الحد فَزَّت المانعة من المكتب وأنا في ذيلها، وقلت للأستاذ أحمد:

– حقنا عندك يا ابن عباس الجنوبي... ما وثقنا بصاحبك إلا كرامة لك.

وسألها الأستاذ جلال الصحافي:

– إذاً ليس من الحقيقة أن أهل البلدة قد دهموا المنزل ووجدوا نوراً عندها؟

– نور كان يمكنه الحضور والرحيل في أي وقت شاء، ربنا يعفو عنك يا مانعة، لكن حكاية الفضيحة هذه بالذات كذبٌ وبهتانٌ دبره الولد الفسدان عبد القادر وصاحبه لما يأسا من المانعة، أسرَّ عبد القادر لسيده أسعد النديم بالذي كان بين نور والمانعة وكلام الناس عنهما، ولو كان عبد القادر يقدر على اقتحام المنزل على نور والمانعة لفعل، لكنه كان يخشى المواجهة مع العملاق الرابض بالباب، أبي جلمبو الذي كان يحرس نور، فنقل عبد القادر الكلام لأسعد وتحدث الشيخ قللي بالتلميح عن الموضوع فوق المنبر يوم الجمعة، ثم جاء عبد القادر وصاحبه فدهما المنزل فجراً وقالا للناس أن نور فرَّ من المنزل صعوداً وقفزاً فوق الأسطح، وكانت المانعة تصرخ والناس يلجون عليها منزلها يتثاءبون ويسألون عن الخبر، بينما كانت يد عبد القادر تبحث

في الأدراج عن مصاغ المانعة فسرقَهُ وأفلت للشارع، ثم من خلفه صاحبه وتركوا الناس عندها.

– وربما كان نور عندها بالفعل وهرب.

– اسمع يا أستاذ، نور كان هربان إلى القاهرة قبلها بليلة، ثم إن المانعة كانت هجرته بلا رجعة، وعاقبت قلبها بالمكث في المنزل بلا خروج، وأغلقت هاتفها فلا ترد عليه، والمانعة عنيدة وأنا أعرفها. حين سمعت حديث الجنوبي ونهضت إلى باب الخروج عادت برأسها وقالت لأحمد:

– أخبر الحاج زاكي بموافقتي على خطبته.

وانتهت تماما عن نور.

وسألها الصحافي:

– لكن الناس يقولون بأنها شُلَّت عندما دهمهما الناس...

– كلا يا أستاذ، المانعة شُلَّت حينما سمعت باختفائه، وبأنه ترك جلبابه مضرجا بالدماء، فها هي المسكينة كما تراها مشلولة تحبه وتنتظر أن يعود ويغير قدرها.

محمد فرحات

كيف تلومونني على محبتي لنور النديم وتقولون أنت جئت بالمجنون إلى قريتنا، لولاك ما عاش بيننا وما تصدعت جدران البلدة بمن فيها، وأراكم تضعون على عاتقي كل أوزاره. وهل مثل نور النديم من يحتاج إلى شفاعة مِنّي أو من أي أحد حتى يغزو بحكاياته وجنونه قرية صغيرة كقريتنا. ثم إن أهله هم كبراء البلدة وجده كان عمدتها ووليها، فالأكيد والأقرب للمعقول أن الناس كلهم كانوا سعداء بالتقرب منه. لكنهم فوجئوا بما في جعبة ذلك الساحر الموهوب.

وجلسنا ذات ليلة في كوخ أحمد الجنوبي في أول البستان، وبالمناسبة أنا شريكٌ في هذا البستان بحصة النصف، لكن نور النديم سبق منه القول وأسماه بستان الجنوبي فأطعناه وصرنا من بعده نسميه كذلك، حتى أنني بتُّ أستأذن من صاحبي أحمد كلما تاقت نفسي إلى عودين من النعناع الأخضر. المهم، حكى لنا نور ليلتها عن الشيخ القللي إمام المسجد الكبير في قريتنا، وهو الذي كان يهز المنبر بضخامته وصوته الجهور. فقال نور وهو مسطولٌ ومتكي على وسادة طرية: «القللي كان في الأصل حماراً... ما لكم تضحكون! أنا لا أمزح. القللي وبعض من أهل قريتنا هذي ليسوا أدميين مثلنا. إنهم من شيعة المساخيط. وكانت الحكومة تريد من كل من أسعد النديم وسيد عبد المتعال تهدئة المنافسة بينهما، فأصوات الناس في القرية كثيرة –ما شاء الله – ويمكنها أن تصعد بمرشحٍ وباثنين إلى مجلس الشعب فلا داعي للمنافسة أصلاً بينكما. وأسرَّ بهذه الرغبة طارق بك الشاذلي إلى كلٍ من المتنافسين على حدا تجهزاً للانتخابات القادمة التي لا يعلم موعدها إلا الله. فمشى صاحبنا سيد عبد المتعال –لأنه الأصغر سناً ومقاماً– إلى أسعد النديم، الذي كان يجلس مع بطانته السامَّة في الفيلا البعيدة التي تحوطها أفدنةٌ من شجر الليمون، وسأل أسعد سيد عبد المتعال عن سبب مجيئه، وعن ذلك الحمار الأبيض الكبير الذي كان يجره

من رقبته بحبلٍ قصير. فقال سيد عبد المتعال: «لعله ينفعنا فيما عزمنا عليه يا سيد الناس»، ووضع كفَّهُ على ظهر الحمار فنهق نهيقاً عظيماً أخاف الليمون على الشجر، وخنفر الحمار وتمرغ في التراب، ثم استحال بقدرة ساحرٍ إلى ذلك القللي الذي تعرفونه، وكان عريان ما زال، يحاول المشي على أربعٍ كطبيعة الحمار، فكان يقع ويقوم حتى استقام على خلفيتيه ومشى. وقال سيد عبد المتعال: «سيخطب من فوق المنبر في الناس نهاراً بالذي نراه أنا وأنت، وفي الليل يبيت عندك في زريبة الدوار لا يكلفك سوى حِمل سريس». وأعجب أسعد النديم بالفكرة وظل يجرب القللي أمام الساحر، فيجلسه على أربعٍ أو يقيمه على اثنتين، وفرح أسعد حتى أنه جلس يسامر سيد في سرور، وأشعلوا من بينهما موقداً كبيراً ألقوا عليه حصوة حشيش كبيرة، كبيرة مثل الدنيا، وضحكوا وضحك الليمون ولاحق بعضه فوق الشجر.... إنه حمارٌ، لكن عفريت الترعة أقنعكم بأنكم تعرفون قللي منذ صباه. وحدث بعد أسابيع أن مر الشيخ قللي بكوخنا المعتاد، فحدثته نفسه أن يدلف فتناله ضحكة ويصل إلى خيشومه بعض دخان الحشيش المبارك. فلما جلس من بيننا وراح الحديث وعاد ثم استقر الكلام عند نور النديم قرر نور أن يكلمنا عن الله عز وجل. وقد تكلم بيقينٍ فتبين لنا أن صاحبنا مؤمنٌ مخلصٌ يخشى الله عز وجل. أنا أتحدث عن ذلك اليقين الذي تذوب فيه الشكوك ويرتفع بالإنسان إلى مراتب عليا، حتى لكأنك ترى الملائكة وتتحدث إليهم كل يوم. فلما أفاض نور في حديثه بكينا وخجلنا كثيراً من سُطلنا، وقد كان أشدُّنا بكاءً هو الشيخ قللي، لقد بكي كثيراً حتى خنفر وتمرغ في التراب كيوم الساحر، ثم زعق، أو أنه نهق مثل الحمار الأبيض. فلو حكينا للناس ذلك ما صدقونا أبداً، وقالوا كنتم مساطيل ولا قيمة لشهادتكم. وأنا أسألكم: من أين يعلم نور كل هذه الحقائق؟ بل من أين له بمعرفة أي شيء عن قريتنا ابن المدن البعيدة ذلك؟ عندما أحبه الناس كانوا يأتونه بأخبار النهار ليخبز منها حكايات جديدة في الليل. أراكم ما زلتم لا تصدقون ولعنا بكلام نور النديم، وكيف كنا نجلس من حوله في ورع، وكيف كنا ننتظر ليلة الخميس من كل أسبوع ليواصل حواديته عن قريتنا وعن كبيرها أسعد النديم الذي نهب حقه ثم ألقاه طفلاً لا حول له

خارج قريتنا. لكنه عاد وتكلم، وصرنا نصدق كلامه وحدسه وظنونه. وسأله واحدٌ منا ذات مرة، لعله زاكي أو مرزوق الخولي:

– قل لي يا نور، هل رأيت العفاريت حقاً كما تزعم؟

ونظر نور إلى المستفسر بوجهٍ لم أر في حياتي أشدَّ منه حزناً ولا وداعة، وتردد بين وجوهنا كطفلٍ ضائع يستعطف الجالسين أن يصفحوا عن مثل هذه الأسئلة، لكنه تكلم أخيراً:

– أعرف أن منكم كثيرين يشكون في صدق كلامي عن العفاريت وفي حقيقة وجودهم، لكن صدقوني إنهم موجودون، وقد رأيتهم من قبل وما زلت أراهم الآن بينكم... لكن يلزمكم أولاً أن تفهموا الحدود البعيدة لكلمات مثل (بين – تحت – فوق) حتى تخمنوا مطارحهم. لقد توقَّفَتْ العفاريتُ منذ زمنٍ عن التخفي من أمامي، بل وتوقفوا أيضاً عن محاولة إدهاشي بالأعاجيب التي يأتونها بين يدي إنسانيتي... ما عاد يدهشني أي شيء... حين حدث ذلك بكثرةٍ علمت أنني سأُجنُّ يوماً لا محالة، لأن العفاريت لا يمكنهم أن يأتمنوا على أسرارهم سوى شخصٍ لا يُعوَّلُ على كلامه، إما رضيعاً أو مجنوناً لا خوف عليهم من هذيانه. وأنا يا سادتي ألوذُ بمجالسكم وأحتمي بالناس من الجنون الصريح، مثل جحا الذي أخبروه أن الفاحشة قد مشت في القرية كالوباء، ثم سرت في الحي الذي يسكن فيه، وأخيراً أخبروه أن الفاحشة قد اقتحمت بيته فقال بهدوء: «ما دامت بعيدة عن مؤخرتي!» لم يكن جحا أنانياً... بل على العكس، لقد مشى زمناً في الناس ينصح لهم بصموده وبُعده عن الفاحشة أيُما مكان حلت فيه، لكنهم وسخوا بيته ليهتبلوه على الفاحشة، فظل بعيداً صامداً، ووصلنا خبرٌ عن تلك القرية أن رجلاً لم ينحن للخطأ. كان جحا فيلسوفاً مشاءً يلوذ بالناس أيضاً، لأنه إما الناس وإما أن يمسي مجذوباً يضيعُ في فضاء أفكاره. الحبل الذي كان في رقبة حماره كان يربط جحا بالأرض أكثر لكيلا يتطاير.

لعلكم تتهامسون أن مجالس الحشيش تسيغ الحنظل، ويمسي كل الكلام فيها مقبولاً ووجيهاً، وأن نور قد سيطر بهذيانه على رؤوس حزمة من المساطيل المرفهين. أبداً لم يكن الأمر كذلك. وأعرف من بيننا رجالاً لم يقربوا الحشيش في حياتهم، لكنهم أحبوا نور ورددوا كلامه، هاكم صاحبنا نيازي... الصراط المستقيم كما ندعوه، وبوسعكم أن تقيسوا صلاحكم على صلاحه، نيازي رجلٌ خائفٌ من الله ومن عذاب اليوم الآخر، خائفٌ إلى حد أنه لم يعد ينطق، ويمشي غاضاً بصره في الطريق القصير ما بين دكانته والمسجد في أوقات الصلاة، وليس هو بالرجل الذي يَخدع أو يُخدع. كيف تقولون لو علمتم أن نيازي كان يرى نور النديم شيخه في أعمال القلوب، ويوبخه نور على التقصير أو الإفراط، فكان يبكي نيازي ويسترضي نور حتى يرضى. والمعلوم لدى الجميع –دون فخرٍ مِنّي– أنني كنت شيخ المجلس، وربما شيخ القرية كلها، يستفتونني في كل أمور دنياهم وآخرتهم، أخبرنا يا فرحات عن طلاق الغضبان وجواز التيمم بالتراب حال المرض، وعن الإتيان من الدبر وكفارته، وغيره، القرية كلها كانت تسألني من وراء ظهر الشيخ قللي، فكنت أجيبهم وأختار لهم من الفتاوي أيسرها، فأُحلُّ لهم شرب الحشيش في تلك الأيام السوداء، وأحذرهم من السُطل الذي يجعل الرجل يلحَنُ في صلاته، وأجيزُ لهم كأس نبيذٍ أحمر، والبيرة من حينٍ إلى حين، والترامادول ليلة الخميس، والإتيان من الدبر على منهج نفر غير قليل من التابعين، فكانوا يفرحون بتساهلي، بينما يندهش نيازي من تفريطي المُحدَث، فإن حار في أمرٍ يسأل قلب نور النديم عنه، فإن وافق نور عليه أقرَّهُ نيازي، وإلا رده عليَّ حتى وإن محصتُ له أدلتي، وقد منع نيازي نفسه عن مجالسنا التي باتت تستدعي كثيرين من أهل القرية وربما من خارجها، كلهم جاؤوا للحكايات. فلقد كانت الأيام ثقيلةً على النفوس المفردة، فالمائة جنيه باتت ورقاً ملوناً لا أكثر، ومتر الأرض المباني في قريتنا ناهز سعره في طوكيو. والرزق شحيحٌ والضرائبُ كثيرة، فكان غالب الناس مشغولين ألا ينكشف سترهم، ومن أجل ذلك تراهم ساهمين. فكانوا إن سمعوا ضحكاتنا من خارج البستان يدلفون ويقصدوننا عمداً ليلة الخميس لسماع حكاية نور النديم، فيضيقون الدوائر من حوله ويوسعون الحدق إعجاباً به، وكان نور لا يرضى بأقل من ذلك حتى يبدأ الحكاية. لم يستطع

نيازي حتى بعد وفائه بالديون التي خلفها والده –رحمة الله عليه– أن يعود إلى سابق عهده من المرح والتبذير، أضحى صراطاً قويماً يختل توازنه بعيداً عن الاستقامة. رغم ذلك كان يَقبل الشيشة من يد نور النديم وهي عامرة بالحشيش، وكان نور يراعي حرجه من الناس فيلقمه الشيشة بعد انسطال الجميع. وجاءتنا شلة شوقي العبد تسهر معنا بعد أيام من مشكلة نيازي مع أصهاره من عائلة العبد التي تجرأ لها نور، ثم ورطنا فيها جميعاً. والظاهر أنهم قد أعجبوا بصداقتنا القوية وقد أثار نور وحكاياته مع عمه كبير القرية شيئاً كثيراً من فضولهم فجاؤوا متسائلين. هم مجموعة من كبار التجار والزراع والمقاولين السماسرة، كانوا من قبل جلساء أسعد النديم وبعض بطانته، صرنا بعد ذلك خلصاءهم من دون الناس، وهم مدمنون على صحبتنا. وقد شككتُ في نواياهم أول الأمر، وحدَّثتُ نور والجنوبي بما في نفسي، فأجاب الجنوبي بأن ليس عندنا ما نخفيه ولا ما نخشى قوله فمرحباً بالجميع. إنما هي مجالس للانبساط والحظ والحكايات فمن يمانع؟ فليأتِ من يأتي، وكانوا يعقدون صفقاتٍ تجارية كبيرة، ويستفتون أحمد في الشروط وفي العقود، فأكادُ أزعم أن أغلب شغل الجنوبي في تلك الفترة، كان يأتيه من جلسات البستان لا من مكتبه، وأن هذا الكوخ قد استحال ديواناً عمومياً لكل مصالح القرية والقرى المجاورة. وتبين لي أن الفلوس التي يشتكي الموظفون أمثالي من قلتها إنما هي مدخرة في كلامهم وتجارتهم وأنها –أي الفلوس العزيزة– من الممكن أن تأتي بسهولة لا يجرؤ عليها أمثالنا. فقط يجرؤ عليها المغامرون.

أقصد من كلامي أن الجميع قد هام بمجالس نور وداموا عليها، فلا داعي لإلقاء تبعات ما حدث في القرية بعد ذلك على عاتقي وحدي، لم أجبركم على أن تصاحبوه، ولكن هذا شأنكم دائماً يا أهل قريتي تلقون عليَّ اللوم بأنني قد جررتكم لمذاهب وأفكار راقت لي حين اعتنقتها، وأقول اعتنقتها لأني كنت أصدقها، فمالكم إن رجعت عنها لمتموني... إن لكم عقولكم والحمد لله، فهل ضربتُ أحدكم على يده ليتبعني؟ هذا غريب! كلما كلمتم أحدًا من زوار القرية عن محمد فرحات تقولون كان شيوعياً، ثم كان سلفياً، ثم كان إخوانياً، ثم كان وثم كان. هذه التقدمة ترهق الناظر

والمستمع، فدعوني أقدم نفسي للناس. الحق أنني كما يقولون كنت ماركسياً ناصرياً في أيام شبابي الأولى، كنتُ مؤمناً بالمبادئ التي يعلنونها، والتحقت بأحزابهم عن قناعة، لكن يعيب النظرية الماركسية عندي –وهذا شأني وحدي– أنها تتجاهل ببساطةٍ وجود أي إلهٍ مدبر، مهما غيَّرنا وحورنا في الأسماء، شيوعي، اشتراكي أو ماركسي، فإن لب النظرية أنَّ الإنسان وحده قادرٌ على كل شيء، وأنه يستطيع تسلم دفاتر الرزق والحسابات من ذلك الإله القديم، ثم يدبر الإنسان ويوزع الأرزاق بالطريقة التي يرتضيها، وهي الأصح من وجهة نظره الفردية ووجهة نظر الحزب. وقد حاولتُ أن أصدق ذلك وتشدقت به كثيراً حتى جاءتني لحظةٌ مناسبة واستسلمت. وكان يوماً عصيباً احتجبتُ في إثره لأسابيع في منزلي لا أخرج منه حتى ينتهي الرفاق من اتهامي بما يحلو لهم. ولكن كان عددهم قليلاً على كل حال، وما كان بوسعهم مناقشتي لأنني قد حفظت كل المجلدات والنظريات والتجليات والشروح فاجتنبوني رفقاً، وأنا تركتهم وادعاً. ولم أجد مع الأصوليين ما هو أفضل بل واكتشفت أن كثيراً منهم لا يفهمون عن شيوخهم ولا يرغبون في الفهم وكانوا يتفقون مع الشيوعيين في غاية واحدة، أن الله قد سلمنا مقاليد الأمور وترك لنا شأن الناس ندبره على ما نفهم وما نهوى أحياناً. هؤلاء كان عددهم كبيراً جداً، وزاحموني في الشوارع حين اعتزلتهم، وفي الأسواق، وخطبوا على منابر مساجدهم بارتدادي عن جادة الطريق. لكنني كالعادة كنت قد حفظت المتون والشروح والتفاسير وأصول الفقه والبيوع والزواج والطلاق وأعشار الزكاة والمواريث فلم يجرؤ واحدٌ أو عصبة منهم على مباهلتي. وبدا لي أنني سأقضي البقية المتبقية من عمري في حيرتي تلك، وسألوكُ أفكاري مع صديقيَّ القريبين من قلبي، الجنوبي ونيازي، في دكانة الأخير. أنتم لا تفهمون سر حيرتي، فقد نشأت في منزل كان صاحبه – والدي– من كبار المثقفين، وحين تسلم وظيفته في القرية كمدرسٍ للأدب الإنجليزي عاد من القاهرة ومعه مكتبته الضخمة وخصص لها طابقاً كاملاً من منزلنا. ثم تركني أحبو وأكبر بين هؤلاء الكاتبين الذين فهموا الحياة وكتبوا عنها من الشعراء والسياسيين وأهل الجدل والفلسفة والقصة والرواية، حتى كتب الزراعة والقوانين كان لها نصيبٌ في معرفتي التي بصَّرَني بها أبي. وكان لديه –رحمة الله عليه – حلمٌ واحد هو أن أضيف إلى هذه

المكتبة الضخمة يوماً ما كتاباً واحداً يحمل اسمي على غلافه، لكنني بكل أسفٍ لم أستطع تحقيق ذلك الحلم في حياته، ولا أقول إنه كان حلمه وحده، بل كان أعذب أحلامي أيضاً. لكنني بدلاً من تحقيق حلمي واظبتُ على إدهاش أبي كلما دخلت عليه باللحية والجلباب القصير، وكانت لحيتي محناةً بلا سبب، وقلت له من بينها: «السلام على من اتبع الهدى». كم أضحكُ الآن لذكرى هذا المنظر وأشفق على أبي، كان مذهولاً تماماً. لكن أهم ما أردتُ أن ألفت نظره إليه أنني –وبكل أسف– لم أقدر على تحقيق شيء من حلمه، فالكتابة كما عرفتها كانت تتطلب ثقة ويقيناً، وما كنت آنذاك متيقناً من أي شيء. كلما حاولت أن أسرد السطور من فوق بعضها أحسستُ بأن الكتب التي قرأتها أو سأقرؤها كانت تسخر مني وتقول لي ما هذا الكلام الفارغ الذي تكتبه؟!

الكتابة شيء أخر تماماً غير الثقافة، تستخدم الأولى الأخيرة لكنها ليست هي. الكاتب أو الفنان بوجه عام هو كائنٌ ممسوس بسحرٍ علوي، ومتطرفٌ لا يفهم الحيادية ولا يسيغها، يسرب اليقين إلى القاري لأنه هو نفسه على يقين، ولا يراجع أفكاره بتشككٍ كل عشر ثوان، وفي رأيي لا يصلح الكاتب للشهادة في المحكمة على قضية ظرفية، أو يشهد على حقبة تاريخية ما ولو أعجبنا كلامه. وترسَّخَ في يقيني بعد كثيرٍ من اللف والدوران بين المبادئ والمذاهب وحامليها والداعين إليها أنني جسدٌ قد عبرته الروح لثوانٍ معدودة ثم هَجَرَتْه سريعاً وهربت، وأنني –في أحسن الأحوال وأدق الأوصاف– كاتبٌ ومفكرٌ موقوفٌ عن العمل من قِبل الله عز وجل حتى تأتيني الروح من جديد ويسكنني اليقين. تلك كانت حيرتي ومأساتي، لم أطلب من أحدٍ أن يتبعني إلى مجاهلها أو أن يطرق نفس مسالكي. من تبعني إلى مذهبٍ ما بلا عقيدة منه كان طرطوراً، والذي عاد من مذهب بعد عودتي كان طرطوراً أيضاً.

المهم أنني قد تخطيتُ بعد ذلك كل مخاوفي وشكوكي، وهزمتُ ترددي على إثر حادثٍ أو صدفة غريبة، ألا وهي رؤيتي لأسماء ثم هيامي بها. وحبي لأسماء حكايةٌ لم أقصصها على من في الكوخ، واسمحوا لي أيضاً ألا أحكيها هنا بناء على طلبها، وعامةً تكفيكم قصةُ عشقٍ واحدة أو اثنتان في رواية

واحدة. ويكفيكم أن تعلموا أنني صرت صُوفياً بلا سابق ترتيب، فقد أوتني في خيامها الطريقة الخلوتية، وصرتُ أخدم الواردين إلى السرادق وأنتظم في صفوف الذكر مردداً رأسي بين اليمين واليسار، بين السماء والأرض، وأقول بصوتٍ جليّ: «أسماء... أسماء...» فيلتهب قلبي ويشتعل الذِكر في الخيمة، ويراوح العاشقون بين وِردهم ووِردي، مائلين مرددين الله... الله... أسماء... أسماء... وكنتُ أنامُ حيثما اتفق، وأغسل جلبابي من الليل وأرتديها في النهار، وآكل من طعام الخيمة ومن نفحات النافحين. وقد توصل البوليس إلى مكاني في خيام العاشقين غيرَ مرةٍ وداهمنا المخبرون بحثاً عني، لكن شيخي الجالس على يقينٍ في صدر خيمتنا كان يأمرني بنظرة منه ألا أبادر بالهرب وألا أبرح مكاني، فكانوا يحدقون في كل الوجوه ويحملقون في وجهي مراراً ثم ينصرفون، فيشتعلُ الذكرُ في الخيمة، ونردد الله... الله... أسماء... أسماء...، كنت أنتظمُ في الرقص على دقات قلبي لا على نقر الدفوف، وكلَّمْتُ قلبي وكلَّمَنِي حتى بلغتُ اليقين الذي أنشده، راجعت أثناء ذلك كل معارفي وما قرأته، ووصلت إلى قناعاتٍ جديدة تخصني وحدي. ولكن هل كان قدري أن أحيا متنقلاً مع الخيام من مولد إلى مولد ومن مقام وليّ إلى آخر؟ تاقت نفسي إلى رؤية أهلي وزيارة أصحابي، ولقد علمتم أنني مظلومٌ، وتلك الملاحقة الأمنية إنما أججها أسعد النديم لظنِّه –كما ظننتم– أنني كنت السبب في مجيء نور النديم إلى القرية. وربت الشيخ على كتفي وقال اذهب إلى أهلك آمناً لا خوف عليك... فمشيتُ متخفياً في قِطع من الليل أزرق، وهاتفتُ عند بوابة القرية صاحبي أحمد الجنوبي، فأجابني مُتهللاً بأخبار حلوة أنه قد تحدثَ عنّي مع ضابط المباحث، طارق بك الشاذلي فرأى الأخير أنني مظلوم لا علاقة لي بالإخوان ولا بالتنظيمات السرية، وقد قرأ شيئاً كثيراً من مقالاتي التي داومتُ على إرسالها إلى الصحف والمجلات فقبلوها أخيراً كلها دون تردد ولا وساطةٍ من أحد، فقلتُ مدد يا أسماء ودخلتُ قريتي لأجد المخبرين قد انفضوا من حول بيتي، وفي الصبح لم أجد أثراً لهم عند المدرسة التي أعملُ فيها، بل ولم يجرؤ واحدٌ على الحديث معي حينما مررتُ من أمام دوار أسعد النديم نفسه. عدتُ إلى قريتي آمناً وجالست أهلي وصحبي، فقالوا لي كلهم: «أنت رجلٌ جديد ومختلف تماماً عن الرجل الذي كنا نعرف».

وقال زاكي الجمال: «بدلاً من أن تُزوجوا نور صاحبكم من امرأة جديدة ابحثوا عن زوجته الأولى، وبذلك تكونون قد أعدتم إليه ماله وولده». ووجدتُ أن نور قد صار بطلاً محبوباً لدى الجميع، لأنه كان يرهق ويفلس أسعد النديم ويسفه من صورته عند الناس الذين طالما خافوه. وحكايات نور أمست شائعةً يحكيها الزوج لصاحبته والأخ إلى أخيه، وينقل الأطفال شذرات منها إلى الشارع. حتى أن أسعد النديم من شدة غيظه كان يمنع الناس من الذهاب ناحية البستان بأن سلط عليهم كلبه عبد القادر الزناتي والولد جابر الحرامي يقفان في منتصف الطريق بين القرية والبستان، يسألان الناس عن وجهتهم ثم يردونهم إلى القرية. أما نور نفسه فقد كان في أمانٍ تام من بطش أسعد، فقد كان الأخير يخشى أن يمس نور أي أذىً فتشير أصابع الاتهام إليه، كذلك فإن نور كان يمشي في حماية العملاق محمد أبي جلمبو. والغريب في الأمر أنه كما كانت ندية ومنازعة بين نور النديم وعمه أسعد، فقد كانت هناك أيضاً ندية وثأر بائت بين أبي جلمبو وعبد القادر، وصراعٌ على من يستحق لقب فتوة القرية.

ولم يبد لنا نور النديم معارضاً ولا مشجعاً على فكرة التوسط للصلح ما بينه وبين زوجته، تلك السيدة الطيبة واسمها كِرمان، وهي جميلةٌ من جميلات محافظة المنصورة. فسافرنا إليها أربعتنا، نيازي وأنا وزاكي الجمال والجنوبي، ووجدناها تخدمُ جدها لأمها، وكان مريضاً مستلقياً بلا حركةٍ على سريره ينظر إلينا، وللحق فإن مجيء زاكي معنا لم يكن خالص النية تماماً، فقد أراد –وعلمنا مراده – أن يبعد نور نهائياً من طريق المانعة. لأن الشكوك باتت تحوم بكثرةٍ حول زيارات نور لها، حتى مع الفرض أنه كان يراعي مصالحها، فكيف يطمئن له الجلوس عندها في أي وقت يشاء أو يخرج من عندها في أوقات لا يفتح أهل القرية فيها أبوابهم للزائرين، فما بالكم بأرملةٍ حلوةٍ ورجل تربى في المدينة. لكن الأمر وقف عند حدود الشائعات فقط، فلما كان زاكي يرغب في أن يتزوج من المانعة فوق زوجته قريبة أسعد النديم، أراد أن يتأكد من خلو الطريق له، وأراد أن يعيد معنا نور إلى زوجته الأولى. وجلست كِرمان معنا ودهشت كثيراً لمطلبنا، فلم تكن على علمٍ بعودة نور النديم، بل ولم تكن مهتمة من الأصل فتجاهلتْ رغبتنا في

الإصلاح، فقلت لها: «إن نور النديم الذي في قريتنا ليس هو نور الذي تعرفينه وقضيتِ معه عاماً كاملاً، لقد تغير تماماً، أمسى يصاحب الناس ويألف القرية ويطالب عمه في شجاعةٍ يُحسد عليها بكل حقوقه، وقد نال شيئاً منها، ثلاثة أفدنة والبقية تأتي». وبعد محاولات كثيرة لإقناعها دخل علينا الولد ابنها ذو العيون الزرقاء والشعر الأشقر. كان فيه لمحةٌ كبيرة من جمال أمه الشابة، واسترحمناها بالولد، فأخبرتنا أن أسعد النديم كان يرسل إليها مبلغاً شهرياً يعينها على تربية الولد لكنه قد توقف منذ فترة، وحسبنا الفترة فوجدناها توافق مجيء نور إلى القرية. وبات أسعد يجيبها على الهاتف باقتضابٍ ثم يعدها ويخلف ما وعد، وشرع يصرخ فيها لتخاف وتسكت عنه. وروينا لها شيئاً من سيرة نور الجديدة في القرية، فابتسمت لأفكارها خلال ما كنا نحدثها، وبدا أن رأسها قد بدأت تلين قليلاً، فقالت أمهلوني ومشينا من عندها، ثم عادت للاتصال بتليفون أحمد الجنوبي وقالت كلمات قليلة:

- هل تضمنون حماية ولدي من أسعد النديم.
- اطمئني... رتبنا لكل شيء، حتى المنزل الذي ستعيشين فيه مع زوجك وولدك.
- سأحضر خلال يومين، يسعدني أن أتشفى في أسعد النديم وأرى لحظة سقوطه، أما نور فلا أضمن كيف ستكون مشاعري نحوه.
- لا تتعجلي في الحكم... نور الآن هو رجلٌ جديد، بوسعه حمايتك وحماية ولدك... ثم أنني لا أضمن مشاعره أيضاً... نحن نحاول إعادة بناء البيت من بين ركام من الفرقة والشائعات.
- حسناً.... سأدبر لجدي إقامته عند واحدة من خالاتي ثم آتيكم.

وفي طريقه إلى منزله مرَّ زاكي الجمَّال بدوار أسعد النديم، وطلب الإذن في لقاء أسعد فسمح له، وتلقاه أسعد بشيء من التشفي ظناً منه أن زاكي قد جاء يتوسل إليه ليعيد له أسعد زوجته الغضبى، وبدأ في توبيخ زاكي وفرض شروطه فأوقفه زاكي عن تلك اللهجة المتسلطة وأخبره أنه جاء من أجل غرض أخر.

- وما هو الغرض يا زاكي؟
- سأتزوج الثانية، فاسأل قريبتك إن كانت ستعبش معها في نفس الدار أم تبقيها أنت عندك فهي في مقام ابنة أخيك يا حاج أسعد.
- اتجننت يا زاكي! تقول لي هذا الكلام!
- لا يا حاج لا داعي للغلط... بنتكم عندكم وعليكم السلام.

وكانت زوجة الحاج زاكي تتجسس على الحديث وتلطم خديها، وشعرت بالتهديد وبالمهانة لكونها ستصبحُ عالةً أبديةً على دوار عمها أسعد النديم، وكان أسعد يضرب كفاً بكف، ويتعجب مما جرى لأهل قريته الذين رباهم على الطاعة، هل فقدت زعامتك يا أسعد وما عاد الناس يخافونك؟! ولم يقم زاكي بهذه الخطوة إلا حين تأكد من موافقة المانعة، الأرملة الجميلة والثرية، على الزواج منه. وأخبرني أحمد بكلامٍ عجيبٍ دار بينه وبين المانعة وصاحبتها التي تسمي روح في مكتبه، وقد أخبروه أن صاحبنا نور قد اخترع لهم قصةً تفيد بأنه رجلٌ آخر، واسمه حسين منصور الدرغامي، وهي كذبةٌ أقل ما توصف به أنها ذريعة للتنصل من خليلته التي صارت عبئاً عليه ومل منها، فطلبت من أحمد أن يخفي عن زاكي وعن البلدة ما حدث في مكتبه.

وجاءت امرأة نور النديم، حلَّت بقريتنا ظهراً ومعها ولدها فنزلتْ في البيت الذي استأجره لها أحمد، كان بيتاً من طابقين لواحدٍ من أعمامه، وعلى سطحه حجرتان متلاصقتان وحمَّامٌ منفرد. وقضينا السهرة مع نور النديم كعادتنا، وفي طريق عودتنا إلى البيوت فاتحنا نور في الأمر فبدا مذهولاً، وطار كل الحشيش من رأسه واحمرت عيناه أكثر لتنذر بخيبة مساعينا، ولُمنا أنفسنا –أنا وأحمد– بالنظرة وبالزفرة المستسلمة، لكن أحمد ضغط على ذراعي ومشينا بنور إلى بوابة بيته، ثم لمس أحمد الجرس وكانت الزوجة قد تجهزت بكلام كثير ألقته في وجوهنا دفعة واحدة:

- ليكن في معلومك أنني لم أوافق على الرجوع إلا بضمانة أصحابك... لا تتوقع مني أن أعاملك كزوجة، ولا أن نسكن في شقةٍ واحدة أنا وأنت، وإن كان ابني يحمل اسمك والناس

يعرفوننا زوجين فأنت أجنبيٌ عني... بوسعك رؤية ولدك، لكنه سيصعد إليك في غرف السطح حيث ستقيم، كل ما أطمحُ إليه هو تربية ولدي ابن عائلة النديم، وقد وعدني أصحابك أنك ستتحمل هذه المسؤولية، فإن رفضتَ فلسوف أقاضي عائلة النديم واحداً واحداً وأنت على رأسهم من أجل ولدي... وخذ في حسبانك إن كنت تشرب الخمر أو تدخن الحشيش فسوف تقلع عن كل ذلك... مفهوم كلامي؟

وصعدنا به إلى السطح يترنح من السطل، وبعضه من أثر الحديث والمفاجأة. وأقام نور في منزله أسبوعاً كاملاً لا نسمع عنه، فافترضنا أنه مهدَ لطمأنة الزوجة بحديثه الساحر، وبشيء من حكاياته. ووصلنا خبر من السيدة روح أن نور قد خرج من بيته في اليوم التالي لعودة زوجته وابنها وزار منزل المانعة، لكن المانعة قد طردته من على الباب ولم تسمح له بالدخول ولا بالكلام وقالت له:

– نور النديم... أنت كذاااب

وسألتنا السيدة روح متوسلة أن نمنع نوراً من تكرار مثل هذه الزيارة، وفي جمعة ذلك الأسبوع زارني نور النديم في منزلي وقد دار من بيننا حديث له العجب، إذ قال لي:

– أريد أن أرحل عن القرية، ما عاد لي هنا بقاء ولا غاية.
– أتقول ذلك وقد اجتمع شملك بولدك، وصار لك في القرية تاريخٌ وصحبٌ وفدادين تملكها، وقد عشَّمت أهل القرية في بقائك بينهم وقويت قلوبهم على المطالبة بحقوقهم من أسعد النديم، أو تدري كم القضايا التي دخلت إلى مكتب أحمد الجنوبي هذا الأسبوع وكلها كانت ضد أسعد النديم من أهل القرية عن حقوق مسلوبة من زمن بعيد؟ هل يرضيك أن تصيبهم بالخذلان ويتأكد فيك قولُ أسعد النديم وغيره بأنك مجنونٌ لا أكثر ولا أقل؟! هل لديك عالمٌ آخر تكون فيه رجلاً محبوباً وطموحاً وزوجاً ووالداً ومليونيراً... القرية هي دنياك الحلوة وهي جنتك يا نور.

- أنا لست نور النديم، يجب أن تتوقف عن مناداتي بهذا الاسم، لأن الأمور باتت مربكةً وملغزةً حتى بالنسبة إليّ، لم أعد أعرف من أنا على وجه اليقين، ولا أفهم اللعبة التي تلعبانها أنت وصاحبك المحامي من وراء ظهري... ذلك النهار حين أعلمني أحمد بالفدادين التي كسبناها من أسعد النديم كلمني في حضور سكرتيرته مستورة، وأعطاني ورقاً طلب مني أن أوقع عليه باسم نور النديم... وتحرجتُ من مناقشة ذلك على الملأ فوقَّعتُ حيث أشار بسبابته وعشمتُ نفسي في مناقشته على انفرادٍ أو مناقشتك، لكنكما لم تمهلاني، أثقلتما رأسي بالحشيش وبالأحلام العذبة، ثم زججتُما بي في منزلٍ تسكنه زوجة نور النديم الحقيقي وولده، وهذا أكبر من الاحتمال.... يجب أن يتوقف ذلك كله يا صاحبي قبل أن أُجنّ فلست نور النديم أنا ولا عالمه هو عالمي.
- لست نور النديم، وإذاً من تكون؟!!!
- قلت لك توقف عن الادعاء فليس من بيننا ثالث يسمع، وقد بتُّ أشكُ في حقيقة نفسي، في كون حسين منصور شخصية وهمية اخترعتها أنا.
- هي كذلك يا صاحبي... وحين أخبرني الجنوبي بكلامك مع المانعة ظننا أنك ترغب في التنصل منها لأنك مللت، اعتمدتَ على شائعة الجنون التي تحومُ من حولك، وأردت أن تترك المانعة من غير أن تفضحك في القرية، بل وربما شعرتْ هي بالإشفاق عليك وعلى جنونك... هذا مقبول.... ليس أخلاقياً ولكن يمكنني أن أفهمه، لكن لماذا تحاول أن تبيع لنا نفس القصة؟!

وأطرق نور النديم سابحاً في فكره الذاتي كمن نسي أنه ضيفٌ على بيتي، واجتاحني خوف شديد منه ومن عينه الحمراء كالعفاريت، ومن جنونه الذي سوف يرهقنا جميعاً. وكان قد أخرج علبة سجائره وانشغل عنها فأخرجت منها اثنتين أشعلت كلاهما بعود ثقابٍ واحد كما تعود نور النديم أن يفعل مع أصحابه المقربين. ومددت له السيجارة التي كانت من نصيبه،

فتقبلها تلقائياً من دون أن ينظر إلى أصابعي التي قدمتها إليه، وظل مطرقاً زمناً طويلاً، ليس الوقت ما كنت أخشاه ولكن بقاؤه طويلاً مع أفكاره وجنونه، ثم وجودي أنا في مجال ذلك، ما كان لذلك أن يمر بسلام أبداً. ثم لسعته شعلة السيجارة فأفاق من سرحانه، والتفت إليَّ قائلاً:

– هل تحسب يا صاحبي أن بوسعك إخفاء سيد الحكايات في قمقمٍ صغيرٍ مثل قريتكم هذي... فيم كنتَ تُفكر؟ أن تتركني ههنا أعيش صراعاتكم مع غول القرية أسعد النديم ومع عفاريتها، ثم تهجُرَ أنتَ القرية لتعيش حياتي بدلاً مني؟ هل هذا ما تصبون إليه جميعاً أنت والجنوبي ونيازي؟ وربما امرأة نور النديم شريكةٌ معكم في ذلك المكر. أتعرف يا فرحات أسوأ ما وجدتُ في عالم القرية وبين الفلاحين؟ أن الفلاح يحسب الآخرين متفرغين له تماماً، وليس لديهم حياةٌ يحيونها بعيدة عن تصوره، فيطيل الفلاح العشم ويثرثر في الكلام وهو يتوسل إليك بقوله «يا قريبي» أو «يا صاحبي»، والأسوأ أن تكتشف بعد ذلك أنك كنتَ معنياً بأموره أكثر منه شخصياً. وأنك لا تدخر طاقة في إسكات إلحاحه عليك، بينما يجهز هو لك في المشكلة التالية التي سوف تعانيها نيابة عنه! وتجد دائماً عنده نظرة عتابٍ بأنك لم تهتم بمشكلته كما ينبغي، ثم تجد نفسك بعد ذلك تعيش في مشاكله فقط، بينما يحوزُ هو الأرض ويقتني البهائم ويُعَمر في الحياة ببرود. وأنت يا صاحبي قد حقنتني بكل أحقادك نحو أسعد النديم وفررتَ تهيمُ في الموالد، وتستعذبُ الشِعْر والغناء الصوفي والمحبة، ثم تفرغت للكتابة وللفكر، ولسوف تعبر هذه الترعة الضيقة نحو القاهرة لتعيش حياتك الجديدة ككاتبٍ معروف، ثم يعبرها أحمد الجنوبي من بعدك حين يمسي عضواً لمجلس الشعب. وتربح القرية كلها في صراعها مع أسعد النديم، في حين يخسر رجلٌ واحدٌ كل شيء... أنا... أخسر حياتي وأخسر نفسي التي أعرفها.

عند هذا الحد من الكلام تملكني غضب شديد جعلني غير مستعدٍ لسماع المزيد، ولا كلمة واحدة، وطلبتُ منه أن يتوقف عن الكلام والحواديت، أن يذهب لراحة دماغه بين زوجه وولده. لكنه واصل الكلام بصوتٍ أعلى وهو نازلٍ من عندي، حتى خرج إخوتي وأمي من شققهم لما سمعوا صراخه واتهاماته، وكانوا يظنون ألا تحدث أبداً مشكلة بيني وبين صاحبي نور النديم الذي آمنتُ به وبقضيته العادلة ضد عمه. وواصل نور صراخه بصوتٍ أعلى حين وقف تحت العمارة التي تضمني وأهلي، فقال بصوتٍ جهور كأنه يؤذن لاجتماع الناس عليه:

– لا يا فرحات، سأخبر البوليس والنيابة وسأخبر أسعد النديم نفسه... ليس بمقدوركم إخفائي.

واجتمع الناس ثم تفرقوا ليلاً وهو ما زال يهذي حتى بُحَّ صوته، واتصلتُ أخيراً بأحمد ونيازي لينظروا معي في ذلك، لكنه غادر قبل أن يصلا إلى منزلي. وتشاورنا جميعاً فيما نفعله يومها، فأشار أحمد بزيارة نور من الليل والتفاهم معه بهدوء، بينما نيازي رأى أن نتركه ليهدأ ليلة أو ليلتين، فنور النديم كما نعرفه غير مأمون الغضب، ولا حدود لجنونه أو هذيانه، ووافقتُ على رأي نيازي متذكراً لنور طباعه الحادة، وتلك المشاكل التي أثارها في القرية خلال الشهور القليلة التي قضاها بيننا، وقال أحمد خاتماً للحديث: «ولسوف نطمئن عليه يومياً من زوجته».

الحقيقة أن قصة نور التي ابتدعها كانت تثير في نفسي تساؤلات كثيرة. فأنا أعرف عن حسين منصور الملقب بسيد الحكايات على نطاق واسع، وقرأتُ كل قصصه، وكنت مداوماً على الذهاب أسبوعياً لشراء نسخة من المجلة التي كان يكتب فيها، كانوا يرسلون إلى قريتنا نسختين لا أكثر من المجلة، لقلة مبيعاتها عندنا، أصبحت مؤخراً أشتري كلتا النسختين كي لا تعود الأخيرة مع المرتجع، فأُهديها إلى والدي، أو إلى صديقٍ مقرب. وعليَّ أن أُقر بأنه يوجد تشابهٌ كبيرٌ في أسلوب الحكي بين سيد الحكايات وبين صاحبنا نور النديم، بما يشير إلى صداقةٍ قد جمعت بينهما في شبابهما الأول ثم افترقا، أو أن أحدهما ينقل عن الآخر، لكن هذا احتمال بعيد للغاية،

فنور يمنعه غروره من الأخذ أو التقليد عن أي أحد، كما أن نور لم تكن لديه طاقة على كتابة حكاياته، ولا قوة له على التأليف ومجالسة الورق، كان يحكي قصصاً جديدة كل يوم وحكاياته عامرة بالناس ومآسيهم، بينما سيد الحكايات كان يرفل في فانتازيا لا نهائية يسيغها الجميع. وقد تفكرتُ في ذلك كله وأنا ملازمٌ لمنزلي على نصيحة نيازي، لأتجنب الحديث مع الناس في أسباب الشجار بيني وبين نور، وابتعد عن أطنان الشائعات التي سرت في القرية عن ذلك. ومكثنا في بيوتنا وتصفحتُ على عادتي المجلات والجرائد فوق السطح فوجدت مصادفة غريبة للغاية، قرأتُ في صفحة الوفيات وفي الأخبار الفنية بكل المجلات خبر وفاة الكاتب الكبير حسين منصور الدرغامي والملقب بسيد الحكايات، وقد شيعت الجنازة وأقيم سرادق العزاء بين أهله في صعيد مصر، لا بد أنكم قد قرأتم مثلي ذلك الخبر. وحملتُ الجريدة في يدي لا أعرف وجهتي التالية أو ما على فعله بهذه الجريدة. وسمعت أذان العصر يصدح من المسجد الكبير وكنت على مقربة منه، فدلفت ووقفت في صف الصلاة فلما انتهينا من صلاتنا استمهلنا بعدها الشيخ القللي ودعانا إلى حديثٍ قصير.

ولم يَصْدُق الشيخ القللي يوماً في كلمة قصير التي يمثلها بأصابعه ليهون على الناس ما سيلاقون بمجرد أن يبدأ في خطبته، وقد أعمل فينا صوته الجهور وجهله القديم خلال الميكرفون ليُسمع القرية كلها، وتكلم عن عدم السكوت عن ذلك المنكر الذي يمشي في قريتنا وبين ظهرانينا، الذي وجب تغييره باليد واللسان، ولم يطرح خيارات أخرى، وبدا لي في كلامه يُصرّح أكثر مما يُلمِح إلى علاقة نور النديم صاحبي بالمانعة. ووصف البيوت والهيئات والجيران والمواعيد، وقال إن الله سِتيرٌ حليم. وكان نور قد أنهى علاقته تماماً بالمانعة بعد أن طردته. ولم تكن علاقته بالمانعة فاحشةً أبداً كما صورها قللي للناس، ولا المانعة بالمرأة السيئة. ثم إنها باتت في حكم المخطوبة ذلك الوقت لصاحبنا زاكي الجمال. ونهضتُ على الفور أخرس القللي وأشير ناحيته بالجريدة التي كانت في يدي.

– اتق الله يا قللي... كلامك من غير برهان وهو كلام تُجلد عليه أو تُضرب بالرصاص.

- أنا أتكلم في العموم يا شيخ فرحات، ثم ألا يجب ردع الفاحشة والفاحشين؟ هل تعطل حقوق الله محاباة لصاحبك؟ المسلم يا شيخ يقول الحق ولو على صاحبه.
- وأنا أقولها لك في بيت الله وبين عباده وبين يدي القبلة... أنت حمار يا قللي، حمارٌ كما أخبر عنك صاحبي نور النديم أول ما نزل القرية ولم نصدقه... ويا قللي أخبر أسعد النديم أنه لن ينال صاحبي بسوءٍ مهما جرى بيننا من خلاف، ولو قطّع لحمي نور وباعه سيظل صاحبي يا بلد بهايم.

ما الذي فعلته؟! هل حقاً تكلمت بهذي اللهجة الحادة في بيت الله؟ خفت على صاحبي ولم أنتظر ريثما يلوكُ الناس في القرية كلام القللي ويتسوكون به، بل هممتُ مباشرة إلى منزل صاحبي أصالحه. بدا لي واضحاً أن أسعد قد شرع في تنفيذ انتقامه بعد مكرٍ وحِلمٍ طويل، وكان علينا أن نتكاتف أنا وصحبي تلك الأيام أكثر من غيرها، فلما طرقتُ الباب خرجت إليَّ زوجته الطيبة كرمان بنت المنصورة، فطلبت منها أن تصعدني إلى صاحبي في غرفة السطح فقالت:

- لا يكلم نور أحداً سوى نفسه ولا يجيب الطارق على باب حجرته، نسمع صراخه من خلف الباب المغلق دونه منذ أيام، يا أستاذ ربما ليس هذا هو الوقت المناسب للحديث.

وناولتها الجريدة التي كانت في يدي تلقائياً وقلت لها مرريها إليه ولو من خصاص النافذة، وطلبتُ منها أن تقتحم عليه حجرته إن اضطرتها الظروف إلى ذلك، فأومأت في حزنٍ وقلقٍ وتناولت الجريدة. وقلتُ لنفسي: في فجر الغد سوف أعود إلى صاحبي ونلتقي كلنا، لكن الفجر الذي جاءنا كان يحمل أخباراً مفجعة فتلقينا الأخبار واحداً تلو الأخر، كان أولها أن نور النديم كان قد ترك القرية، جمع حقيبة ملابسه واستأذن زوجته في أسبوعٍ يقضيه في القاهرة. قالت إنه كان رقيقاً للغاية وقبَّل الولد، ووعد بأن يعودَ وأن يعيد حقه إليه ثم قالت في كسوف: «حتى أنه قبلني في جبيني». وسألتها إن كانت قد أعطته الجريدة فقالت إن الجريدة كانت السبب في أن يفتح

باب حجرته، وظل ساهماً بين ورقها طوال الليل حتى جمع ملابسه ورحل. وإذاً فقد هرب صاحبي لدى تأزم الأمور، دفعته هشاشته الفطرية إلى الهرب لا إلى المواجهة، وما الجديد في ذلك؟! إنها سيرة حياته المتصلة من هروبٍ إلى هروب. ولم أعول على عودته مرة ثانية، لأنني بقيتُ مع أهل قريتي كلنا نتجرع الويلات التي صبها علينا أسعد تباعاً. وجاءتنا أول لفحات الجحيم من ناحية بيت المانعة، وقد كان أسعد يخبز لها مصيرها منذ الليلة الفائتة وربما من قبل ذلك، وعلمنا أن الناس قد داهموا بيتها بعد الفجر ووجدوا نور النديم –كما زعموا– عندها، وشهد بذلك عبد القادر الزناتي ابن عمها وجابر الحرامي، فكانا أول من داهم البيت وادعى كلاهما أن نور قد فرَّ منهما قفزاً من فوق الأسطح، حتى غاب عن القرية، وصدقهما الناس وكرر السفهاء كلامهما وأقسموا عليه، ولفت الشائعات القرية ألف مرة وكانت كل مرة تأتينا بكلام جديدٍ سافرٍ وفي غاية الفحش.

وفي أذان العصر من ذلك اليوم مر بي كل من أحمد الجنوبي وزاكي الجمال، وقد كان زاكي في حال شديدة من الهياج ويرغب في قتل نور النديم وقتل المانعة معاً وبسكين واحد. حتى بعد أن أكدتُ له كذب الشائعات وكون نور قضي الليلة الفائتة كلها مع زوجته وولده وسافر عند الفجر من هناك. لكن زاكي لم تكن تعنيه الحقيقة بقدر ما كان راغباً في أن يمسح الفضيحة عن اسمه بوصف المانعة كانت خطيبة له. وزرنا كلنا المانعة فوجدناها وحيدة تبكي في منتصف بيتها تنوح وتلطم خديها، وكان كل شيء في بيتها مبعثراً أو مكسراً واختفت من بيتها أشياء كثيرة قد سرقها الناس. وتوسلت المسكينة إلينا بضعف حالها أن نجمع شيئاً من هذا الخراب لتعود إلى سابق حياتها، بل وربما توسلت إلينا مراراً أن نقتلها. ولم يرحم زاكي شيئاً من نواحها، بل سحبها بقوة من شعرها الطويل إلى خارج البيت لكي يَلقى شهوداً على ما سوف يفعله بها، ثم أوجعها ضرباً وركلاً وصفعاً وبصقاً عليها وفي وجهها، لم يقدر واحد منا على أن يحول بينه وبينها، كان يتملص من أيدينا ويعد بالهدوء، ثم يعود إليها، وكان ضربه لها يشبه ضرب الحي للميت، فتبرأ منها ومن خطبتها، وعلى ما أذكر فإنه ظل يرددُ على مسمعٍ من الناس: «أنت طالق... أنت طالق...» رغم أنه لم يكن عقد عليها ولا أهدًاها

خاتماً حتى! وكان من الواضح أن المانعة لم تأبه لما يحدث لها لأنها قد تحولت عن البكاء، وانغمست في هيستريا عارمة من الضحك وجلستْ تذكر اسم صاحبنا الغائب نور كأنها تراه وتنادي عليه.

بعد ذلك خرج علينا أسعد النديم كعملاقٍ أسطوري يمشي في الشوارع ويحطم بيوت القرية بأصابعه، ثم يصرخ فينا لنهرب من أمامه. فقد استخدم كل نفوذه وسلطاته في التنكيل بالقرية، كشف عن معايبنا وأخطائنا وجلس ينهشنا منها. استخدم كامل نفوذه وأقاربه الذين وظفهم من قبلُ في الشرطة وفي مجلس القرية والكهرباء والضرائب وغيرها، ومشت الكراكات والجرارات في قريتنا تعلن عن غضب أسعد النديم. فهدموا المصاطب التي كانت تملأ الشوارع آنذاك وكان الناس يجلسون عليها للحكايات، وهدموا الشرفات البارزة التي كانت تجمع أهل البيت الواحد، ونفذوا كل قرارات الهدم المؤجلة من سنواتٍ في عصر يومٍ واحد، فحيثما سِرتَ في القرية رأيتَ خراباً، عقاباً لنا على الإنصات إلى حواديت نور النديم. وشرع أسعد في هدم الأكواخ المبنية في الغيطان، واتجه خصيصاً إلى الكوخ الذي شهد أغلب سهراتنا وفضح أسعد بين الناس، لكن أحمد الجنوبي تقدم إلى لجنة الهدم بتصريح بإقامة هذا الكوخ لأن البستان كان مرخصاً بوصفه "مشتل زهور"، وهي حيلة قانونية لجأ إليها أحمد الجنوبي منذ فترة تحسباً لذلك اليوم، ومشتْ اللجنة تهدم أكواخاً وبيوتاً أخرى. القضايا بين الناس والدولة كانت منظورة في المحاكم ما زالت، لكن أسعد قد استصدر قرارات إدارية من المحافظة بتنفيذ كل الإزالات المؤجلة وتغريم أصحابها فكان ما يسمونه، موتٌ وخرابٌ في الديار، وتعقب البوليس الفارين من التجنيد، وعرفهم بالاسم وساقطي القيد، وهاجموا سهرات الحشيش. كان طارق بك الشاذلي مرغماً على التنفيذ بلا حيلةٍ، ومعه قواتٌ إضافية من مديرية الأمن. وسألَنا طارق بك عن صاحبنا نور فطأطأنا رؤوسنا بحسرةٍ كبيرة، كذلك فعلنا حين أوصدتْ المحلات وسُكِّرتْ أبوابها بالشمع الأحمر، وطارت الرسائل من مصلحة الضرائب تصعق الناس بأرقام فلكية وتنذرهم بالثبور، حتى أمسى كل بيتٍ من القرية يرقد على حزنٍ عظيم، ويخرج من خصاصه نواحٌ يدمي القلوب. وفي النهاية توجه أسعد النديم في نفرٍ من

أتباعه واستولوا على قطعة الأرض التي قد نالها نور بأمرٍ من المحكمة. فحازها أسعد من جديد وأركب عليها فلاحين من شيعته. وسألت أحمد إن كان ذلك ممكنا فقال بحسرة:

- ممكن جداً... الأرض لحائزها إن ظهر عليها بمظهر الملاك... وأسعد معه شهود وجنود. من ذا يقاضيه في ذلك أو يجرؤ على مناصبته العداء بعد ما فعله بالقرية... لعلمك أسعد لا يمتلك في قريتنا كلها أكثر من خمسة عشر فداناً بعقود سليمة، أما البقية نالها بالغصب وبوضع اليد وشهادة الشهود... كانت الأرض في أمسِّ الحاجة إلى صاحبها ليقف دون اغتصابها من قبل عمه ولكن أين هو؟!!!

قلتُ لكم لم نعول أبداً على عودة نور النديم من جديد، وزهدنا في ذلك، لكنه عاد بعد أسبوع الجحيم الذي قضيناه من غيره، عاد وقد برأ من جنونه ليبدأ في جنون جديد... حين عاد ورأى الخراب يلامس كل شيء أمسك نور النديم بمسدسٍ لا نعرف من أين أتى به، وضرب طلقات كثيرة في شوارع القرية وهو يصيح أنا نور النديم... أنا نور النديم.

أبو جلمبو

اسمه محمد أبو جلمبو، وهو أحد الأسباب المهمة والغريبة التي دفعت نور النديم لبناء قرية جديدة على أطراف قريتنا، هذه القرية أسماها الناس بـ«عزبة المجنون»، وهي ليست قرية على الوهم المعروف للكلمة، إنما هي ثلاثة أفدنة صمَّمَ نور النديم مبانيها وقسم شوارعها، ثم عهد ببنائها إلى أبي جلمبو وإخوته. كان أبو جلمبو في الزمن السابق موسراً وبنَّاءً معروفاً، لكن حرفته قد تخلى عنها الزمن بشكل فجٍ ومفاجئ، لأن صناعته كانت بناء الدور بالطوب النيء كما يسمونه عندنا في الأرياف، لأنه يصبح قالباً جاهزاً للبناء في حرارة الشمس وحدها، ولأنه يبوش سريعاً في الماء. وكان محمد أبو جلمبو قد ورث الحرفة عن أبيه، وورط فيها إخوته الستة وأبناءهم ونساءهم. وكان هو وأهله جميعاً يتسلمون قطعة الأرض سافرة من أصاحبها، ويبدأون في عجن الطين ورش التبن فوقه وصب القوالب، ثم يجتمعون لوضع الأساسات السميكة من قوالب متلاحمة. بعد ذلك يتقابلون كل منهم عند حافة جدار يرص قوالبه، وتناوله لحمة الطين الطري واحدةٌ من النساء، تحملها إليه من المعجنة الكبيرة التي في الخارج. ويهندس محمد أبو جلمبو وضع السلالم في بهو الدار الفلاحي ويدبر للفراغ المتروك من تحت السلم الصاعد إلى السطح، هل يصلح ذلك الفراغ للفرن أم يصلح فقط سقفاً للكنيف، أو ربما تشغله ركنة يضع فيها صاحب الدار زيرين وقفصين للحمام. ثم يقرر أبو جلمبو أنسب مكانٍ لزريبة البهائم. إن كانت قطعة الأرض التي يبنون عليها واسعة فإن أبو جلمبو يفصل الزريبة عن بقية الدار، ثم يعود فيصلهما بسقف يظلل الممشى الذي بينهما، ويجمع ذلك السقف من ركام الأخشاب القديمة ومن جذوع الشجر المقطعة وحزم الحطب. أما إن كانت الدار ضيقة وصاحبها رجلٌ فقير فإن أبو جلمبو كان يشغل المساحات بأسلوب غاية في العملية والجمال معاً. يشق نوافذ في

الجدران أو يصنع فيها تجاويف تتسع للملابس والأنية، وكذلك الكتب للولد الذي ربما يفلح في المدرسة. ويملأ البنَّاء أركان البيت بالمصاطب لمجلس الزائر نهاراً وللنوم من فوقها ليلاً. ويضع عشش الطيور على السطح متلاصقةً ومائلة إلى بعضها البعض، كي لا يتبعثر الحب في أماكن كثيرة من السطح، ولكي تجمع صاحبة الدار بيض الطيور بيسرٍ من أماكن متقاربة. ويستخدم في البناء والهندسة كل ما تمنحه الأرض والبهائم من البوص والحطب والجلَّة في رسم البيت الصغير، حتى يبدو في النهاية من خارجه مثل فلاحةٍ حلوة تبتسم. وفي البيوت الواسعة أبو جلمبو كان يرسم الشرفة الخارجية لاستقبال ضيوف النهار وعلية الزوار، ويهتم جداً باستقامة عروق الأسقف الخشبية الطويلة، ويزخرف الجدران بطاقاتٍ مدورة ومثلثة لاستجلاب النور والهواء، وهي التي يستريح فيها الحَمَام ويزوم، وتطل قاعات الدار كلها على بهوٍ فسيح ومدور يجمع أهل الدار للسمر وللطعام. ونوافذ الدوار لابد أن تكون عالية ومشرفة على الفناء مثل العيون الكحيلة، أهدابها أعوادٌ رفيعة من الحديد المتجاور على مسافات قريبة وأحداقها هي صواني القلال.

وكان أبو جلمبو يترك لأهله بناء المذاود التي تأكل منها البهائم. وكذلك طلاء المنزل من الخارج، وكان الأهل يرسمون الكعبة وجملاً راكبٌ عليه الحاج، ودعوات بالغفران والبراءة من الذنوب فطرية للغاية، كأنها كتبت بيد طفلٍ صغير لا يحسن الكتابة ولا الرسم. عندئذ يتلقى أبو جلمبو بقية أجره وأجرة أهله من صاحب الدار، وكان الناس يقفون في انتظاره ثلاثة أو أربعة رجال لعقد اتفاقات جديدة لبناء دور أو ترميمها، أو بناء قاعاتٍ علوية لزواج الأبناء، فكان لا يخلو هو ولا أهله من العمل أبداً ولا من البهجة الموسرة وكان اسمه المعلم محمد أبو جلمبو بمليء الفم.

وحين تغيرت الأزمان اشتغل أبو جلمبو عامل خرسانة خلف مقاولي المسلح، يحمل الأسمنت من الطوابق السفلى، ويترقى السلالم والسقالات حتى يصبها أمام المعلم بلا رسم ولا هندسة، وكان المعلم يساوي الإسمنت ويلضم الحديد، وثمة معلم آخر يرص القوالب فوق الجدران وآخر يفك

الخشب... وأبو جلمبو من خلفه يسمع الكلام ويتلقى الأوامر في صمتٍ ونفاذ صبر. ما حدث أن الفلاح ما عاد يحتاج إلى الدور الطينية، وما عاد فقيراً يتوسل إلى الطبيعة أن تمنحه طيناً وقشاً يؤويه.

الفلاح سافر إلى الخليج وكسب الريالات، الفلاح تعلم وتوظف وعدَّ الجنيهات الكثيرة هو وأولاده ففكر في الخلود، في خرسانة قوية تمكنهُ من الأرض مثل الفراعين وقوم عاد. ويقول أبو جلمبو: «إن الأمر ليس من الثراء في شيء، بل من الخيبة وغضب الله على الناس، صب الله عليهم إسمنتاً من السماء، وابتلاهم بالجدران التي تلسعهم من الحر صيفاً وتلدغهم بالبرد شتاءً، وتقصي الناس عن بعضهم البعض في شققٍ منفصلة، فما عاد أحدهم يسمع إلى شكاية أخيه ولا إلى قرصة بطنه من الجوع». ما كان أبو جلمبو ليصدق أن الزمان سيلحق به هذا الخزي وينزل به إلى درجة الصبيان في مهنة البناء، ويشتت أهله في حرفٍ مختلفة، فمنهم من ركب التوكتوك، ومنهم من فتح بقالة ومن يعمل صبياً لسباك. ورغم أن الخرسانة كانت تلتهب انتشاراً عاماً بعد عام في القرية، إلا أنه قد خدع نفسه وطمأنها بأن الناس لا يمكنهم الاستغناء عن بيوت الطين، ولا التخلي عن قرويتهم مهما حدث، لكن في السنوات الفائتة بدأ الرزق يشح، واقتصر عمله على بناء عششٍ طينية عند رؤوس الغيطان، وبناني حمام فوق سلخة السقف المسلح، أو ترميم بيوت شديدة الفقر يكاد يتصدق على أهلها بأجرة يديه. ثم جاء اليوم الذي لم يستدعه فيه فردٌ من أهل القرية أو من خارجها لبناء أو لترميم أي شيء. فخرج لأول مرة في السادسة صباحاً يجاور أنفار الخرسانة الجالسين من تحت سور المدرسة الابتدائية، في انتظار مرور عربة المقاول بهم فتختار منهم من يحمل القصعة على كتفيه لقاء قروشٍ تُلقى إليه في أذان المغرب. مأساة كهذي كان من شأنها أن تنتهي بهدوءٍ من غير أن نسمع لآهاتها الموجعة ولا لصرخاتها، لولا أن كان محمد أبو جلمبو نفسه رجلاً يصعب إخفاؤه. فهو ضخم الجثة بشكلٍ لا يصدق، كل الناس قصارٌ وهلافيت تحت منكبيه، ولم يتطلع أبداً إلى رأسٍ أعلى من رأسه، وهو قوي يكسر رقبة الثور العفيّ بيديه المجردتين، وتلقائياً يعتدل الرجال في

مجالسهم إن مرَّ بهم ملقياً السلام بصوته الجهوري. وعلي عكس كل أنفار الخرسانة، لم يكن ينتظر أن يقع الاختيار عليه من المعلم، بل كان يصعد من تلقاء نفسه إلى ظهر السيارة، وينظر إليه المعلم في تسليمٍ ويعد أنفاراً آخرين غيره. فبرغم قوة أبو جلمبو لم يكن معلمو الخرسانة حريصين عليه لأنه كان بطيئاً وثرثاراً، يشغل الناس عن أعمالهم بكلامه عن البيوت الطينية والعمدان والكَمَر، ويحاول أن يبدي رأيه في كل شيء، كذلك فإن وجهه كان يشي دائماً بغضبٍ مكتومٍ يخشى كل أهل القرية من انفلاته ناحية أحدهم. ولكن هل جربت القرية غضب أبي جلمبو من قبل؟ في الحقيقة لقد جربته مراتٍ قليلة في معاركه ذائعة الصيت مع غريمه ونده في القوة عبد القادر الزناتي سواق الحاج أسعد. كما أخبرتكم فإن أبا جلمبو كان زعلان من الدنيا، وكان يرغب في أن يصب غضبه على أي أحد أو في أي شيء. ذات مرة أخبره واحدٌ من الناس أنك يا أبو جلمبو قريب الشبه من وصف سيدنا عمر بن الخطاب من حيث الطول وحمرة الوجه وحجم الكف. فتلقفها منه أبو جلمبو وقرر أن يبدو تماماً على الهيئة التي يظهر فيها سيدنا عمر رضي الله عنه في خيالات خطيب الجمعة وكلام العلماء. فأرسل لحيته وقصَّرَ جلبابه، ومشى يخطب في الناس بذراعه الطويلة، حيثما مر على دكانٍ كان يقول: «اتقوا الله في الميزان، من غشنا فليس منا»، ولم ينج من نصائحه حتى الأصوليون أصحاب اللحى السائحة والمحناة إن بدا على أحدهم شبهة التورط في حرامٍ كبر أم صغر. وخافه الناس وابتسموا لنصائحه ريثما يحل بعيداً عنهم، ثم ركبه الغرور فشرع يكلم الناس عن سيد القرية أسعد النديم، وعن ظلمه وتقريبه لذويه وأهله، وسخائه عليهم بالوظائف الحكومية، فأمر أسعد النديم بعض كلابه بالتعرض لأبي جلمبو، وكان على رأسهم عبد القادر الزناتي. فالتقوا به في شوارع مولد سيدي شبل، وكان الطبل والزمر عاملان على غايتهما، وكان منادي السيرك يستجلب النظارة من الشوارع بالحديث عن الحواة والوحوش، وفرقعة البمب صادرة من لوح النيشان متتالية، وكذلك من مدفع الحديد. وسخروا من أبي جلمبو وهو يحمل كيس الحمص في كفه ويقلب رأسه بين الناس، وكان ذهابه إلى المولد

لغرضٍ آخر هو أن يغمز المتحرشين في ظهورهم فيسقطهم على وجوههم ويدهسهم الجميع. ونادوا عليه متحدينه في تحريك أثقال المدفع، فمر أبو جلمبو بطفولةٍ بين الناس، وظل يُحمّلُ المدفع بالأثقال ويفرقع البمبة، حتى تفرَّغَ أهل المولد لمشاهدته ونسوا كل شيء سواه، وتوقف ساعتها حتى الذِكرُ في الخيام. ورأي عبد القادر ذلك فتملكه الغيظ فرفع ثقلاً من أثقال المدفع أراد أن يهوي به على رأس أبي جلمبو فتلقفه الأخير بردة فعلٍ غريزية، وحمل عبد القادر فألقى به ناحية الطريق، وهلك في ذلك عيالٌ صغارٌ ونسوةٌ قصار، ثم تصدي كلٌ منهما للآخر بينما أصوات اللكمات والركلات صنعت إيقاعاً في المولد تمايل عليه الذاكرون، وجرح كلٌ منهما غريمه وأعياه، ثم قام أبو جلمبو بحركة أخيرة فرفع عبد القادر بيده من على الأرض، ووضعه فوق مدفع الأثقال ودفعه ففرقع البمبة، ولم يجرؤ واحدٌ من شلة عبد القادر على النظر ناحية أبي جلمبو، حتى عسكري البوليس المكلف بحماية المولد تشاغل بالرَّمْح وراء بنتٍ حرامية سرقت حبة بقلاوة وجرت. أما ملحمته الثانية فكانت مع نفس الأشخاص ولنفس الأسباب، لكن عبد القادر تلك المرة اتبع استراتيجية جديدة وهي أن يصل إليه غريمه منهكاً تماماً. ووقف رجال عبد القادر على نواصي الطرق التي يألفها أبو جلمبو، وتجهزوا بالعصي وبالمطاوي فكانوا يهجمون على أبي جلمبو كلهم حتى أحدثوا فيه جروحاً عظيمة، بينما أهل القرية كانوا يحملقون من وراء الخصاص، فإن تغلب أبو جلمبو على تلك العصبة هاجمه في حارة أخرى رجالٌ كثيرون وكالوا له وكال لهم. وبرغم كل ما تحمله من كدمات وطعنات ظل أبو جلمبو ماشياً نحو بيته يسيل منه الدم ويوشك أن تفيض منه الروح. عندئذٍ قابله عبد القادر متبجحاً ومتباهياً وجره للعراك الأخير الذي انتصر فيه عبد القادر بالطبع، وحمل أبا جلمبو وألقاه في ترعتنا الخضراء. ولبث في المستشفى شهراً يعالج من جروحٍ قاتلة، ولدى تعافيه لفق له أسعد النديم تهمة ضربٍ وجهز الشهود والتقارير الطبية، فخرج من المستشفى إلى السجن، من بابٍ إلى باب ليمكث في الحبس عاماً تاماً، فخرج بعده وهو شاعرٌ بظلم الدنيا. وقد منحه الفراغ وقتاً ليتفلسف

من غير سابقة حفظٍ ولا فهم، فمشى في القرية غضبان تداخله أسئلةٌ وجودية لا يفقه في تسميتها. حتى إذا مرَّ على البستان ذات مرة، ومازحنا أبو جلمبو لمحبة واحترام يكنهما لنا من دون خلق الله، لكنه لم يكن قد التقى بنور النديم من قبل، إذ ظهر نور في القرية خلال الأشهر الأخيرة لحبس أبي جلمبو. وجلس أبو جلمبو من بيننا، وظل يستزيد من كلام نور النديم وتمشى معه ناحية الترعة، لقد سمَّى له نور النديم أحزانه التي لا يفهمها كأنما فيلسوفٌ مبتدئ قابل بالصدفة زرادشت أو كونفوشيوس في طريقه، فلزمه أبو جلمبو ومشى في حراسة معلمه، فصار يتبعه إلى المشاوير التي لا يأمن عليه فيها الظلام ولا طول الطريق. وقد أرسلته الأقدار في أوانه المناسب، لأن المشاكل قد بدأت في الاحتدام الشديد بين أسعد وابن أخيه، وحاول أسعد أن يمنع الناس من لقاء نور في البستان، فوقف لهم عبد القادر ورجاله بين القرية والبستان يردونهم على أعقابهم. ولكن يبدو أن تمثل محمد أبو جلمبو بشخصية العظيم عمر بن الخطاب، وحتى من دون وعي منه لفلسفة الفاروق العظيمة، قد أهالت على أبي جلمبو بركاتٍ من المحبة كثيرة، فما زلنا في عزٍ ومنعةٍ منذ أن لزم أبو جلمبو ظهر نور النديم، وقد تحاشانا عبد القادر وزبانيته. وقد كان أبو جلمبو يحفظ لنور ورفاقه مقاماً عالياً، فما كان يجالسنا أبداً، بل يقعي عند باب الكوخ مراقباً للطريق، فيحمينا من المتطفلين الذين تجذبهم إلينا الضحكات الصادرة من الكوخ، أو لتحذيرنا مبكراً إذا رأي سيارة البوليس اقتربت. وما زال بنا طارق الشاذلي حتى تَمَرَّنَّا كيف وأين نخفي آثار الحشيش دون أن نرتبك. وبدأ جلوس البستان يتزايدون يوماً عن يوم، ولا يخفى عليكم أن كثيراً من شلة شوقي العبد ما كانوا مهتمين بحواديت نور النديم بقدر اهتمامهم بأملاكه وميراثه الذي سيتسلمه من عمه ذات يوم، وهي للحق أملاك كثيرة تحتاج إلى من يبيع ويشتري ومن يبني ومن يزرع ومن يأخذ عمولة للوساطة. وكان نور يوكل أحمد الجنوبي في كل كبيرة وصغيرة ولا يشغل رأسه بشي من حديث الأموال والصفقات، كان كمن يحتقر الفلوس وأصحابها فينفخ على كلامهم الدخان ليخفيه، وبعض هذا الدخان كان يصل إلى أبي جلمبو القابع في

الخارج. يصله من خصاص الباب والنافذة فيتنشقه أبو جلمبو، ويسرح في ذكرياته عن الأيام التي كان فيها مرفوع الرأس، مهندساً لمساكن القرية كلها، موفور المال. ويحمله الدخان على الانبساط أكثر، فيميل برأسه على الباب ليستمع إلى شيء من حديثنا، حتى إذا تملكه الفضول والشوق للفضفضة دفع بيده الباب، ووقف طويلاً في فراغه متنسماً للدخان، وقال بلسان طيب: «مساء الخير يا محترمون»، فكنا نفسح له ليقول كلامه الذي يفاتحنا فيه كل مرة بجملة: «بذمتكم يا محترمون ألم تفتقدوا عيشة البيوت الطينية؟ هل أنتم مرتاحون في جوف هذه الخرسانة أم أنكم تكذبون على أنفسكم؟!»، ثم يبدأ أبو جلمبو في سرد حكاياته تباعاً. عندئذٍ كان نور يبتسم له ويربت على الفراغ البسيط الذي إلى جانبه، فيقوم إليه أبو جلمبو متحشراً بين الجلوس وأليفاً للغاية، عندئذٍ كان نور يلقمه قطعةً سمينةً من الحلم، فيقول له: «يوماً ما يا جلمبو سأجعلك تبني قرية كاملة على مزاجك، فقط استعد للحظة البدء في العمل». وكان الجالسون برغم سُطلِهم يعجبون من كلام نور النديم ويحسبونه هذياناً، لكن يا ليتهم قد أخذوا كلامه على محمل الجد من البداية، إذاً لما حدث ما حدث.

- معلم أبو جلمبو... هل تمانع في بعض الأسئلة؟
- من أجل خاطر سيدي نور لا أمانع أبداً.
- ما هي حرفتك؟
- أنا حارس على القرية حتى يعود سيدي.
- لكن ألستَ أنت بانيها؟
- أنا وسيدي نور، كانت يده بيدي طوال فترة البناء، وحتى وجدوا جلبابه عند المصرف.
- متي عزم نور النديم على بناء هذه القرية، ولماذا؟
- أما الكلام عنها فكان منذ البداية، كان يسميها طوبيا.
- تقصد يوتوبيا؟
- مضبوط، لكن بدأ التنفيذ مباشرة بعد عودته من القاهرة.
- كلمني عن ذلك بشيء من التفصيل

حين عاد نور النديم من القاهرة وجد القرية كلها في حالٍ عظيمة من الحزن، وكان الناس يوصدون في وجهه الأبواب وينعتونه بأسوأ الأوصاف، حتى يئِس سيدي من أن يرد عليه أحدهم السلام، لقد تركهم في وقت حاجتهم إليه، فحتي أصدقاؤه المقربون ابتعدوا عنه ولم يجالسوه. وعاد إلى منزله إلى حيث زوجته وولده، فوجدها مذعورة تخشى من بطش أسعد النديم بها وبولدها، بعد أن أذاق بطشه للقرية فاحتضنها نور وطمأنها، وكانت قد جمعت ملابسها وملابس ابنها وتجهزت للرحيل في الليل. لكن نور خيَّرها بين الذهاب وبين البقاء معه، فسألته عما ينوي فعله، فقال سيدي: «سآخذ حقي وحقك»، فقالت الزوجة الطيبة: «وأنا معك»، حينئذ أخرجت السيدة مسدساً من حقيبتها وأعطته إلى سيدي قالت: «هذا المسدس نزعتُه من يدك حين خرجتَ للقاء عمك منذ خمس سنوات ولم تعد، خذه معك، لقد نجح أسعد في قتلك مرة فلا تجعله ينجح في الثانية».

- قالت له ذلك؟ وأنت من حكى لك؟
- سيدي نور، فلم يكن له جليس غيري بعد أن عاد، وكما تعلم فهو يحب الكلام والحكايات.
- وبعد؟
- خرج سيدي نور يطلق الرصاص في شوارع القرية ويكرر: «أنا نور النديم... أنا نور النديم»، فتبعته أنا وإخوتي الستة وعيالنا إلى الأرض التي غصبها منه عمه، وحاولنا إخراج الفلاحين الراكبين عليها بالذوق أولاً لكن سيدي تعجل وأطلق الرصاص ففروا جميعاً، وأمرني سيدي بالبدء مباشرة في صب القوالب وبناء الجدران وأعطاني مبلغاً من المال للعمالة ومواد البناء. وجاءتنا سيارة البوليس مبكرة في صباح اليوم التالي، وكنا قد بدأنا بالفعل في التنفيذ، فمشى إلينا طارق بك الشاذلي وحده وأبعد عساكره، ثم وقف يتحدث مع نور النديم حديثاً طويلاً...
- خيراً... يا سيادة العقيد؟

- اعتداءٌ على الفلاحين وطردهم من الأرض التي كانوا يزرعونها، وتبوير للأرض الزراعية كما أرى.
- وقال نور النديم في هدوء يحسد عليه:
- كل هذا الكلام مردودٌ عليه يا سيادة العقيد، فالأرض أرضي وهذا إثبات شخصيتي –وأخرج له جواز سفر عليه اسمه– وأنا لم أعتدِ على أحد، أطلقتُ أعيرة في الهواء ففروا، ومسدسي هذا مرخص... والأرض لحائزها، وقد حزتها بقرار محكمة وبوقفتي الآن عليها كما تشهد ويشهد رجالك. وأرجو أن تحرر ذلك في محضر... أما عن قضية التبوير فالأرض ضمن الكاردون منذ أكثر من عام، وتستطيع التأكد من التخطيط العمراني ومن مهندس التنظيم.

وقضى معنا طارق بك نصف النهار حتى تحقق من كلام سيدي نور ثم انصرف، وكان أمر هذا الرجل عجيباً عندي دائماً، فبالرغم من محاولته لمداهمة الكوخ كذا مرة إلا أنني كنت أقعي أمام الكوخ، وأراه يأتي متلكئاً كمن يحذرني من وجوده لأدخل على الفور وأنبه الجالسين، في ظني أنه كان يحب الأستاذ أحمد الجنوبي ويحب أن يجامله. بعد ذلك خلال حملة أسعد النديم على القرية كنتُ أرى طارق بك يقف في صف الناس، وأرسل خفيرين لحراسة امرأة نور النديم ليطمئنها. وإذا سألتَ عنه يا أخي يقولون لك ضابط مباحث ثقيل الدم لا يرحم. لكنه حين تأكد من صحة الورق لدى سيدي نور غادرنا وهو مهموم، ما جعل سيدي نور يظن به الشرور ويحسبه على فريق أسعد النديم.

- وأنت ماذا ترى؟
- والله ما أنا عارف، شيء محير، لكن كما أخبرتك فهو يُقدِّر الأستاذ أحمد الجنوبي.
- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك شرعنا في بناء القرية، وفكرة القرية لدى سيدي نور كانت أن نبني داراً لكل عائلة من عائلات القرية، يتزاورون فيه ويذكرون الحكايات القديمة، بلا كهرباء، بلا مواسير مياه، كما كان أجدادنا يجلسون للكلام من دون تلفاز حتى. كان يقول إن المدينة تورث الإنسان الكآبة، لأنها تجعله يعيش بمفرده ويفكر أكثر من اللازم في نفسه وما يرضيها، وما يجعلها أكثر استقلالية، حتى يجد نفسه أغلق الباب دون كل عالمه، لذلك ترى أهل المدن بعد الخروج على المعاش ينزوون جنب الجدران وفي المقاهي. ولإن غدت قريتنا مدينة فسوف يكون ذلك عسيراً على الفلاح الذي مازال يزرع، وعلى أخيه الفلاح الموظف، سيتباعدان وتخفت الصلة بين الأبناء حتى تذوي، فإن بنينا لهم داراً لا يتعاركون على ميراثها فسيلتقون فيها بمودة، لا يمكن أن نفاجئ قريتنا بمدينة شاملة تقطع أوصالها وتفرق بين الأخ وأخيه. كما أن الدور المتراصة في قريتنا الجديدة ستشهد على الناس بالوفاء أو بالتقصير، فالدار التي ستظل مفتوحة بتزاور أهلها ستعيب على الدار المغلقة، وسيخجل الناس من ترك بيوت عائلاتهم ساكتة كالمقابر. تموت العائلات إذا ماتت الكلمات. حين يصنع كلٌ منا حكايةً منفصلة لا تضم أهله معه... هذه القرية بنيت للحكايات لا أكثر، بوسع أسعد النديم أن يهدم المصاطب أو الشرفات، لكن ليس بوسعه أن يهدم حكاية يتردد عليها أهلها كل حين ليتذاكرونها، وبعد زمان سيفرح أحفاد كل عائلة أن كان لهم بيتٌ قديمٌ في القرية لأن ذلك سيخبر أنهم من أولاد الأصول.
- سامحني يا معلم محمد، هذا كلام غاية في المثالية.... ليس بوسعي أن أصدق أن إنساناً عاش بيننا على هذه الأرض بهذا التسامح.

- لأنك لم تقابله، سيدي نور غلبان أكثر مما تتصور، غير بالكٍ على الدنيا مثلنا. وهل من مصادفة أنه كان يرى الشياطين والملائكة والناس يصدقون أنه يراهم، وهل من فراغ أن الذين اجتمعوا حوله كانوا من الطيبين أولاد الأصول.
- والله اجتمع له هؤلاء وهؤلاء.
- لكن هو اختار صحبة الطيبين وهذا هو الأهم.
- وكلهم قالوا عنه كلاماً....
- لا تصدق كلمة سوء عن سيدي نور.... ماذا يتقولون عليه؟
- المانعة..... أسرار
- أما المانعة فأشهد الله أنني ما رأيتهم في وضع متفحش... كان يراعي مصالحهما ويحبان أحدهما الآخر، وكنت أراهما يتمشيان في أرضه أو في أرضها، ليس بينهما إلا كلام أهل المحبة وأولاد الأصول... أما عن رأي الناس فاسألهم كم أينعت المانعة حين أحبته، وكم ذبلت بعد أن تركها... أتظن يا سيدي أن رجلاً مثل شوقي العبد يبني مقاماً لرجل كان يشرب معه الحشيش لو لم يعرف أن الناس سيصدقونه، الناس كلهم يعرفون سيدي نور ويحبونه، لكننا مسحنا فيه كل معايبنا ولقد تقبل باسماً وصمه بالجنون وبالعهر.
- وأسرار؟؟
- دعنا من حكاية أسرار الآن.... كل هذا كلام تعرف القرية حقيقته لكن نتكتم عليه أمام الغرباء.
- إذا فمن أين جاء بالأموال التي بنى بها هذه البيوت؟
- شهد الله صاحبته بنفسي إلى البنك غير مرة هو وزوجته، وكانت السيدة كرمان فرحى بما يفعله.
- فرحى بإهدار المال؟!
- حين طلبت منه هي أن يصمد لحقه أمام عمه سألها: «وإن كانت أموال نور النديم نفسها معجونة بحقوق أخرين من أهل

القرية... وإن كانت عائلة النديم جارت على الناس منذ البداية أيحق لولدك أن يتوارث عنهم كل هذا الغبن؟ ... إنها لعنة ستطوقين بها ولدك طيلة حياته... ربما أذاقك الله طعم الظلم مرة لتعرفي للمظلومين حقوقهم».

فقالت له المرأة الطيبة بتسليم:

- اعط للناس حقوقهم ولولدي حقه.
- وكان سيدي وأنا وبقية العاملين نبني القرية من سكوت والناس يضحكون علينا من بعيد ويسمونها «عزبة المجنون»، كانوا يظنون أنه سيعيش فيها بمفرده.

ما كانوا يدركون أنه يبنيها لهم وسيهبها إليهم، لذلك وقفوا أمام كراكات الحكومة حين علموا نصيبهم فيها، في نفس الوقت الذي كان مرزوق الخولي وأصحابه يصعبون المعيشة على الناس، ويجعلون ثمن متر الأرض فاحش الغلاء كان سيدي يهدي فدادينه إلى الناس. اللعبة بين مرزوق الخولي وأمثاله من السماسرة كانت أن يعرضوا ثمناً مبالغاً فيه في قطعة أرض يملكها أحدهم، فيشتريها منه صاحبه وبعد ذلك يعلنون أن رجلاً ثالثاً قد اشتراها بثمن أشد فحشاً. فيشعر الناس أن الأرض ستهرب من تحت أيديهم، ويشعرون بضرورتها وبأحقيتها لهذه الأثمنة.... بينما مرزوق وأصحابه لم يدفعوا قرشاً واحداً في قطعة الأرض وكل العقود بينهم كانت صورية ليتلهف الناس على الشراء، من قبل أن يزيد الثمن أكثر وأكثر. ثم يجمعون من الناس أموالهم ويبنون لهم عمارات ضخمة يصل سعر الشقة فيها إلى ربع مليون ونصف مليون، فيكسبون أضعافاً جديدة، كان الفلاح يشعر أن متر الأرض التي يقف عليها سيطير من تحته إن لم يضع مدخرات عمره وتعب أولاده في الغربة فداء لهذا المتر. بينما إذا اشترى السماسرة من الناس يشترون بالبخس أولاً لأن فلوسهم حاضرة دائماً ويتساهمون فيها، ثانياً: لأنهم جعلوا بنايات المسلح كلها بلا سعرٍ، ولو كانت عمارة كبيرة فإنهم لا يدفعون ثمناً لطوبة واحدة وضعت فيها، بحجه أنهم سيهدمون المبنى...

كأن هذا المسلح يا أخي ملعونٌ في الدنيا والآخرة! حتى بيوت الطين كنا نستخرج منها عروق الخشب ونبيعها والقالب السليم لا يهدر، وكان يباع أو يعاد استخدامه، أما المسلح فإن الله لا يحبه. ومرزوق هذا هو أسعد النديم الجديد، أسعد النديم أخذ من الناس أرضهم بالقوة، ومرزوق يأخذها منهم بالفهلوة هو وأصحابه السماسرة... بين هذا وذاك أراد سيدي نور أن تعاد الأرض إلى أهلها المجبرين في كل الأحوال... لماذا يا سيدي تتعجب أن يكون من القرية ابن واحد بار بأهله.

- لا يا معلم... أنا أصدق.... ولكن حكاية أسرار؟!
- يا سيدي الصبر والله سأخبرك بكل ما ترغب في معرفته... أما تريد أن تعرف لماذا بطش أسعد بالقرية كلها؟
- أستطيع أن أخمن.... ولكن هل عند خبر أكيد.
- عندي.
- من أخبرك به؟
- لن تصدق.... عفريت الترعة فعل.

كنت سهران في الحقل ليلة سُقيا ستة قراريط أزرعها برسيماً، واستنمت إلى صوت الطلمبة البحاري وخبطها ورقعها المنتظم، وحلمت أنني أصطاد قراميط سوداء بيدي من القناة التي عندها غيطي، ثم أيقظني رجلٌ أنكرته، فسألته في جزع عن حقيقته فأجابني وهو يضحك:

- يا أبو جلمبو يا بغل... يا ستة بغال في بعض... أتخاف من عفريت الترعة الطيب؟! إن كان صاحبك نور يعرفني فلابد أنه كلمك عني.

والغريب يا سيدي أنني شعرت بألفة مفاجئة تجاه العفريت، ولما فركتُ عيني لأتأكد من الصحو أخذ رأسي وغطسها في الماء حتى رأيت القراميط السود تعوم تحت فمي المبقلل، ثم أخرجني وناولني جوالاً أجفف فيه رأسي حتى هدأتُ، فأعطاني سيجارة من تبغ العفاريت وقال:

- صاحبنا نور في خطر... أسعد ينوي على الشر... لابد أن نحذر صاحبنا
- وكيف عرفت يا سيدي العفريت؟
- يا أهبل يا أبو جلمبو يا عبيط، أما تعرف أنني أقضي أغلب وقتي بين قسم الشرطة ومجلس المدينة والجوازات أستخرج للناس أوراقها... أما تذكر شهادات ميلاد أولادك كيف استخرجتها زوجتك الحمقاء؟
- قالت ساعدها موظف طيب!
- أهو أنا يا سيدي... الله يعكنن عليك... ورأيت أسعد النديم يقتحم الباب على طارق بك الشاذلي ضابط المباحث ويوبخه، لأنه سمح للصلح بين عائلتي الخولي والعبد أن يتم في غياب أسعد، فقال له ضمن كلام كثير: «يا طارق بك، الاتفاق في حضور سيد القرية يعصم الطرفين من النكوص عنه، لا أحمد الجنوبي ولا زاكي الجمال قادران على صيانة الاتفاق، ومن يدريك لعل العائلتين خدعك رجالهم ولسوف تسيل الدماء أنهاراً في سوق البهائم».

قال له ضابط المباحث:

- لا أظن... لقد تم التراضي والصلح... فضلاً عن ذلك قد وقعوا على شروط جزائية في حال العودة عن الاتفاق المقر به في محضر الجلسة العرفية.
- وحتى مع تمام الرضا وحسن النوايا... طول عمر الأصول والأعراف تقضي بحضور سيد القرية أو نائب عنه
- الزمن يتغير يا حاج أسعد...
- كلام ماسخ وبلا قيمة.

ورغم أن طارق بك كان نادراً ما يخرج عن طوره إلا أنه ضرب المكتب أمامه بقبضة راسخة أسكنت أسعد النديم وقال له:

– بوسعك الاتصال بمن شئت.... لكن لا تهددني في مكتبي أبداً.

وكان العفريت يا سيدي يمثل لي كلام هذا وكلام ذاك، ويبدل ملابسه في لمح البصر بين المتحدثين، حتى لكأنني حضرتُ اللقاء بينهما. ثم خرج أسعد من القسم غضبان، ونهر عبد القادر الزناتي الذي كان ينتظره في الخارج بالسيارة الفارهة، فلطمه أسعد مرتين على وجهه وصرفه إلى المنزل دون أن يذهب معه في السيارة، فسألت العفريت إن كان أسعد لطم عبد القادر فعلاً فقال العفريت: «كلمة الحق لم يفعل... لكني رأيت ذلك سيسعدك». ومشى أسعد على قدميه لينظر إلى تلك القرية التي ما عادت تمتثل لكلامه وهو سيدها وابن أسيادها... لكن عن أي قرية تتحدث يا أسعد؟ القرية التي وليتَ زعامتها كان بها كُتَّاب واحد أو اثنان على الأكثر، أما الآن فإن بها ستة مدارس تستوعب بالكاد كل الطامحين في التعليم... وعليك أن تعترف أن بعضهم حاز أموالاً أكثر من أموالك من التجارة والسعي في أرض الله... هذه العمائر تشهد بذلك، والرفاهية التي جعلت أبناء الفلاحين يزاحمونك بسياراتهم في الطريق. كان آباؤهم ينزلون من على ظهر الركوبة لدى مرآك أو مرأى أبيك، أما الآن فهم يلقون سلاماً عابراً من زجاج السيارة ثم يتخطونك... فعلنا ذلك مع الباشوات من قبل فتخطيناهم وحُزنا أراضيهم، فهل يتبدل الزمان علينا؟ أيكون ذلك الولدُ الذي عرَّاك أمام الناس وعرَّى حقيقة أبيك عندهم بالحكايات المنصوبة كل ليلة في الأكواخ والبساتين؟ أيكون هو المسيخ الدجال وأنت قامت قيامتك يا أسعد؟

وددتُ لو أنني أنجبتُ ولداً فلاحاً أعلمه صنعة الحكم وزعامة القرية، لكن كل أبنائي ترفعوا في المناصب حتى هجروا القرية ينتظرون ميراثهم، ويزورونني في الأعياد وترى عيالهم كفوفهم طرية... أما يرون أنني ما زلت قادراً على دفعهم من مكاني ههنا إلى أرفع المناصب؟ لأن الزعامة الحقيقية تكمن في إحكام قبضتك على قريتك الأولى، سوى ذلك لن يحترمك الكبراء أهل الحكم الحقيقين... ربما أنا أيضاً وهنت قبضتي مثل كفوف أحفادي حين استمعتُ لنصيحة الحكومة عن كسب ولاء الناس باللين والحيلة والبعد

عن العنف المفرط، إلى آخر كل هذه الشعارات التي تلوكها حكومات هذه الأيام... ولكن حتى الحكومات تلجأ إلى العنف إذا مست الأمور زعامتها.

وسألتُ العفريت حين توقف عن الكلام وخلع عن كتفيه عباءة الحاج أسعد:

- وماذا بعد؟
- قم يا أبو جلمبو يا بغل حذر صاحبك... قل له أسعد قد نوى على الشر الصريح.

وذهبتُ من بكرتي إلى سيدي، فأخبرتني زوجته أنه مغلقٌ بابه دونه لا يكلم أحداً، ثم عرفت في الصباح التالي أنه استأذن من أم ولده وسافر للقاهرة. حينئذ كان أسعد قد بدأ ما بدأه، فعرَّف الناس من هو أسعد إن أراد أن يبطش، وبالفعل ساندته الأجهزة الحكومية فيما أراد، لأنه هو الحكومة بمن وضع فيها من أهله وأقاربه.

- عظيم يا معلم محمد...أتعرفُ أنني لم أدخل إلى عزبة الجنون ولا مرة؟
- وما يمنعك؟! قم معي ونتحدث في الطريق، إنها خطوات من هنا.
- ربما تحدثني خلال هذه الخطوات عن...
- ...أسرار، أرى أنك متلهف أن تسمع عنها... لكن ربما لا يكون الكلام في هذا الموضوع من حقي، وعلى كل حالٍ فإن أسرار لم تكن تخص سيدي نور، حكايتها كانت مع صديقه أحمد الجنوبي، وقد رأيت كلاً من الأستاذ الجنوبي وسيدي نور يتشاجران مرة في البستان حول هذا الأمر. قال له سيدي نور
- يا أحمد يجب أن تتخلص من هذه العلاقة سريعاً.
- كيف تقول ذلك؟ ولم لا تنتهي أنت عن علاقتك بالمانعة.
- المانعة وأنا شأن مختلف... نحن متحابان وهي أرملة، لا زوجة لرجل من أهل القرية.

- أتطالبني بتصديق هذا الهراء... هل تحب المانعة فعلاً أم أن ذائقتك باتت تهوى الفلاحات؟ أما تذكر بائعة الخس التي حدثتني عنها من قبل وكنتَ متيماً بحركة خصرها وجلبابها المرفوع عن الأرض وكعبها الأبيض؟ وما المانعة إلا فلاحة أخرى قد أعجبتك.... وستترك كل ذلك من خلفك يوماً ما وترحل، أما أنا فماذا أفعل بدون أسرار... أنا أحبها.
- طلقها من زوجها.
- إنها لا تقبل بذلك.
- سيلومك الناس ويلومونها على العشق.
- ليس لأحد في هذه القرية أن يلومني... مشكلتك أنك لست فلاحاً مثلنا... أن تكون فلاحاً معناه أن تتكئ عليك القرية بكل عيوبها ومشاكلها، وتؤخرك عن السعي في مصالحك، تلتصق بك كما تلتصق الجدة العجوز بحفيدها، وعليك كابن بار ألا تشتكي، وقد كنت ابناً باراً بقريتي وأهلها طيلة عمري... ولسوف يلتمسون لي عذراً.
- يا أحمد، نحن كلنا نعول على نصاعة اسمك... ولا تنس أن الناس يجهزونك لتخلف أسعد النديم على الزعامة، شوقي العبد وزاكي الجمال ومرزوق الخولي كل هؤلاء يقدمونك عليهم، وكلهم سيرافقونك إلى القرى المجاورة لتكسب التأييد. لو ظهر لهم خبرٌ عن علاقتك بأسرار فسوف تخزي الجميع... راجع نفسك يا صديقي كلنا نعتمد عليك.

ثم انتهي كلامهما

- لكن أهل القرية شهدوا بأن نور النديم هو الذي تشاجر مع زوج أسرار الأستاذ نادر وأن أسرار تبعت نور إلى الطريق تدعو عليه لأنه فضحها.

- هذا ما لا أفهمه يا سيدي ولم يفهمه عفريت الترعة أيضاً.... أنظر يا سيدي إنها عزبة المجنون التي بناها سيدي نور لأهله... سم الله وادخل بيمناك.
- بسم الله... يا سبحان الله.... إنه جمالٌ دونه كل جمال.

نحن

- أين أنا؟
- أنت في أمان، اطمئن... ما الذي تراه الآن؟
- أري بياضاً مثل الذي كنتُ أغلق عيني عليه، لكني أميز في هذا البياض الأن مصباحاً ومروحة للسقف.
- لا تجهد نفسك في الكلام، لقد خرجت لتوك من غيبوبة طويلة.
- رأسي تؤلمني، والذاكرة بعيدة عن تناولي، حتى البداهة لا تلوح لي فأخبروني من أنا؟
- سوف نخبرك بكل شيء... أما هذا السؤال فلسوف تقرر بنفسك من أنت بعد أن تستمع إلينا.
- حسناً.... فلنبدأ بسؤال أخر.... من أنتم؟

(1)

فكرتُ أن أفضح كذبك أمام الناس، وأن أداهمك بينما تقصُّ عليهم حكاياتك عن القرية القديمة وعن الترعة وعفاريتها، بينما لم تواتِكَ الشجاعة أن تخبرهم من أنت... لا تتعجب فقد كنت أعرف وجهك من قبل وصولي إلى القرية، أكثر من ذلك كنتُ مكلفاً بمراقبتك ضمن مجموعة من الأسماء المصنفين على درجة عالية من الخطورة، لكنني تركتُ ذلك التكليف لزميلٍ آخر حين سافرتُ لتلقي دورة تدريبية. ثم التقينا من جديد في قرية نائية وأنت تمشي بين الناس باسم غير اسمك، فكرتُ أن أفضحك، لكنني أدركت أنه الصوت الذي أرسلني إلى هذه القرية كي أراقبك كان مهتماً بأمرك، وينبغي تلقي التعليمات منه مباشرة في كل ما يخصك. فلما أخبرتُ ذلك الصوت أن الناس في القرية يدعونك باسم نور النديم سمعتُ للمرة الأولي أنفاسهُ مترددة، ورأيت أنه حائرٌ في قراره، ثم أمرني أخيراً بالاستمرار

في مراقبتك وإبقاء الأمور على ما هي حتى حين، بل وأمرني أن أوفر لك حصوات الحشيش ومن يحملها إليكم. عرفت أنهم منذ البداية قد أضمروا تصفيتك وأنَّ تخفِّيكَ في جلباب رجل آخر يسهل الأمور عليهم، فانتظرتُ أنباء عن مقتلك تأتيني في أي لحظة. وساورتني أسئلةٌ كثيرة عن الخطورة التي يمكن أن يشكلها رجلٌ ثرثارٌ مثلك ومسطولٌ على الدوام يحكي عن الجن والملائكة، فدفعني الفضول لأن أحضر مجالسكم بنفسي. يجب أن تتذكرني يا سيد الحكايات، فقد كنتُ أندس ما بينكم في هيئاتٍ كثيرة وأشارككم الحديث، وحين كنتَ تسألني عن هويتي والقرية التي مشيت إليكم منها كنت أجيبك دائماً، وأنت مسطول: «ألا تعرفني؟ أنا صاحبك وحبيبك».

بعد ذلك وجدتُ أن حواديت الليل التي تحكونها شرَعَتْ في تغيير حكايات النهار، في قلب موازين القوى داخل القرية وعلى أطرافها. شرعتْ حتى في تغيير وجهتي أنا شخصياً، وتحول موقفي من الحقد عليك والرغبة في تصفيتك إلى حد مساندتك، لا تحسب ذلك القرار كان سهلاً على نفسي بالمرة، فقد كنت أقضي الليل كله في حيرة وأنا أعيد كتابة حكاياتك بين الناس في تقاريري السرية، أو ما يقصه عليك أهل القرية. وتبينَ لي أن الناس في حكاياتهم يكونون دائماً أكثر صدقاً، حتى وإن كذبوا ترى كذبهم شارحاً لمخاوفهم واصفاً الحقيقة بحذافيرها، وليس بوسع تحقيقٍ رسمي أو استجواب قاسٍ أن يأخذ من الناس أكثر مما تطوعوا هم بحكيه من تلقاء أنفسهم في مجلس سمرٍ هادئ.

لقد جعلتني مراقبتك عن كثب وكتابة التقارير أقرأ حكاية الناس للمرة الأولى وأكتبها بخط يدي أنا، وكانت وثبةً في غاية الصعوبة حين قررتُ أن أنحاز إليكم. يومها زرتُ أحمد الجنوبي في بستانكم مساءً قبل أن يجتمع لكم أهل القرية. كان أحمد ذكياً ويمتلك قدرةً كبيرةً على المناورة، لكنني حسمت الجدال بكلمات صلبة: «يا أحمد أنا أعرف كل شيء... أعرف أن صاحبكم ليس نور النديم».

وكان أحمد مجهداً للغاية شأن رجلٍ شريف لا يحب الأسرار ويرهقه حملها، ويريد أن يطمئن لعزمي على مؤازرتكم، واستراح أخيراً في الفضفضة، فقال لي:

- المشكلة تكمن في حماقته هو شخصياً... صاحبنا ما عاد يرغب في التخفي... لقد أخبر المانعة بكل شيء، وبات يهذي ويخلط في المجلس بين نسبه ونسبة نور النديم.... جنونه غير محتمل ويصعب تفاديه، وسوف يأتي اليوم الذي يخبر فيه الناس بكل شيء.
- صاحبكم هدف لرصاصةٍ مؤجلة... لكنها قادمة لا محالة.
- وقد بات هدفاً لرصاصات كثيرة الآن.

حين عقدتُ يدي في يده، وتعاهدنا على إخفائك ولو بالرغم منكَ لم يحمل ذلك إلينا إحساساً بالطمأنينة، بل أظهر لنا الخوف الذي ينتاب رجالاً خارجين عن القانون، وأدركنا حجم المغامرة التي قد تطيح بمستقبل كلٍ منا بلا رحمة، لكننا بتنا أكثر تنظيماً على الأقل، ثم عدت وأخبرت ذلك الصوت بضرورة إخفائك رسمياً، وشرحت له مزية أن نقتلك في الأوراق أولاً، فوافق على الفور لكنه طلب لقائي شخصياً. أتدرك معني ذلك!! كان له عندي معانٍ كثيرة، أولها أن مهمتي في القرية قد أوشكت على الانتهاء وأن الرصاصة تقترب، ومعناه أيضاً أن ذلك الصوت كانت لديه الرغبة أن يفتش في نيتي وعن الفرقة التي أنحاز إليها، فأراد أن ينظر في وجهي مباشرة ليعرف الحقيقة.... ذلك الإله القديم الذي يدير الأمور كلها من الخفاء ومنذ الأزل أراد أن ينظر في وجهي، وقد خشيت أن أقر أمامه بكل شيء، أُقر بأنني قد انحزت للجبهة الثانية بعد سماعي للحكايات، أنني غامرت بحياتي لافتداء رجلٍ مقتولٍ لا محالة، وأنه ربما تخرج من فوهة البندقية البعيدة رصاصة أخري مختومة باسمي.

ولحسن الحظ لم يلقاني بنفسه، إنما قابلت رجلاً أخر كان يبذل جهداً كبيراً ليقنعني أنه صاحب الصوت بينما، كنت متيقناً من أن صاحب

الصوت يراقبني من ثقبٍ ما في الحائط، أو من خلال كاميرا موجهة إليَّ ولا أراها، فحافظت بصعوبة على ابتسامةٍ محايدة، وفي نهاية اللقاء شدَّ الرجل على يدي، وسلمني مظروفاً يشمل كل الأوراق التي تجعلك رسمياً نور النديم. وتبقت لدينا في القرية مهمةٌ أشد صعوبة، وهي أن نقنعك أنتَ بذلك ريثما نفكر في وسيلة لإخفائك نهائياً، وبحجة مقبولة، عن الأعين. لكن السرعة التي تحركت بها الأحداث داهمتنا، وتمَّ كل شيء على عجلٍ وبغير ترتيب.

- ظننتُ لفترةٍ طويلة أن عفريت الترعة هو الذي بدل أوراقي وجعلني نور النديم إلى الأبد.
- كلا، ظلمت العفريت، أنا الذي بدلت ودسست الأوراق الجديدة في شقتك بالقاهرة.
- لقد كنتُ أدخرُ هويتي الحقيقية في مكانين لا ثالث لهما، في كلامي مع المانعة، وفي ركنٍ من شقتي بالقاهرة فيه جواز سفري الذي عزمت أن يبحر بي خارج البلاد كلها. كلما اختلطت عليَّ الأمور وضللت عن اسمي الحقيقيّ كنتُ أذهبُ إلى بيت المانعة وأحدثها... أو جلست أتذكر موضع جواز السفر، ورقةُ اليقين الأخيرة التي مزقتَهَا أنتَ، فلما أنكرتني المانعة وأوجعت قلبي فررتُ.... واستقبلني جيران شقتي في القاهرة بحفاوة، لكنهم قد دعوني باسمٍ غير اسمي أيضاً، وقالوا نور النديم، حينئذٍ دلفتُ إلى شقتي متحذراً من خطوتي التالية، وكان حدسي يؤكد لي أن العفاريت قد دخلتها من قبلي. فوجئتُ بصورة الجد التي كانت معلقة على الحائط أنها لم تكن صورة جدي أنا، بل هي صورة نايل النديم جد نور النديم، صورةٌ مطابقة للتي في دوار أسعد. ولم يراودني بعدها شكٌ أنني سأجد اسم نور النديم في جواز سفري أيضاً، وقد وجدته. وكانت صورة الجد الجاثمة على الحائط مائلةً بشكلٍ مقصود، شكل يجزم بأن الشياطين الذين علقوها أرادوا أن يثيروا غيظي ورغبوا في تدمير اليقين لدي.

- لم أكن أرغب في إثارة غيظك... بعد أن هممتُ بترك الشقة في غيابك أشفقتُ عليك... حاولتُ أن أفعل أي شيء يعصمك من الجنون التام... فكرتُ أن أتحدث إليك، فأملت الصورة لتتساءل عمن كان هنا قبلك.
- ساعتها أدركتُ أنني سأظلُّ نور النديم إلى الأبد ما لم أحقق رغبة الشيطان الذي لبسني فور حلولي بالقرية... أن أقضي تماماً على أسعد النديم، ساعتها فقط يمكنني أن استرد اسمي...
- وبنيتَ قريتك التي لم يفهم الناس سر بنائها فأسموها عزبة المجنون، وقال أحدهم: «لو أنه أعطانا في أيدينا جنيهات كثيرة لكان ذلك منه أكرم وأبرّ». كذلك أنا لم أفهم سر بنائك لها، لكنها من ناحية أمنية قد جعلتك شديد الظهور... حتى أن الصحافي «جلال محمود» تعرف على أثرك بسهولة، وقال: «إن صاحبكم ليس نور النديم» .... كان الصوت قد أرسله ليزيف قصتك للناس وربما ليراقبني أيضاً، فقال جلال أن «يوتوبيا» كانت واضحةً في قصصك القديمة، فلما انفضت الميادين قسراً ذهبت مغاضباً وعدتَ إلى قريتك الأولى لتبنيها هنالك، وقال عنك لم تكن تحكي للناس في بستان الجنوبي، وإنما كنتَ تضعُ معدات البناء في خيالهم، وتجهز الديكورات في رؤوس الناس للَّحظة المناسبة، فلما توفرت لك الفرصة بنيتها ولم تتردد. كما حلى لغرورك أن يذكرك الناس كلما مروا بها فيقولون بناها سيد الحكايات، من أجل ذلك رفضتَ اسم نور النديم الذي خباك فيه صحبك، وحين سألته عن القصة التي سيكتبها عنك بعد أن عرف بالحقيقية قال وهو يجمع أوراقه:
- لا شيء.... لن أكتب حرفاً في هذا الموضوع.

(2)

ولعلمك فقط يا صاحبي أنا لم أعد أسهر، ما عدتُ أجلسُ في البستان صبحاً ولا مسا، وإنما أخبرك بذلك لأعذب ضميرك يا من شُرت عليَّ بخوض الانتخابات وزينت لي الحلم. حتى سيجارة الحشيش، نصيبي من روقان هذه الدنيا، ما عدتُ أفرغ لها، وينقضي اليوم ما بين تلقي زوار ومؤيدين، وبين مسيرات انتخابية حاشدة في قريتنا أو من حولها. وفي جلسات حكمٍ بين الناس، وفي مناسبات أهل البلدة تجدني دائماً ثم أمشي آخر الليل إلى بيتي مجهداً مزحوم الرأس. وعائلة العبد منذ أن أصبح شوقي هو كبيرهم باتوا يعتبرونني زعيماً روحياً لهم ولا جمال عبد الناصر في زمانه. الظاهر أن طارق بك قال لشوقي كلاماً من باب الأخذ والعطا لا أكثر، وأشار عليه بعد إلحاح شوقي في الحصول على امتيازٍ لعائلته التي طالما خدمت الحكومة عبر خدمتها لأسعد النديم، وقال له طارق بك: «عليك وعلى هذا الرجل – يقصدني– فإن أهل القرية يحبونه، والقري المجاورة إن ساندتموه ربما يصعد كلاكما معاً، وفي أسوأ النتائج يصعد وحده ويكون شاكراً لجميلكم». وظن شوقي لطول تلهفه –يا عيني– أنما كان ذلك وعداً من الحكومة، فسعى إلى أهله يرفع ذيل جلبابه عن الأرض ويبدي لباسه من تحت الجلباب، فاجتمع بهم وكرَّر عليهم حديث ضابط المباحث، لم يكن رجال عائلة العبد أقل تلهفاً من شوقي رغم ولائهم الحالم لأسعد النديم، لكن كبيرهم –حين انتهي شوقي من كلامه – قام بطريقة تراجيدية وخطب في أهله:

– اسمعوا يا خيرة رجال العبيد... الأيام لا تدوم على حال... أما شوقي فقد جاءكم بما كنتم تصبون إليه... وأنا معترفٌ بخطئي حين دنت بولائي لأسعد النديم وجمعتكم من ورائي... لكن الأيام القادمة لا هي أيامي ولا أيام أسعد.

ومشى بعكازه إلى شوقي فقبل رأسه واعتذر عن الأيام التي منعوه فيها من الكلام وقال للحاضرين:

– ستقبلون شوقي كبيراً عليكم منذ الآن، وأنا أول من يتبعه ويطيع كلامه.

ومشوا إلى شوقي – مثل الفيلم الأجنبي إياه – يقبلون واحداً تلو الآخر كتفه وطرف لاثته. من ساعتها وأخوك شوقي متمسكٌ بذراعي لا يغادرني، ولا أجيب على هاتفي من دون أن ينظر ومن غير أن أخبره بموضوع الاتصال وصاحبه. يخاف إن هو أفلتني من يده أن يضيع منهم الحلم! أما مرزوق الخولي فمنذ كون الرابطة وأصبحوا عائلة كبيرة كالعبيد وهو يتحرش بكل العائلات ليرضي غروره ويثبت نديته لرؤوس العائلات الأخرى. فبات كشوقي يصحبني إلى مجالسه ويشركني في أمره، فضلاً عن كوني محاميه الذي يحرر عقوده. ورجال العائلتين كلهم وكثيرٌ من أهل قريتنا قد سئموا زعامة أسعد وباتوا يدعمونني بهتافاتٍ عالية تصل إلى دوار النديم، وجهز زاكي الجمال لأسعد كل فضائحه التي يعرفها عنه في الجمعية الزراعية، واستيلائه بالزور على أرض الإصلاح الزراعي وغير ذلك... زاكي بات يلازمني أيضاً ليل نهار، لكنه زاكي آخر غير الذي نعرفه، فمنذ عودة أم عياله إلى الدار استراح وسلم أمره لله، وسلم المال والمصالح لأكبر أولاده، وقد أخذ العهد على يد مولانا فرحات... زاكي طلق الدنيا ثلاثاً، لكنه مازال يرفض أن يبيع شبراً من أرضه، حتى وإن شكاه الناس في دينٍ كبيرٍ يدخله السجن، وما زلتُ بينه وبين الناس أمنعهم من ذلك... هذا هو مبلغ الزهد الذي وصل إليه، فلا تكلف نفسٌ فوق طاقتها في قريتنا، سوي نفسي التي حملتها أنتَ ما لا تطيق بمشورة الانتخابات هذي، بينما كنتُ في أحيان كثيرة –أقرب إلى العادة– أقفُ بين الناس بجسمي وحده، أما عقلي وروحي فيحلان في خيال بعيد، عند أسرار، الهامش الذي مهدته لنوال فرحة الدنيا وذوق نعيمها. أسرار يا صاحبي كما تعلم كانت فتاة أحلامي والمرأة الأنموذج في وهمي، من قبل أن تجمعنا المحبة أو أكلمها. فجأة خرجت أسرار من خيالي، ووقَفَتْ أمامي حقيقة بلحمها وحسنها، واعترفت بمحبتها. لماذا يا صاحبي تتحققُ كل الأحلام منذ قدومك إلى قريتنا لكأنك جنيٌ من ألف ليلة وليلة.

لقد عشت أيام محبتي الأولي نزِقاً أُغني في الشوارع لعبد الحليم وميادة الحناوي. وحب أسرار كان يجعل الحشيش أحلى، ويجعل الحشيشُ أغاني الحب أعذب، ويرقي حسك الموسيقيّ. كان ذلك في البداية ولم أكن أحسب ولا أظن علاقة مع امرأة جميلة و"دلوعة" مثل أسرار قد يصحبها ألمٌ أو يعقبها ندم. والحقيقة يا صاحبي –ولا فخر فيما سأقوله– أنني رجلٌ ليس بوسعه العراكُ مع ضميره، وكنتُ طيلة حياتي أنحازُ إلى مشورة الضمير تجنباً للقلق وعض الأصابع من الندم، فكلُ هذه المشاعر تجعل جسمي يجأر بالشكوى، وقد كانت طرافة الحكاية أولاً ثم غرابة هذه الأمور عني ما جعلني أغفل عن كون أسرار امرأة متزوجة برجلٍ من أهل قريتي أعرفه ويعرفني، ويصافحني في الشارع بمودة. لكن صورة هذا الزوج بدأت تناوشني منذ الأيام الأولى لتلاقينا أنا وهي. ثم بات وجهه يلح على مخيلتي كلما نظرتُ في وجه أسرار. بل إن رأسه بكاملها قد تجسَّدَت لي، وكانت تشاركنا ما نقوله، وتضحك معنا على النكات التي كان بعضها متجاوزاً للأدب. كانت حاضرة تثالثنا بلا جسد، حتى أنني كنت أحاذر في السيارة أن ألمس هذه الرأس. باتت لقاءاتنا تشبه أسرَّةً ناعمة موقدٌ عليها في الجحيم... قلتُ لها طلقي زوجك وتزوج، هذه الأمور باتت هينةً وسوف أساعدك عليها، حتى هذه الكلمات كانت تؤلمني لكنها قسوةٌ شريفة على الأقل، وأسرار حتى إن بدت لكم من ثيابها وغنجها أنها بندرية فإنها فلاحةٌ في صميمها، رفضت عرضي عليها وأعضلته بحججٍ كثيرة ككلام أهل القرية، وبوار حال ابنتها التي باتت عروساً. ثم حاولت طمأنتي بأريحية زوجها وتساهله في الأمر، وكثيراً ما فعلت ما جعلني أرفع ورقة التماس إلى ضميري، ذلك القاضي السمين شديد القساوة، فأخبرته أنني متورطٌ في الأمر بلا دافعٍ ولا نية مسبقة للخطأ، وهذا ينفي الجريمة عني، كما أنني قد نلتُ جزائي قَلقاً وذعراً، والدكتور أخبرني أنني مصاب برومانويد يتأذن على جسدي وأوصاني براحة أعصابي. فلما رفض ضميري ذلك الالتماس كلمته بفظاظة.

– يا سيادة الضمير إن كنت تحاكمني في شأن أسرار وهي ذنبي الوحيد... فاعلم أنني الرجل الذي يعرف عن ناس القرية كل

أسرارها وأدقها... ودعني أخبرك أنه لا أحد يخلو من المعابة فيهم أو يسلم من الخطأ... نحن بشر يا سيادة الضمير، ويجب أن نحمل أوزار إنسانيتنا، وأن نهون على أنفسنا... أنا عشتُ خادماً وناصحاً لأهل قريتي طيلة حياتي، وعليهم أن يتذكروا لي وقوفي إلى جانبهم وتخفيفي عنهم حين جعلتُ أحمالهم أحمالاً لي، فإن جحدوا ذلك فإنني أعرف بيوتاً يعيش فيها الآباء مع أبناء ليسوا من أصلابهم وهم لا يعلمون، وما من بيت في القرية إلا وله سر عندي.... عليهم أن يدركوا أي وجه سوف يرفعون إليه أصبع المعابة.

حتى مع هذه المرافعة التي قدمتها إلى ضميري لم أسترح، وأصبح لقائي بأسرار يرهقني، كما يؤرقني البعد عنها وفكرة التخلي عنها من بعد أن تعشَّمَتْ فيَّ صارت تؤلم ضميري بنفس القدر الذي كانت تسببه فكرة الإبقاء على علاقتنا... وباتت أسرار عندي فاكهة محرمة.

ولأنني رجل يؤلمه ضميره بشدة فإنني أشهد الآن أمام الناس أن الرجل الذي عاش بيننا في القرية وظهرت معه حكاياتنا الجديدة ليس هو نور النديم.... وأن اسمه هو حسين منصور الدرغامي الملقب بسيد الحكايات... وأن الذي دفعني لأن أكذب عليه وعليكم هو صاحبنا محمد فرحات، هو الذي أقنعني أن رجلاً مثل سيد الحكايات لن يعدم في هذه الأيام الصعبة وفي هذه الظروف التي تمر بها البلد من يرغب في تصفيته ليسكته... وقد بدأوا بالفعل هجومهم عليه من الصحف حتى الجريدة التي كان يكتب فيها، ولقد أثار شفقتي على الرجل فقبلت المخاطرة وحملتُ السر، لكنني ما عدتُ أرغب في حمل أسرار جديدة... هل تحسبون طارق بك الشاذلي بذل جهداً يذكر في دفعي إلى الاعتراف بالحقيقة كلها... أنا تعبت.

في نفس التوقيت الذي كان صاحبي يبني فيه عزبة المجنون أنشأ مرزوق الخولي مسخاً يسمي عند أهل المدن الكبيرة «مول»، وهو خانٌ كبير بوسعك شراء أي شيء منه، وجعل الفلاحون يطوفون في طوابقه ويتلمسون

الجدران والبضائع في ذهولٍ من هبطت عليهم سفينة فضائية، وجاء المحافظُ وقص شريط الافتتاح، ونزلت الصورة في الجرايد. وكل من «المول» وعزبة المجنون بُنيا على أرضٍ زراعية، لكن مهندس التنظيم جمع من مرزوق ومن صاحبي مالاً كثيراً فزوَّرَ لهما في خريطة التنظيم، وأنشأ لهما التراخيص القانونية ثم سافر بما جمعه من مالٍ إلى تركيا.... فلما علم المحافظ بذلك خبأ الخريطة الأصلية وتجاوز عن أخطاء كثيرة إلى حين، لكنه بعدها أرسل الكراكات لغرضين أولهما، هدم عزبة المجنون بمجرد اختفاء صاحبي ما أكد لي أن صوتاً كان يحرك هذه الكراكات من بعيد.... وأمر المحافظ أيضاً بردم ترعتنا القديمة فأقبلت الكراكات تغمز شوكتها في الضفتين وتهيل الطين والتراب على صفحة الماء الأخضر، ما جعل كثيراً من الناس يبكون دون معرفة السبب... ويطيب لي الاعتقاد أن صاحبي قد بنى قريته ليذكر الناس دائماً بقريتهم الأولي، وبجده الذي بناها لهم من قبل أن يتوه كل حي عن أصله.

(3)

لكن الحكومة قررت في محاولة أخيرة منها لرد الجميل وللوفاء بالدين أن تؤازر كلاً من أسعد النديم وسيد عبد المتعال في مسألة خوض الانتخابات ولو بالرغم من الناس... وقلما صادف فعل الحكومات أهواء الناس... فأقامت لهما الحكومة سرادقاً انتخابياً كبيراً على مساحة واسعة من الأرض المحروثة، وعلقوا الأنوار وأجروا تجارب الصوت، وبدا للناظر أن طارق بك الشاذلي كانت لديه أوامر مشددة بتوفير الحماية والأبهة لذلك السرادق، فقام بتوزيع العساكر والمخبرين حول السرادق ومن داخله، واتضح له بعد حين أن أعداد العساكر كانت أكبر بكثير ممن جاءوا من أهل القرية لسماع كلام أسعد النديم أو للجلوس لشعوذات سيد عبد المتعال، ففي تلك الليلة بالذات رأى الناس أن القمر الحلو الأبيض لا تحجبه سحابةٌ في السماء، وأنه عاد يطلب السمار ويرغب في سماع الحكايات، وأنه أبهي من كل النجوم التي كانت تحدق به. فاستقر رأيهم على الخروج من بيوتهم

وحملوا معهم الحُصر ومفارش ونمارق وآنية للشاي والحلبة، وفي طريقهم للسمر على أطراف قريتنا القديمة رأوا أن عزبة المجنون قد أشرفت على الانتهاء، ولما رأى صاحب العزبة أن الناس ينظرون ناحيتها عن بعدٍ وعن كثب مشى بنفسه إليهم، وأدخلهم إلى قريته من قبل أن يتم بناءها واحتفي بهم، ودار محمد أبو جلمبو وإخوته الستة العمالقة على الناس يخدمونهم ويلبون مطالبهم، فانتشى صاحب القرية ووقف مزهواً عند بوابتها يستقدم الساهرين ويضحك للقمر. أما أسعد النديم فلم يعد أحدهم خائفاً منه بعد تنكيله الكامل بأهل قريته، قالوا لأنفسهم: «وماذا بوسعه أن يفعل أكثر مما فعل... لا شيء ولا داعي للخوف منه مرة أخرى على الأقل في ليلة كهذه... أخطاؤنا التي عاقبنا عليها قد تطهرنا منها، وبقيت له أخطاؤه التي سوف يحاسب عليها تباعاً، وكان أول عقابه أن ينحدر في بئر التجاهل ونمر على اسمه بتأففٍ كأنما ذُكر بيننا الشيطان». وقد سألني رجالٌ كثيرون عن سر بناء صاحبي لقرية جديدة، ولم يكن في وسعي الإجابة آنذاك... لكن بما أنكم عرفتم أن صاحبنا ليس نور النديم... ما كان ولن يكون.... وأن اسمه حسين منصور فلسوف أخبركم بأصل الموضوع:

حين كان سيد الحكايات حبيس الشقة التي أخفيتُه فيها طلب مني بتوسلٍ كبير أن نخرج أنا وهو لنتمشى فرفضت ذلك، وعاد يطلب بتوسل أكبر يشبه البكاء أن نصعد معاً إلى السطوح فنتكلم في الهواء الحر ونشرب الشاي بالنعناع، فوافقت مشفقاً على كآبته التي سببها له طول ملازمته للشقة الرطبة ثقيلة الهواء. ووجدته مصراً على فكرة السفر إلى الخارج لأن الحياة في هذه البلاد –كما رأى– لا تستحق المحاولة من جديد، والحل الوحيد الذي طرأ بذهنه هو بناء اليوتوبيا وفرض قوانينها على الناس... ولم يعجبني ذلك الكلام منه، فإن رفاهية اليوتوبيا عندي مساوية تماماً لأحاسيس السطل، وماذا كنا سنفعل في اليوتوبيا... هذا هروب من المهمة الأساسية الموكلة إلى كل الناس، أن نجعل حياتنا أفضل في كل يومٍ عن سابقه ولو بمقدار ضئيل. وأصرَّ صاحبي على رأيه، وتمسكت برأيي

فتلاحينا، وكانت القرية القديمة تبدو لأعيننا حائرة في ذلك المساء الرائع، فعقدت رهاناً مع صاحبي.

– إن قدر الله لنا أن نمشي أنا وأنت في هذه القرية فنجعل أهلها يستمعون إلينا في هدوء ومن غير اتهامات لأحد.... ثم تحسنت أحوال الناس بعد جلوسنا معهم تتنازل أنت عن فكرة اليوتوبيا.

فسألني صاحبي بتحد: «وإن لم ينصلح حال الدنيا ولا حال القرية؟»

فكرت في إجابة تريحه وتنهي ذلك النقاش فقلت: «عندها يا سيدي نبني لك اليوتوبيا».

كان مزاحاً وتنصلاً من عواقب الرهان، فكل ما شغلني ساعتها أن أحثه على الفعل بدلاً من الاستسلام. ولم يكن التنفيذ ممكناً أبداً لولا أن سيد الحكايات قد حصل بفضل طارق بك على ما يفيد أنه نور النديم صاحب المال والأرض. ولولا أن زوجة نور النديم التي اشتركت معنا في اللعبة انتقاماً لزوجها قد أحبَّت سيد الحكايات وأكل بعقلها حلاوة وبقلاوة، فقد كانت تطرق الباب عليه وتجالسه على السطح، وبالرغم من بنائه لعزبة المجنون فما زلتُ مصراً على رأيي، فهو لم يفز بالرهان الذي عقدناه ولم ينتصر عليّ. لكنه حين أزمع الانسحاب من اللعبة وقد غامرنا عليه بحياتنا لم تعجبنا هشاشته، فقلنا له بل أنت نور النديم وعمك أسعد، فركب رأسه عناداً وفعل ما فعل.... هو عنيد وله رأس طفلٍ، رغم أنه بلا منازع سيدُ الحكايات وصاحبي الذي شرفتُ بمعرفته. وفي ليلة القمر التي حكيت لكم عنها مشيتُ إليه بنفسي لأخبره أنني الفائز بالرهان وليس هو، وأن الأمور تطلب شيئاً من الصبر. وكنت سأطالبه بالاعتذار علناً، لكنني رأيت من خلال السياج المحلق بعزبة المجنون أن الناس فرحانين بالقرية الجديدة وبالقمر، فلم أشأ أن أعكر صفو تلك الليلة وقلت لنفسي: «ربما بناها صاحبي لغرضٍ آخر غير ذلك الرهان الطفولي، ربما فعل ذلك لتبقى عزبة المجنون سؤالاً معلقاً وربما إشارة إلى أن هناك فرصة دائمة لعالم أفضل يشبه عالم الحكايات».

ولم يتوقع سيد عبد المتعال أن تكيل له قريتنا بنفس الصواع الذي كالت به لأسعد النديم، فلما انفض السرادق سعى سيد غاضباً إلى بيت أمه القديم... بيت نفيسة السحارة وقد كان مهدماً تسكنه الثعابين وينام على سقفه البوم والغربان، وأشعل ابن الساحرة في هدأة تلك الليلة موقد النار الذي كانت أمه تستخدمه من قبل، وقرأ عليه من تمتمات الملكين هاروت وماروت، ومن كلام نفيسة التي كانت تجعل العجوز حبلى وتدمي حوراء العينين... وزاد سيد من سحره حتى زكت له النار واتضح الخراب في الدار القديمة، وتصاعد من الموقد دخانٌ شمل سماء القرية وغطى قمرها. فإذا كل نساء القرية اللائي كن في خدورهن أو في أحضان الرجال قد استحلن بخلقتهن إلى قردة كبيرة تلبس قمصان النوم... وصرخ الرجال لمرآهن، بل وصرخت كل امرأةٍ لمحت وجهها في المرآة وصارت فوضي عظيمة حين طارد الرجال نساءهم في شوارع القرية بالعصي، وصراخ القرود كان يُسمع في القرية كلها، ولقد سمعته أنا من موضعي في البستان الذي بتّم تعرفونه الآن، وكنت مؤرقاً بالمحبة فجلست في الكوخ أتذكر زمن الحكايات وضحكات الناس... وجاء نساء القرية كلهن إلى البستان هرباً فعرفت فيهن سحر ابن نفيسة، وصببت على رؤوسهن واحدة من ماء الطلمبة، تلك التي تميل عليها شجرة الفل ورقيتهن باسم الله والنبي وباسم حبيبتي أسماء، إلا زوجتي التي حين فطنت إليها من ملابسها تشاغلت عنها برقية الأخريات، وتركتها على هيئة القرد تصرخ في ذهول... واستمر بنا الأمر حتى عصر اليوم التالي، عندها جاءني سيد عبد المتعال وتحداني بسحره على رؤوس الأشهاد.... فذكر عفاريته وذكرت أنا حبيبتي الحلوة فإذا بنا قد سمعنا رعداً من السماء واحمرَّ لونها فكانت وردةً كالدهان... عندئذ تغير وجه الساحر وبُهتَ، فتراخى عن سحره وقال: «لقد عادت الزهرة إلى الأرض والآن يذوب كل ساحر عليم» ... وذاب الساحر من على وجه الدنيا فلم نعد نراه من بعدها أبداً.

(4)

أنا يا صاحبي كلما هممتُ بالفضفضة أشفقُ على جليسي من تعكير صفو المجلس، كما أن بلايا الناس كانت تهون عليّ بلوتي، ويَسعد الناس إن أقرضتهم أذناً تنصت أكثر مما تتكلم إليهم، فكنت أُسَري بصمتي عن الناس وأهز رأسي، لكن من ناحية أن عندي حكاية فأنا عندي حكاية، ولكن حكاياتك كانت أهم عند الناس فأفسحت لك الطريق بصمتي... أو لم أكن معكم منذ البداية واشتركت معكم في الكذب على الناس وأقسمت لهم على أنك نور النديم، كان صمتي نافعاً أيضاً كي لا يفتش الناس في حقيقتك ولا في نواياك. وكنتُ متابعاً لكل ما يحدث وعيني عليه. صحيح أنني لم أكن أحضر معكم مجالس الحشيش لكنني اعتدتُ أن أقف أمام دكانتي وأراقب الدنيا وهي تتغير، والناس يتكلمون عنك، والعيال يرددون حواديتك عن أسعد النديم وأمنا الغولة، فكنت أفرح كثيراً بما يحدث وأصدق قلبك الأبيض وشيئاً كثيراً من هذيانك... عندك مثلاً حكاية أن الشيخ القللي قد كان في الأصل حماراً، وهي حكاية لم أسغها تماماً، رغم أن جلساء لكم لا يكذبون قد أقسموا أنهم قد رأوا قللي ينهق في الكوخ، وقد كنتُ أسأل نفسي: «هل يقصد بذلك أنه حمار على الحقيقة أم أنه غبي وعنيد مثل الحمار»،... وأقول لنفسي في النهاية وما الفارق! ففي الحالين ينالنا منه نهيقه ورفسه، لقد يئس أسعد تماماً لمَّا رأى السرادق خاوياً، وعلم أن الناس قد سهروا ليلتهم في عزبة المجنون... ويبدو لي أن ما حدث بعد ذلك لم يكن مرتباً، وأن أسعد قد فوجئ به مثلنا. حين فكر كل من عبد القادر الزناتي وصاحبه جابر الحرامي في أن يجاملا أسعد النديم ويستردا عنوة ما ضاع من هيبته وهيبتهم بين الناس، ففعلا ذلك بالطريقة الوحيدة التي يفهمانها.

في ذلك اليوم كنا نتجهز للمشي رجالاً إلى القرية المجاورة لتزكية أحمد الجنوبي عندهم، والناس كانوا في عيد وجلابيب مكوية، وضحكٌ وابتسامٌ وعشم في الله، وكان أحمد يرتعد من داخله تهيباً للموقف وقال لي: «عيني اليمين ترف يا صاحبي»، ولم تمض لحظات حتى سمعنا صراخ أم مريم

زوجة أحمد، ونزلت إليه بين الناس تبكي وتتشنج فلا تكاد تبين، كانت مريم الجميلة بنت أحمد قد مشت إلى الدكان لتشتري باكو شاي من الحجم الكبير لضيوف أبيها، ومرت بطفولتها الغضة على عبد القادر وصاحبه وهما يغسلان سيارة أسعد النديم من ماء ترعتنا المعفرتة، ومرت مريم بهما تغني وكانت الشوارع خالية كهدأة الليل لأن الناس كلهم وقفوا عند بيت أبيها... فلما أحست الصبية منهما غدراً وأحست بالأقدام الغليظة التي كانت تنهب الطريق من خلفها حاولت الصراخ فانحبس صوتها فخلعت شبشبها وجربت أن ترمح فلم يسعفها عودها الطري... فلما عاد إليها صوتها قررت أن تصرخ برعب مضاعف، وعضت كف عبد القادر التي كتمت صرختها وخربشت جابر الحرامي في عينه... واستسلمت أخيراً فحملها جابر إلى السيارة مغشياً عليها.

وأرسلوا في القرية من يجدها مريم ويعود بها ولو من تحت التراب أو من فوق الأشجار، وفتشوا عند محلات البقالة البعيدة فلما يئسوا من أخبارها جلس أحمد ينهنه كالنساء... فأرسل الله عيلاً صغيراً يسأل: «هل تبحثون عن مريم؟»، وحكي أنه رأى عبد القادر يضعها في سيارة أسعد النديم فيما كان الولد مقعياً لحاجته على حجر الترعة ويفعص بيده القواقع السمراء. فحمل كلُّ رجلٍ من القرية عصاه وكدس العيال في جيوبهم حصواتٍ حادة وبودرة العفريت، ورأى الناس موكباً آخر يلتحم بهم عند بيت عبد القادر، فبالرغم من خصام سيد الحكايات مع أحمد على مسألة التسمية تلك وعلى شؤون أخرى، إلا أنه بمجرد أن علم باختفاء مريم حشد الناس في ناحيته وزودهم بالعصي من أحطاب القرية الزائدة عن البناء، ثم تقدمهم هو وأبو جلمبو حتى التقينا عند باب عبد القادر.

وطلب أبو جلمبو من الناس وأكد عليهم أن لا يتدخلوا أبداً بينه وبين غريمه القديم عبد القادر الزناتي، وقال بوسعهم أن يقيدوا جابر الحرامي إن شاءوا. وخلع جلبابه سريعاً ثم كسر الباب على غريمه وسمعنا من مواضعنا في الخارج أصوات لطمات وصرخات مفزعة تشبه رعود السماء، وبعد عراكٍ كثير من داخل المنزل خرج العملاقان إلى الشارع يتدافعان

ويتراكلان حتى أنهك كل منهما صاحبه، وتحطمت أشجار طويلة حالت بين ذلك العراك والتلاحم القوي. وفي النهاية كبَّل أبو جلمبو ذراعي عبد القادر من خلفه، واحتمله رأساً على عقب فقصم رقبته على الأرض، ولم يدخل أبو جلمبو الحبس يوماً واحداً في غريمه، لأن الناس بعد ذلك شهدوا وأقسموا أن عبد القادر سقط وحده من فوق سطوح بيته ومات على الفور، وضحك طارق بك ساعتها وطلب من الشاويش فتح الله تسجيل كلام الناس في المحضر... وفتش الناس ساعة العراك عن جابر الحرامي فلم يعثروا عليه، لولا أن غراباً قد حمل ثعباناً لسانه مشقوق من فوق السطح ووقف في عرض الطريق يمزق أحشاءه في تلذذ.

وكان أسعد في غفلة عن هذا، فجاءه الخبر أن أهل القرية يطلبونه ليهدموا دواره القديم على رأسه، ولم تكن معه سيارته فوجه أمراً إلى الشيخ قللي أن ينحني له مرة أخيرة فيركب على ظهره... ليخرجا من القرية خفية عبر الغيطان... وأثناء ما كان قللي يبرطع متخفياً في الزرع ويقضم الخيارة الكبيرة التي تسنح له.... إذا بقللي يثرثر لتزجية الوقت لا أكثر بحديثٍ أخبرته به زوجته مستورة منذ أيام عن علاقة تجمع بين أحمد الجنوبي والسيدة أسرار، واستمع أسعد للكلام مثل الغريق الذي وجد قشة عند أطراف أصابعه، ثم ألهب ظهر القللي ضرباً بعصاه وقال: «الآن تخبرني يا ابن الأتان!»، ونهق قللي متألماً من الضرب ورفس في الهواء فلوى أسعد عنق حماره وانثني عائداً إلى القرية، فتشجع به بعض رجاله وأحضروا عصيهم وبنادقهم والتقوا بأحمد والناس عند دوار النديم، وقبل أن يشتبك الناس من الفريقين طلب أسعد بجرأة يحسد عليها منذ صباه أن ينفرد بالأستاذ أحمد في حجرة من الدوار لدقائق... دقائق... دقيقة في إثر دقيقة والصدور تعلو وتهبط من القلق والتحفز، وشواظٌ من نار الأعين قد تبودلت بين الفريقين، والنبابيت كانت تضرب متأهبة على الأرض كأنها تعد الثواني. وخرج أحمد على الناس مخزياً أسود الوجه ينفي كل الاتهامات عن أسعد النديم، ويقول إن بعض الظن إثم، وضرب الناس كفاً بكف وتصدوا لأحمد الذي حاول التملص من أسئلة الجميع حتى من صاحبه.

ورأى الناس نور النديم يقبض على جلباب أحمد وتشاجرا فلطم كلاهما الآخر، وبدأ رجال أسعد النديم في إطلاق أعيرة النار على نجوم الظهر فأسكتوا الناس، ودفع أحمد صاحبه في صدره فأوقعه وتبرأ من صحبته أمام الناس:

– اذهب إلى قريتك التي بنيتها اخلد في جنونك هناك ولا تخرج.

فافترق الصاحبان على ضغينة، ونامت الشمس مجهدة وطلع القمر متكدراً تشوب وجهه زرقة من ذيل السحاب العابر. ويسأل العابرين في شوارع القرية عن سيجارة حشيش تهون عليه ما حدث، فأشاح الناس في وجه القمر ولم يحتمل أن يسمع من جديد ضحكات أسعد ورجاله في جنينة الليمون فصرخ ليفزعهم، حتى أسعد النديم لم يكن يصدق ما حدث، كان ما حدث هدية من الأقدار أكدت حتمية بقاء أسعد فوق رقاب الناس.

– ياه... حتى أنت أدركتك غواية الحكايات يا صاحبي.
– وأي غواية!
– كنت أظنك معنياً فقط بالحلال والحرام.
– ما فعله أسعد النديم بنا وبأهلينا من قبل كان حراماً ولا شك.
– بالمناسبة يا صاحبي.... ما دمت قد تكلمت... هل تحب النسوان كما نحبهن أنا وأحمد وفرحات؟!.
– لم نكن نتحدث عن ذلك... اتق ذلك.
– ها ها ها... آه رأسي.

حين قال عنك الناس مجنوناً قلتُ لهم وأي عقل فيما يحدث لنا أو من حولنا؟ اتركوا فرصة للجنون ربما يهتك الحواجز التي بنيناها بالعقل طيلة هذه السنوات... ربما يفلح الجنون. لكني يا صاحبي أريد أن أنصح لك... فإن الحكايات عالمٌ حلو لا شك في ذلك، لكنها تجعلك أنت بالذات تطيل التفكير، ومخ ابن آدم يا صاحبي مملكة كبيرة لا يعرف حدودها إلا الله. فإياك أن تجعل زعلك من الناس ولا من الدنيا يمشي بك وحيداً خلال عقلك

وإلا فسوف تُجنُّ والعياذ بالله، يا أخي ملعون أبو الزعل وحيرة الأفكار... اشغل نفسك بالسعي على المعايش وإقامة الصلاة، فإن الأجساد إذا ترفهت تترك براحاً للعقل، وتسمح له أن يبدأ في أسئلته ثم لا ينتهي منها أبداً. وهل يستلذ بالمنام ولا بالطعام إلا متعب الجسد ومضناه.

– عندك كل الحق يا نيازي.

نيازي: «لكننا لم نعرف بعد من ضربك على رأسك ولماذا؟»

سيد الحكايات: «لا داعي... الله يسامحه... ولا تنس أن هذه الضربة هي التي قد أخرجت عفريت نور النديم من جسدي بلا رجعة».

طارق الشاذلي: «اسمحوا لي أن أقص عليكم هذه، كنت مراقباً للأمور عن كثب وقد أوصيت الشاويش فتح الله أن يمشي بين الناس كالذيب، ويأتيني بالأخبار بعدما تشاجر الصاحبان واعتزل سيد الحكايات في قريته التي بناها، وفهم سيد الحكايات أن أسعد قد عض على إصبع أحمد المكسور، وفطن إلى حديثهما في الحجرة كمن كان ثالثاً لنجواهما، ويبدو أن سيد الحكايات قرر أن يعفي أحمد الجنوبي من كسرة العين والملامة بين الناس إن عرفوا ما يعرفه أسعد النديم عن موضوع أسرار، فقام من فوره إلى بيت أسرار وقال لزوجها:

– أسرار سوف تذهب معي... اتركها فإنها لا تحبك.

وقال الرجل بتنطع غريب

– كلا إنها تحبني

فكرر عليه:

– قلت لك اتركها، إنها مسافرة معي في الفجر.

سمع كل الناس ما قاله لأنه صرخ به، إلا شوقي العبد الذي كان قد حبس نفسه في شقة خالية من بيته حزناً على الفرصة التي ضيعها من بين

أيديهم أحمد الجنوبي... ولخزيه من أهله الذين جعلهم يخسرون مودة أسعد النديم مجاناً... شوقي في تلك الليلة كان مزاجه جاهزاً للقتل بشكل لا يصدق، فقد فكر أولاً في قتل أسعد النديم ثم صب لنفسه جرعة زيادة من الخمر والحشيش والأفيون، فوجد نفسه يفكر في قتل أحمد الجنوبي الذي خذل الجميع، ورفع شوقي إصبعين في الهواء مقلداً بفمه صوت المسدس فقتل أحمد كذا مرة، وكان ينفعل بجسده أيضاً محاكياً ارتداد المسدس بعد خروج الطلقة... كان يقتل أو يحب أن يقتل... ثم حين تبوخ سكرته يجبن ويفكر في قتل نفسه... فلما طرق نادر زوج أسرار عليه الباب وأراد أن يحدثه نظر إليه شوقي بعين حمراء سكرانة، وفكر في أن يقتله... أي قتلٍ والسلام... لكنه أجلسه على مقعدٍ قريب واستمع إليه من دون أن يوليه احتراماً أو يطلب له الشاي، وقال نادر:

- صاحبك يا شوقي يريد أن يسرق زوجتي مني... سوف يسافر بها مع الفجر... أسرار ستضيع من أيدينا يا شوقي... أقصد من يدي
- من تقصد؟
- نور النديم وأسرار سيسافران... ولن أترك ذلك يحدث حتى إن اضطررت إلى القتل

القتل... أعاد نادر بكلامه شوقي إلى رغبته الأولي في تلك الليلة وحرضه كفاية وزوده بالدافع، ثم أشار له على الهدف... إنه نور النديم الذي أهانه من قبل بين الناس وابن تلك العائلة التي اتخذتهم سخرياً طيلة هذه السنين والأن يأخذ أسرار من القرية ويرحل بها.

فلما أنباني الشاويش فتح الله بما رآه وبما يظنه يحدث أسرعت في إثر شوقي العبد، وكنت أعلم أين سأجده... هناك في عزبة المجنون... وكنتُ على بعد أمتار منهما حين كان سيد الحكايات يرفع ذقنه للقمر وللسماء ولا يريم، وجاء شوقي من خلفه يحمل عرقاً غليظاً من أخشاب عزبة المجنون فضربه على رأسه من الخلف... والتفتَ القتيل إلى القاتل ولم يصدق كلاهما ما حدث، فسقط كلاهما مغشياً عليه قبل أن أدركهما... فلما تلمستُ نبض

الذي ينزف منهما وجدته مازال حياً... فحملته وأخفيته في شقتي بالقاهرة التي كنتُ أعددتها لنفسي قبل مجيئي إلى قريتكم، وتدبرت له من يطببه ويكتم السر حتى بدأ صاحبكم يهذي بالكلام ويحرك رموشه فأرسلت إليكم....

أحمد الجنوني: «ولماذا تركت جلبابه دونه؟»

طارق الشاذلي: «لأُلهي ذلك الصوت عني وعنه حين يجلس مع نفسه يضرب أخماساً في أسداس، ولولا ذلك لظنوه قد هرب ولبحثوا عنه في كل مكان... وكذلك لأطالب شوقي العبد بدمه ذات يوم».

فرحات: «وقد ظن شوقي ما حدث معجزة لولي الله نور النديم حين تبخَّرَ الجسد وصعد إلى السماء، ففر شوقي إلى بيته يحمل الجلباب ثم ألقاه عند المصرف حين رأى أنه يحمل بين يديه دليل جريمته».

الجنوبي: «ولكن أين ذهبت أسرار بعد ذلك بأيام؟!!»

سيد الحكايات: «زارني عفريت الترعة في غيبوبتي، وشكرني على كل ما كان مني... ثم أخبرني أن أسرار حين رأت أن صاحب أحمد قد افتداه بنفسه لإنقاذه وإنقاذ القرية كلها قررت أن تختفي من حياة أحمد، ولم تكن لها وجهة محددة ولا حياة تعيشها من غير محبة الرجل، فخرجت في الليل إلى الترعة ونزلت تعيش مع العفريت الذي أحبها وكتب حكايتها... رغم أن حكايتها لم تكن قد اكتملت ولا هو حتى قد استوفى جميع أوراقها الرسمية... فكتب السطر الأخير من حكايتها على ورقة كانت ملقاة بالقرب من الضفة قال فيها: «وسافرت أسرار إلى أمريكا!»، وأصبح الناس كلهم في القرية يعتقدون في ذلك وينسون السبب الذي سافرت أسرار لأجله حتى زوجها.

أحمد الجنوبي: «أخشى ألا تصدقوني، لكنني قابلت عفريت الترعة بالفعل، زارني منذ أيام بعد ما رُدِمَت الترعة، وسألني أن أدبر مكاناً جديداً للعفاريت بوصفي كبير القرية... فوعدته بالتصرف... ثم عاد يسألني عن عزبة المجنون، فأخبرته أن مرزوق الخولي قد كلَّمَ المحافظ وكلَّمَ الوزير أن تلحق عزبة المجنون بمتحف دنشواي القريب ضمن أعمال التوسعة

والتجديد التي تقوم بها الحكومة للمتحف حتى يأتيه زوار، فاغتبط المحافظ لذلك الحل الذي يبرر وجود القرية وينهي الصراع القائم من حولها، فأمر الكراكات بالابتعاد عنها. وقال العفريت: «عظيم جداً... نستطيع نحن أيضاً أن نعيش في القرية ونمثل أدوار عساكر الانجليز وأهل القرية، والمرأة التي تلقت الرصاصة في صدرها بالخطأ، وسنبهج السواح الأجانب بتمثيلنا، نحن نعرف حكاية هذه القرية كما نعرف حكاية قريتكم».

سيد الحكايات: «ولكن أخبروني الأن باسمي الذي سأعيش به بين الناس... من أنا الآن؟».

الجنوبي: «بوسعك أن تظل نور النديم ومعك الورق».

فرحات: «أو تعود كما كنت حسين منصور الدرغامي».

نيازي: «وفي كليهما خطورة على حياتك».

طارق الشاذلي: «بوسعك أن تبقى سيد الحكايات في تجردٍ من الأسماء والهوية، لا هذا ولا ذاك، فما زالت في بلادنا قرى كثيرة يطبق على أنفاسها ألف غولٍ مثل أسعد النديم، ومازال في القرى ألف نور النديم مقتولٍ ويطالب العفريت بثأره، ستعيش كل ساعة في قرية منها باسم جديد وحكاية أخرى تحكيها ولن يسع ذلك الصوت الذي يتبعك أن يعرف مكانك أبداً، لأن الأخبار سوف تأتيه من أمصار متفرقة».

سيد الحكايات: «ولكن يا صاحبي الناس قد قرأوا الحكاية وهم يعرفون طريقي الآن».

طارق الشاذلي: «هؤلاء باتوا أصحابك وأصحابنا، لن يشي أحدهم بك، سينتظرون أن تدلف ذات يوم إلى قراهم لتحكي عنهم... وزيادة في الحرص يا صاحبي سنأخذ عليهم العهد بالكتمان... نرجوكم يا سادة لا تخبروا أحداً بمكانه واحفظوا سر سيد الحكايات».

تمت 2018/4/25 م

عن الكاتب

محمد عمرو محمد الجمال.

شاعر وروائي وكاتب مسرحي. من مواليد المنوفية في 18 أبريل 1980. تخرج في قسم الجيولوجيا بكلية العلوم، جامعة المنوفية العام 2002

صدر له:

- قميص سماوي (الرواية الحاصلة على جائزة المركز الأول في المسابقة الأدبية المركزية بالهيئة العامة لقصور الثقافة،2011)، الطبعة الأولى إصدارات الهيئة العامة لقصور الثقافة عام 2011. الطبعة الثانية: نوستالجيا للإعلام والترجمة والنشر، جمهورية مصر العربية، 2018.
- أحاديث الجن والسطل: نوستالجيا للإعلام والترجمة والنشر، جمهورية مصر العربية، 2018.

قيد النشر:

- الصبح في كف ربه، مسرحية.
- أحلام كوم، مسرحية.
- ديوان شعر بالعامية المصرية

الفهرس

أنا..... 7

هو..... 19

طارق الشاذلي..... 35

الليلة الأولى..... 43

شوقي العبد..... 49

دكانة الحكايات..... 61

زاكي الجمال..... 69

أحمد الجنوبي..... 83

أنا الذي هو أنا..... 96

أسعد النديم..... 108

الليلة السبعون (الطلاق)..... 122

أسرار..... 130

المساخيط: حاشية على جمال أسرار..... 144

نور النديم (سفر محذوف من توراة القرية)..... 156

المانعة..... 166

محمد فرحات..... 186

أبو جلمبو..... 206

نحن..... 225

عن الكاتب..... 246

نوستالجيا
NOSTALGIA
Media . Translation . Publishing إعلام . ترجمة . نشر
دار ابن رشد